أحمد علي مصطفى

باشكى

(رواية)

» اسم الكتاب: **بانشاس.**

» اسم المؤلف: **أحمد علي مصطفى.**

» الترقيم الدولي: **ISBN: 978-9933-567-62-0**

» الناشر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**

» سنة الطباعة: **2022.**

» لوحة الغلاف: **بريشة الفنان السوري لؤي صلاح الدين.**

طبعة مشتركة الحقوق بين المؤلف والناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل

للنشر والدراسات والترجمة

هاتف: 00963115618956

00963115637060

aklpublishing@gmail.com

تستند هذه الرواية في أجزاء كثيرة منها إلى مجموعةٍ من القصص والحوادث، البعض منها مستمد من أحداث واقعية حدثت بالفعل، بينما البعض الآخر هو من نسج خيال الكاتب، أتت ضمن سياق ومعالجة دراميّة أدبيّة.

***

أتوجه بشكر خاص للأستاذة "عبير وكيل"
التي أوحت لي بالهيكل الأساس لفكرة الكتاب.

[الفصل الأول]

اتخذت مجلساً لها فوق أريكة قرب المدفأة في صالة المنزل، مُمسكة بمجلة تقلب صفحاتها بلا مبالاة، تتحرى الوجوم وقد تلبسها، لتشيح بوجهها تارة مُتململة، وتارة أخرى تخالها ركنت إلى انطواء عجيب غيَّبها عن كل ما يدور حولها، فلم تلتفت بداية إلى بكاء رضيعتها، ولا إلى صوت "إبراهيم" وهو يستحثها مُتعجباً شرودها وتكرار ندائه لها أكثر من مرة، كي تعنى بالباكية المرميَّة فوق سريرهما في الغرفة المجاورة، فارتفعت درجة صوته بعض الشيء دهشةً واستفساراً:

– دلال، ما بالك؟

– أووره، نعم!

– يكاد البكاء أن يهلك الطفلة، أكلمك، أنادي عليك أكثر من مرة، وأنت ساهمة؟

– لم أنتبه.

– لم تنتبهي؟

– لا، لم أنتبه، هل تريد محاسبتي على ذلك؟

– أبداً، لكن، ألا يحق لي أن أتساءل، ثم ما الذي يستدعي هذه النبرة العصبية في كلامك؟

أجابته وقد عادت أدراجها من الغرفة تضمُّ القماط إلى صدرها، بينما هدأ بكاء مَن تكمن في طياته، غير أنَّ نبرة صوتها لم تخلُ بعدُ من توتر مُبيَّت:

– ألستَ أنتَ مَن بادر إلى رفع صوته مُستنكراً شرودي للحظات؟

– كل ما في الأمر أني استغربت عدم انتباهك، لا تعتبريه تدخلاً، لنقل أنَّ الزوج التمس انتباه زوجته لبكاء الوليدة، هل أعتذر عن ذلك؟

– من يقول بأنَّ زواجك بي يشكل مُسوِّغاً يُبيح لك إحصاء أنفاسي، وامتلاك مكنونات صدري، بل وتتبع كل لحظة أشيح فيها ببصري عن ملكوتك والتبرّك ببلاط عرشك؟

– دلال، بالله عليك، تعلمين بأني لم أقصد كل ذلك، فلمَ كل ذلك؟

– بل أنا التي ستقدم كل الأعذار لجحودي النعيم الذي أتمرغ فيه، أتحسب أنك رزقتني لحن الحياة، بينما حُرمت صوت أمي، ما بالي لا أسعد اليوم وأنا أطرب لنباح الكلاب وصياح الديكة ونهيق الحمير، رحمةً بنفس صرعها التوق لملاعب الأهل وصخب الأحبة، أذهبتَ عني حتى الجوار، فلا أزور ولا أزار، هل هذه جنتك التي تُمنّيني وتمُنّ عليَّ بها؟

– ألم أفعل هذا سعياً للرضى، ألم أنقل عملي في "الإمارات" لأكون بقربك تبعاً لمشيئتك، ظننت بأنَّ ابتعادي عنك في الشهور الأولى أثر على مزاجك وصحتك وحتى إجهاض الجنينين في غيبتي.

– إلام ترمي في كل مرة تذكرني بما كتب القدر عليَّ من فشل للحمل؟

– لا شيء البتة، بل إني أثقل كاهلي بوزرٍ كالذنب، بات يؤرِّق نفسي ويسلبني الرقاد، حتى أعمالي في "بانياس" وضعتها في عهدة شريكي لأرعى شؤونك أيامي هذه، فعلت كل شيء ظننته يحقق سكينة نفس وراحة بال لأجلك، فهل أجازى بهذا الرد؟

– ولم لا يكون الغرض مما تقول هو حرصك على مولود كنت تخشى عليه أن يُجهض لا على راحتي كما تكرر على مسامعي في الفترة الأخيرة؟

– كنت أخشى عليه أن يُجهض، ماذا تقصدين؟

– لستُ بلهاء لأصدِّق كل حملتك هذه وروضتك الغناء، لتمعن في خنقي ضمن سورك المُذهَّب، كي تُحقق بغيتك في مولود ذكر يحمل اسمك، لكنني وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى؟

– آلله..! أيضمر القلب كلّ هذا النفث نحوي، حُبّاً بالله، أصدقيني القول، أقهراً أو غصباً كنت لك وكنت لي؟

ثم يخاطب نفسه بحسرة، بل لعلكِ لم تكوني لي في يوم أبداً، فما يستعر بين ضلوعك يا مغارة الأسرار لهو أعظم من ذلك، ما بال كرات اللهب التي يلفظها أتونك بهذا التفجر في وجهي، أهي وليدة اللحظة، لا، لا أخالها كذلك، يا إلهي، أيعقل أن يتلطى خلف هذا الجمال كل هذي الحمم، كيف تُخفي هذه النعومة ويبطن لطيف الطلّ ما أكابد من تكشير تلك الأنياب المتوحشة، واستنفار حادّ المخالب التي توغل في طعني، ولماذا؟

أيصدُقُ القولُ عن غريمٍ قديم؟

لا، لا، كيف، أين، ومتى، بل ما الذي يحول دون اقتراف ذلك، ألم أشغف أنا نفسي بهذا الفتك، يا علّام الغيوب، أيعقل أن يشغل كيان البركان ما يلوّع كبدي؟

يا ربّ السموات، ما الذي تهذي به، أظنها تجدني أحمقاً!

– القانون يقول بذلك، زوجٌ وزوجة.

– أليست لي حصة في قلبك من قلبك؟

– هل يُلزم عقد النكاح المملوك خضوع روحه للمُتصرّف؟

– أرجوكِ، هلا كففت؟

– الحلم يا سيدي، لا يأخذنَّ منك الغضب، فوعاء النسل ودُمية اللذة طوع أمرك ورهن إشارتك..

– "دلال"، حسبك إلى هنا، إن عافتني نفسك كمُحب، فرفقاً بمن يسألك المودَّة كزوج وأب لم يُقارب إثماً يعلم، بأن طمح إلى حياة مُستقرة، بأيِّ حال، أتمنى أن تؤجلي معزوفة بث الهموم التي أسمع لوقت آخر.

كانت حاجته ضرورية لنيل قسط من الراحة والنوم، فغداً موعد سفره إلى "بانياس" كي يتم إجراءات تتعلق بتسجيل المولودة ويستطلع أعمال الشركة هناك، سألها بلطف كي تُجهز نفسها صباحاً ليوصلها و"لبنى" بيت أهلها قبل رحيله، ولأجل تمضية الوقت هناك ريثما يحين موعد عودته، آملاً أن يخفف وجودها بينهم ما تلقاه منها مؤخراً.

كان يكبرها بأحد عشر عاماً لم تُشكل في حقيقة الأمر السبب الرئيس لتعنتها في الرفض، فهو رجلٌ لا يعيب مظهره

شيء، على قدرٍ من وسامة لا تُنكر، يرفل في ريعان الرجولة، إلى طول القامة أقرب، جسدٌ ممتلئٌ بغير سوء، وجه عاديّ القسمات، أبيض البشرة، ذو سحنة شرق أوسطيَّة بالمُجمل، يميزه شارب أسود كثيف، وعينان عسليتان واسعتان، يزين رأسه البيضوي شعر أسود سبط، تسلل من فوديه سالفان قد استطالا نزولاً لصدغيه وحتى مُنتصف الخدين، يحاكيان مظهراً لعموم جيل شباب فترة السبعينيات من القرن العشرين.

أما "دلال"، تلك الغزالة الرشيقة، النضرة الغضة، والفاكهة الفردوسية التي لم تتم ست عشرة سنة بعد، قيل يومها بأنَّ فعل المال وهيبة المنصب روَّضتا لرضوخها من بعد تهافتٍ عَجلٍ، استسلمت له كل مصاريع الأسرة، فشُرِّعت أبواب الأهل لاحتضان المغترب المُتعلم المُقتدر الذي يحمل شهادة جامعية من كلية الاقتصاد، إضافة إلى شركة صغيرة يمتلكها متخصصة بتجارة قطع غيار السيَّارات، والساعي لقطاف طاب، ووصال تكفله بنود قبة الحلال.

صدعت "دلال" بالرضوخ على تردد من بعد نكوص مُريب، وقصة عشق خفيّ، هالت الأوراق الحكومية بأختام النكاح الشرعيّ تراب الإشهار عليها، لتحرص على تمام الوأد، كي يحلّ يبابٌ، ويعمّ خرابٌ ساحة الأحباب، فهذا صبٌّ قد أزاحه عطرٌ جليل، تنثر رياحينه أوراق حكومية أخرى بعبق "البنكنوت"، حبيبٌ غريبٌ ساء صباحه من غير إنذار، ثريُّ قلبٍ، خاوي جيبٍ، بدا كعيبٍ، لفقر حالٍ، بدد المآل.

لم يغفل الناس عن التغني بسطوة الجمال الفتان للأم اليانعة، وذاك الاقتران المُفاجئ الداهم، لرجل لم تكن له زيارات للعاصمة "دمشق" قبل ذلك، إلا في فترات متباعدة يُحتّمها عمله خارج البلاد، فلم تبخل العروس، بغير إرادة منها، عن أن تُغدق بنصيبٍ من هذا الحظ "البيولوجي" الوفير، كي تهبه لقسمات تلك الطفلة الوليدة.

يحلُّ يومٌ يقرر فيه "إبراهيم" إغلاق شركته التي كانت تدر عليه دخلاً مُتصاعداً في إمارة "دُبي"، ليبدأ من خلال ثروة مقبولة حققها من عمله السابق هناك، بمشروع جديد يتمثل في شركة ناشئة لتجارة مُستلزمات تزويد السفن الصغيرة في مدينة "بانياس" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بشراكة مع صديقه "زياد عكاري"، تتوخى الشركة ضمن خطة استراتيجية بعيدة المدى توسعاً يغطي خدماتها كل مدن الساحل السوري.

حتَّم ذلك عليه أن يزور زوجته مرة واحدة نهاية كل أسبوع، بعد أن استأجر لإقامتهما شقة قريبة من بيت أهلها في العاصمة.

تحملُ "دلال" بعد فترة وجيزة من هذا الاقتران بجنينٍ يُجهضُ في غياب "إبراهيم"، تمر أشهر قليلة تالية، يحدث حملٌ لجنينٍ آخر، يُجهضُ للمرة الثانية في المشفى، في غياب الزوج أيضاً، والذي صُوِّر الأمر له كحادث ممكن وقوعه وتكراره، يرتاب الرجل مع غصة حلقٍ وعصرة قلب، تُفسحان لموطن شكوك أخذت لها مكاناً لما بات يقضُّ مضاجعه، فهو حاضرٌ حائر، غائبٌ عاثر، قد تسربت إلى نفسه صورٌ ساخرة تُعبِّر عن حزنٍ غامض

غزاه، لتصرفات الزوجة التي لم يستطع أن يقنع نفسه بأنها تبادله أحاسيس لهفة أو شوق، فضلاً عن حبٍّ ولا مودة، فكان قراره الذي اتخذ، بأن يعهد إلى شريكه في "بانياس" بإدارة الأعمال، بينما يتابع هو ما يلزم من مكتب مؤقت اتخذه في "دمشق".

في خطوة تالية، ارتأى "إبراهيم" أن يستأجر منزلاً مختلفاً لعله يشتمل على حلّ ما، ظن بأنه سوف ينأى بهما عن ضوضاء العاصمة وصخبها، إلى هدوء الريف وسكينته، في منطقة "بلودان" الجبلية، من بعد يقينه بأنَّ الإجهاض فعلٌ يشي بنوايا القصد من اقترافها هي، فأضمر في نفسه استجلاء الحالة دونما فجاجة في التتبع.

استشعرت نفسها الأمر وكأنه إقامة جبريَّة دون إعلان بذلك، وإن تحرَّته بحدسها المُتقد وفطرتها الأنثوية، فاتخذت الحالة شكل رقابة مستمرة، خاصة بعد أن حملت للمرة الثالثة ولمدة ثمانية أشهر متتابعات لم يغفل فيها عنها، حتى وضعت حملها قدَراً قد أزفَ قهراً بالطفلة الخديجة "لبنى".

قبيل حلول أصيل اليوم الأول له في "بانياس"، يتلقى "إبراهيم" اتصالاً عبر "السنترال" من "دلال"، كانت كلماتها باردة مُترددة أقرب إلى الهذر، لكنها وقرت في سمعه كالرصاص المُنصر:

– لقد أرسلتُ "لبنى" إليك في "بانياس"!

– ما الذي تقوليه، ما قصدك بـ"أرسلت الرضيعة"؟

– ابنتك، أرسلتها إليك.

استحال صوته حشرجة كادت تودي بقلبه المُنفطر ليسألها:

- "دلال"، ما الذي يحدث، أتعنين ذلك بالفعل، هل جُننتِ؟

- عليك أن تتفهم الأمر، لم أخترها، لا طاقة لي بها، هي ابنتك، فأرسلتها إليك!

- ما الذي دهاكِ، رضيعة لم تبلغ الشهرين بعد، كيف جاز لقلبك، لماذا؟

- لا تسألني، لا أعلم، لقد ذهبتُ إلى محطة السيارات المُسافرة للمحافظات، طلبت من سائقي سيارات الأجرة المتوجهة إلى "بانياس" عارضة عليهم العون والمساعدة في إيصال الرضيعة إلى بيت أهلها هناك، ظفرت بسائق منهم تعرف إلى والدك، شرحت له العنوان ما استطعت، كما زودته بعبوتي رضاعة جاهزتين، فلا تخف، لن يُهلكها البكاء جوعاً!

لحظتها أسقِط في يد "إبراهيم" وقد جُنَّ جنونه لهذا التصرف المفاجئ العابث الذي لم يجد له تفسيراً، غير أنه تدارك نفسه محاولاً كظم غيظه ما شاء له أن يفعل، فقط كي يستعلم بقية الأمر وعلته.

- ما اسم السائق، ما نوع سيارته، ما هو رقمها، وكيف سنعثر عليه؟

أجابته بكل هدوء وبرود:

- اسمه "بدر".

- ما اسم عائلته، وكيف لنا أن نعرفه؟

- لا أعلم..

عندها فقط، تجمَّعت في بوتقة صدره كل سَوراتِ الغضب،

كلّ شُواظ يخنقه، كل لظىً وسعير، لتنطلق في جوف استهتارها صرخة، لعلها كانت فرحة لها وخلاصاً مُنتظراً، بينما كانت له يأساً وقنوطاً مُهتصراً، أخيلة سوداء لغربان اعتلت خرائب مُتربة، نعيقٌ لم يأبه لتقطع نياط قلبه، آهات تفرّ من غلواء أحشائه قهراً، تخرج بكلمات ثلاث لم يزد عليهن شيئاً:

- أنت طالق، طالق، طالق..

كانت تلك هي اللحظة الحاسمة لمفارقة أبدية ما بين "إبراهيم" و"دلال" وضعت نهاية لعلاقة لم تثمر في حقل الخيبات تلك، سوى طفلة بدأت حياة لها لم تختر فصولها، بدأتها قهراً وقسراً، إقصاءً وهجراً، ضمن متاهة تتجاوز كل الفصول.

في عتمة ليلٍ شتويٍ بهيم، ما انفكت رياحه تهدر مُستنكرة، تزمجر برعودٍ غاضبة ثائرة، قد مست شغاف سماواته نفحات رحمة، رقت لها سحبه، فعز عليها ألا تنتحب سخطاً يذرف قطرهُ المُثقل بالأسى مُنهمراً كدمع سيَّال، تجود به عيون السماء الشاهدة، لما يقترف تحت ستوره المُبصرة من آثام، حيث تُنحر الرحمة على نطع الخطايا، فتلفظ بالطفولة حُمقاً وحُنقاً، في خليط من برك تتجمع في أزقة الظلم وحواري الظلمات، من أوحال الطبيعة وآسن أوحال البشر.

هناك، كانت لفة من أقمشة قد كوِّرت، تضم رضيعة تُركتْ لمصيرها في حِجر سائق سيارة أجرة، أخذته حميَّة ذات مدفوع أبويٍ أصيل، ليتطوع بإيصال كتلة اللحم الورديّ الباكي برداً وجوعاً، نبذاً عن قلبٍ أثخنته أكِنَّة القسوة بأغطية الحُلكة، حكم

نفي أمهر بخاتم النزوة، قد أقر لفظها بعيداً، في رحلة ما بين "الشام" و"بانياس"، هي رحلة وأد فوق التراب، وعلى رؤوس الأشهاد، كتبته أمٌّ، وأيُّ أمّ..!؟

بعد أن تعرَّف السائق إلى جَدِّها "عطا اليعقوبي"، ذي المكانة الاجتماعية المحبوبة في "بانياس"، أذعن لرقة تسربت إلى نفسه، همست له رأفة بأن يتناول هذا القدر بساعد القبول وكفّ الرضى، عندما توجَّس خيفة من التصرف غير الطبيعي للأم، التي نظرها ترغب بالتخلي عن هذه الرضيعة، ولسبب آخر يتعلق بمولودة قد رُزقها حديثاً، فقرر أن يغير مساره في رحلة طويلة بين القرى يوصل المسافرين وجهاتهم أوّلاً، ثم يتابع إنجاز المهمة التي حمل على عاتقه.

كان السائق "بدر" في الأصل من مدينة "الرقة"، وله سفريات مُستمرة إلى المدن الساحلية ومنها مدينة "بانياس" التي يعرفها جيداً، فهي مدينة زوجته، تعرف خلالها إلى جد الرضيعة المتقاعد، المدير السابق للمركز الثقافي في المدينة، في إحدى المرات، فخشي على الطفلة ألا تصل وجهتها عندما تُقذف إلى أي سائق آخر غير مضمون.

تتحرك السيارة منطلقة بمن تضمهم، وفم صغير يبحث عن ريح ثوب أمٍّ قد توارت، فيصدُر البكاء لحناً متقطعاً في بحث من غير جدوى، لتغوص العربة في ديجور عميق، يُباعد بين خرخرةٍ نمرية، وحلم لتهويدة لم تُسمع دندنتها في ليلٍ داجٍ رطيب بارد ذو وَدقٍ غزير.

ينقل "إبراهيم" الخبر لأبيه، الرجل المُقرَّب إلى غالبية أهل المدينة، فيستنفر الجوار والأقرباء ووجهاء المنطقة، ويستحث كل السائقين الذين يعرفهم ويعرفونه، لتتوزع الجموع قرب مداخل "بانياس"، تستقصي كل سيارات الأجرة القادمة في سعي من غير كللٍ، وبحث من غير ملل، عن الوليدة المُرتحلة.

فجأة حدث الأمر، عند أحلك الأوقات التي تسبق الفجر، بعد أن هدأت حركة السيارات، وخفتت أصوات الجموع نسبياً، وكاد الأمل يتسرب من بين أياديهم، تطالع الأحداق سيارة تتهادى ببطء تقترب منهم، وكأنها تبحث عنهم كما يبحثون عنها، مد يده إليهم خارج نافذة السيارة أن هلموا، نعم، هذه هي الأمانة، كانت أول يد امتدت لتتلقف قطعة الكبد الثمين، يد الجد الفاضل "عطا"، تتهلل الوجوه بشراً بعطية السماء لتبدأ حياةٌ ساحليَّة تالية، وفصلٌ آخر في عالم الأعين المُتطلعة، يُقسم "عطا" على السائق "بدر" أن يقضي ليلته عنده، كي يُكرم وفادته ويُجزل له العطاء، لكنه يأبى أن يتقاضى أي أجر لفعل الخير، يوافق أن يمضي الليلة على أن يغادر صباحاً، بعد أن شارك إلى حد ما بحفظ حياة.

[الفصل الثاني]

تمرُّ تسع سنوات، تغدو فيها "لبنى" طفلة تتجمع في حواسها صور شتى لوجوه لا تستطيع تمييز قسوتها أو سماحتها، في بيتٍ شُيِّد على طراز معماري تشتهر به كثير من دور كبار عائلات بلاد الشام مطلع القرن العشرين، له بابان، واحد أمامي غير بعيد عن الكورنيش البحري، ينتصف سوراً حجرياً يحيط بالمنزل، تعلوه قضبان معدنية تنتهي بتيجان مُدببة ذات لون برونزي، تفصل السور عن المنزل حديقة صغيرة زُرعت بشجيرات من نارنج ومشمش هندي، كما غطت مواضع كثيرة من السور خُضرة أغصان الياسمين وبياض تفتحه، بينما زينت ظاهر التربة في الأحواض المنخفضة، ورود متنوعة وشتلات عطر وريحان، وباب خلفي آخر ينفتح على شارع داخلي.

هو بيتٌ كبيرٌ يفيضُ بحُجُراته الخمس رحابة، وأرض ديار فسيحة تستقبل السماء في كل الأوقات بفضائها، تتوسطها بحرة جميلة بحجارة سود وبيض وأخرى قرميدية اللون، لطيفة في صوت تراقص نافورة مائها النقي، مع ذلك، فهو بناء مُقتر شحيح في وهب الراحة للصغيرة المتسائلة.

الجد "عطا اليعقوبي"، كان يشغل سابقاً منصب مدير المركز الثقافي في المدينة، والجدة "أمينة سركجي" السيدة المتعلمة التي أمضت سنوات طويلة من عمرها كمديرة لثانوية البنات الأولى،

ما جعلها حاضرة بسمعتها كمربية فاضلة ذات ثقافة وحكمة عاليتين في أكثر بيوتات المدينة، تسبقها سيرتها العطرة ولمساتها الإنسانية التي تحمل رسائل ودٍّ وحياة تتناقلها طالباتها بنات المدينة، قد أحيلت إلى التقاعد كزوجها منذ فترة قريبة، فتفرغت لبيتها وترسيخ ولعها القديم المستمر بالمطالعة، كما حازت تسمية فخرية مُستحقة من الأهالي كمستشارة اجتماعية يُستأنس بآرائها، تساعد في إيجاد حلول توافقية للمعضلات الأسريَّة التي تُطرح بين يديها بحنكة عالية، ومن أفراد الأسرة أيضاً شقيق واحد يصغر والدها بثلاث سنوات، هو العم "لطفي"، قد تخرج حديثاً من كلية الفنون الجميلة، إضافة إلى شقيقتين اثنتين هما، العمَّة الكبرى "سحر"، مشرفة رياضية في ثانوية البنات الأولى التي كانت والدتها مديرة لها، والصغرى "تماضر" تعمل مُستخدَمة في مركز البريد في المدينة، عُينت بتزكية من والدها، مع أنها تركت التعليم في السنة الثانية من المرحلة الثانوية عن سابق مقتٍ وتصميم، بعد أن استوطنت نفسها كراهية خالصة لكل ما يتعلق بالدراسة، بل واستفحل الأمر إلى ما يشبه النفور من كل أشكال الكتب على اختلافها، والأبنية المدرسية عموماً وما يتبع لها، حيث لم تنفع معها كل الوسائل التي حاولت بها والدتها أن تثنيها عن قرارها الذي اتخذته منتشية بإحساس رأت فيه غبطة تمتعها بمحوريَّة اهتمام الأسرة ولذة سيطرتها في الرفض كلما ازدادوا تعلقاً بأمل إقناعها.

شكلت تلك السنوات الأولى جانباً مُهماً من ذكرياتها، حيث

كانت تنعم فيها إلى حد ما ببحبوحة صخب الأسرة، من عطف جدها الرحيم، وقد تراءت له في شيخوخته كنفس الصباح الأول المُتسلل، الذي بات ينعش صدره كل يوم بهجة خالصة، كلما طالع حركاتها الدؤوبة، ولعبها البريء، يرقبها بشغفٍ وحنو، تقفز كقطة مُدللة، وتطير كفراشة يُخشى على رفرفة أجنحتها من حريقٍ قد يتأجج في أي لحظة، كانت ترى في جدها الذي جُبلت نفسه على المَيلِ لوسائل الانشراح والبهجة والسرور، جبلاً عظيماً لا يُماثله رجلٌ في شموخه ولا قوته، صلدٌ ثابتٌ لا يزحزحه شيء في رسوخه، فهو دائم الاستماع بحب إلى ثرثرتها الطاهرة، واستفساراتها العجيبة، مُغدق في هداياه لها من الأطاييب التي لا تنقطع عنها، غير أنها مع ذلك، كانت تتلقى توبيخاً وتعنيفاً مستمراً، وقرصاً لخديها وضرباً على ظاهر كفيها في بعض الأحيان التي تقبض عليها فيها عمتها الصُغرى "تماضر" مُتلبسة بجناية استراق السمع إلى ما يتسرب من أحاديث وحوارات دورية، بين الجد وصحبه في كثير من المواضيع والعلوم والمعارف التي غذت خيال الطفلة مبكراً بآثار من عوالم الكبار بالتقادم، أو تُوقعُ بها مُقترفة جرم التلصص من فرجات الأبواب، وما تُفسّره لها كإثم في انجذابها بشوق للحفلات الموسيقية الغنائية الخاصة، التي كان يُقيمها جدها في البيت لأشهر المطربين في المنطقة، يحضرها عليَّة القوم من النُخب والمُثقفين، فلم يكن غريباً في هذا الخضم أن يضم بيت كهذا آلة موسيقية تعلقت بها نفسها، كان يقبع هناك مستنداً بكل جلال وبهاء إلى حائط كبرى غرف

المنزل "بيانو" خشبي كبير، بلون أسود وغطاء احتوى في جوفه لغة حرصت على تعلمها، فتنت الطفلة بهذا الجهاز الصوتي الذي تسكن النغمات بين خشباته، فدرجت على تسلق كرسي يرفعها لمستوى مفاتيحه كي تتعلم عبر التعوُّد بالسمع بداية، ثم تتعرف أكثر برعاية حرفيّة من الأستاذ "وفيق" عازف آلة الكمان، وصديق جدها إلى أساسيات ومبادئ علوم الموسيقا.

كادت تطير فرحاً عندما أخبرها والدها أن بإمكانها الذهاب في رحلة لمدة أسبوعين إلى "اليونان" من أجل تموين السفينة، لكنه لن يستطيع البقاء معها، بل ستكون برفقة السيدة "فدوى" وابنتها الشابة "ميناس"، كانت السيدة "فدوى" تمتلك الحصة الأكبر من ملكية السفينة، بينما كان لوالد "لبنى" حصة أقل استطاع المساهمة بها منذ فترة قريبة، جهز والدها لها كيساً فيه بعض الثياب والحاجيات، بينما تابع إنهاء بعض الأوراق المتعلقة بالعمل، يُطلب منها أن تختبئ في مكان من السفينة حيث تمت تغطيتها كونها لا تحمل جواز سفر وخشية من التفتيش الروتيني قبل مغادرة المركب، لم تكن الطفلة تفهم شيئاً عن الأسباب التي دعت إلى إخفائها بهذا الشكل، لكنها كانت سعيدة، خاصة أنها استشعرت حب السيدة "فدوى" لها وعنايتها بها طول فترة تواجدهم في "اليونان" وحتى بعد عودتهم من تلك الرحلة، فكانت تلك بداية لعلاقة طيبة مثمرة فيما تلا ذلك من سنوات، كانت تتلمس فيها رعاية السيدة الطيبة لها من خلال الهدايا التي ترسلها في مرات عديدة، أو حتى في مستلزمات المدرسة التي تتكفل هي

بمصاريفها، من قرطاسية وزي مدرسي وغير ذلك، فكان التغيُّر بادياً لمن حولها عندما أصبحت تتعم بملابس جديدة وأحذية، إضافة إلى لحظات السرور التي يطرب لها قلبها عند كل زيارة اعتادت أن تقوم بها لبيت السيدة الكريمة، ومذاق الشوكولا الفاخرة التي كانت تذوب في فمها كما الشهد والعطر معاً، إضافة إلى أطاييب الطعام المختلفة في كل مرة، لم يقتصر حبل الودّ على سيدة المنزل فقط، بل تجاوزه ليشمل ابنتها "ميناس" التي كانت تبدي اهتماماً ملحوظاً بها، ولا تتوانى عن إجابتها على كل سؤال أو استفسار تطرحه، كما أنها تعلمت بمرور الوقت فنون اللباقة والكياسة وآداب الحديث، مع ما تلقفته من أصول الطبخ وأعمال التطريز اليدوي، ولا تنسى أيضاً الشاب "حسان" ابن السيدة "فدوى" الذي كان يدير عملاً خاصاً له في إمارة "دُبي" ويقوم بزيارات متقطعة للعائلة، كانت تردد على الدوام بأنها ستذهب في يوم من الأيام إلى "دُبَي" التي أحبتها، ففيها الكثير من الأشياء الجميلة، كيف لا و"حسان" يحضر لها هدايا ثمينة من هناك، منها في مرة من المرات حذاء رياضيّ يحمل علامة تجارية شهيرة، أحدث في قلب عمتها ثورة من حسد وغيرة، تسأل نفسها مستنكرة، كيف يحضرون لها تلك الأشياء الغالية، ولماذا؟

كانت زياراتها المفرحة تلك لا تتجاوز ثلاث ساعات أو أكثر بقليل، ولَّدت نوعاً من بريق أمل ومساحة تتنفس من خلالها الوجود، قبل رجوعها بعد كل جرعة هناء إلى سجنها القاحل المظلم المقيت.

تذكر من تلك المرحلة العُمْريَّة أيضاً عائلة تتكون من رجل ثريٍّ كبير وزوجته داوما على زيارة بيت جدها، كانا يعيشان وحدهما بلا أطفال، يقطنان في فيلا ضخمة ليست بعيدة عن منزلها، سألاه أن يتبنّيا "لبنى"، ترك الجد الخيار لها أن تجرب إن شاءت، فهو في الحقيقة كان يخشى عليها من قسوة عمتها التي يعلم مدى كرهها لها، خاصة أن أعراض الهرم لاحت عليه، ودبيب المرض بدأ يزحف إلى جسده، جربت الطفلة قضاء ثلاثة أيام هناك، كانت الفيلا ضخمة مُسيّجة بسور حديدي كبير، أشعرها بانقباض في صدرها وخوف وعزلة، أمضت فيها جُلَّ ساعات الليل بين بكاء أجهد قلبها الضعيف، وأسئلة تتردد في أعماقها ببراءة خالصة، لم لا يحدث لكل أطفال الجيران ما يحدث لي؟

في صبيحة اليوم الرابع هربت عائدة إلى بيت جدها، سائلة إياه ألا يبعدها عنه مرة أخرى بعد الآن، أجابها الجد هامساً في أذنها كلمات لن تنساها أبد الدهر قائلاً: "إذاً، عليك أن تحتملي مشقة الحياة إن غبتُ عنك مُكرهاً يا صغيرتي".

كانت للصيف عند "لبنى" خصوصية وطقوسٌ تخفف عنها بعض تلك الأحمال، حيث تبدأ بسقاية الحديقة، وترطيب الفناء ومدخل البيت بالماء البارد، ثم تعتلي بعد ذلك سطح المنزل، تجلس على كرسي خشبيّ هزَّاز هناك عند وقت الأصيل، تراقب السماء والطيور وبعض السحب البيضاء حتى مغيب الشمس، فيبهجها تداخل الألوان البديع، بين الأزرق والأحمر والأرجواني، قد أحضرت الكثير من أزهار الياسمين، وبعض الخيوط الملونة،

تشرع في صنع عقود من الورد، توزعها على الجيران الذين يفرحون بهداياها البيضاء، ينادون عليها كل يوم متسائلين عن عقد الشذى اليومي.

تحلُّ لحظة الخوف بعد تربُّصٍ خفي، ترفض الصغيرة حينها كل المبررات التي قدمها والدها لها، في شرح معنى أن يتزوج من امرأة أخرى كضرورة حياتية، وما يترتب على ذلك الاقتران من مغادرته البيت الذي يضمهم لمنزل آخر خاص بهذا القرار الذي أحدث لها صدمة عظيمة قياساً إلى حداثة سنها، برفقة عروس من مدينة "طرابلس" اللبنانية، شغلته ربما برغبة منه عن طفلة عافها غير آسف.

يغادر العم "لطفي" بعد زواجه بأشهر قليلة البيت أيضاً مهاجراً إلى "سويسرا" بعد أن جذب إليه اهتمام مستشارة فنون "سويسرية" مُطلقة في منتصف العقد الرابع من عمرها، فتزوجها، أو ربَّما تزوَّجته، أثناء مساهمته في أحد المعارض الفنية التي أقيمت في العاصمة "دمشق"، حيث كانت تقوم بجولات اطلاعية منتظمة، تحرص من خلالها على متابعة وشراء لوحات فنية تنتقيها بعناية وأسعار معقولة، لرسامين محترفين في الشرق الأوسط ودول حوض البحر الأبيض المتوسط، كي تعيد بيعها عبر وسطاء آخرين في دول أوروبا والعالم بأسعار عالية.

كذلك هو الحال بالنسبة للعمة الكبرى "سحر" التي تزوجت قبل ذلك بسنة وغادرت مع زوجها الذي يعمل في سلطنة "عُمان" للإقامة معه هناك.

تبقى العمة الصغرى "تماضر" آفة في المنزل، جثمت كالقواعد من النساء، وكأنها بُعثت لتبور فتجور، ممسوحة الصدر، حاضرة الغدر، رقطاء صفراء، ممتقع لونها، كالح وجهها، لا تسرُّ الناظرين، تكبر "لبنى" بعشرين عاماً، يصدق فيها القول بأنها الفزاعة التي كانت ترهب حقل طفولتها، لذا فلم تكن أحب الأوقات إلى قلب "لبنى" سوى تلك التي تجبر العمة فيها على الابتعاد عن المنزل طوال ساعات عملها.

خلق هذا البقاء الأولي هواجس مخيفة، أسست لأيام قاتمة خلفت الكثير من الكوابيس للمخلوق البريء، وكأن تأخر الزواج تآمر ليس ضد تلك العمة فحسب، بل شكل سبباً يدفعها لبث صنوف متنوعة من الغل والضغينة الكامنة كالعلق في جوفها العدواني، ليربو مع مرور الأيام قسوة تهيلها فوق رأس المسكينة.

كيف لامرأة في مثل نُضجها أن تخطط لفعل شيطاني مخيف، نفذته في ليلة غاب فيها الجد والجدة والرحمة عن البيت جميعاً، فعمدت إلى تجليل نفسها برداء أبيض، غطاها من أعلى رأسها لأخمص قدميها، استطال لتبدو كشبح يترقب الانقضاض، تتسلل بخفة وخبث نحو غرفة الطفلة، ثم تقفز في وجهها فجأة وهي تحشرج بصوت جعلته خشناً لترهبها، في مشهد مرعب خلف صرخة مفزعة كادت تقتلها لهول الصدمة، تركت عظيم الأثر فيما بعد من سنوات على حياة من ناصبتها الكراهية!

عندما التحقت "لبنى" بصفوف المدرسة الابتدائية، تلمَّس مَن حولها ذكاءً عالياً وفطنة ميزتها عن قريناتها، بمساعدة وتشجيع

من جدها العاشق لعوالم الشعر والأدب والفنون والموسيقا، فمكتبة المنزل كانت خير الزاد للقراءات الأولى لها، لقصائد "المتنبي" و"الحمداني" و"المعري" و"شوقي" وغيرهم، ولكثير من الأعمال الشعرية المختلفة التي حفظتها مع شرح مفرداتها ومعانيها، بعون وإلقاء من الجد أمامها، كي تكررها وتضيف عليها منتقيات أخرى، بجهد مطّرد منها بمرور الأيام، فعملت على تطوير مهاراتها الذاتية، مما جعلها تنهي أعوام الدراسة الستة بتفوق ملحوظ، وشهادة تقدير على مستوى المحافظة، ثم لتفوز بمرتبة رائدة في مجال الكتابة الأدبية والتمثيل والمسرح المدرسي على مستوى الجمهورية ككل، فتقرر إيفادها كمكافأة لها، ضمن بعثة خارجية تمتد لشهرين كاملين، تضم أوائل الرواد في القطر وهي منهم، ليسافروا جميعاً إلى "تونس"، و"المغرب".

غير أن تلك السنوات لم تكن لتمر دون حوادث مؤلمة، حفرت في وجدانها تساؤلات مبهمة لم تفقه معانيها إلا بكرور الأيام ونضج عقلها في تفهم تلك المفردات الهامسة الغريبة، كان السؤال الأكبر الذي ملأ عليها كونها وكيانها المرهف، لم كل هذه الكراهية التي تصبّها عليها من يفترض أنها أقرب الناس إليها في المكان الذي تعيش فيه، إنها تعرفت إلى عمّات وخالات في بيوت الجوار، لم ترَ فيهنَّ تلك النظرات لأبناء وبنات أشقائهن وشقيقاتهن، فلمَ تُعاقب هي تحديداً على وجودها فقط؟

في صباح يوم مدرسي، حدث أن تخلفت "لبنى" عن كتابة واجب لها ككل الأطفال في كثير من الأحيان، تقترب منها

مدرسة مادة الرياضيات بغضب، ثم ترمي بكلمات في أذنيها، كلمات كيف لها أن تُمحى أو تُنسى، استقرت عميقاً كصفعة غادرة حارت في تلافيها لتقول: "صحيح أنك بنت حرام!".

لقد نشأت تستمع عَرَضاً في خضم من أحاديث كثيرة إلى كلمتي "حلال" و"حرام"، وأن مفاهيم الحلال هي تلك الأمور الجيدة والجميلة التي ترضي الله في السماء، بينما الحرام هو كل ما يناقض ويخالف الأمور السالفة، من تصرفات لا يجب أن تقربها، لذلك، كان وقع تلك الكلمة على قلبها حزناً وخوفاً وأسى، خالطه شعور بخجل باطني معذب مجهول، حارت أن تعلم أسبابه، فهل هي حقاً ابنة لأشياء سيئة، أشياء لا ترضي الله؟

قطعت المسافة بين المدرسة والبيت دامعة العينين ندية الوجنتين مكلومة الفؤاد، كان أول شيء فعلته عند وصولها، أن أخبرت جدها بحضور من عمتها "تماضر" بما سمعته من معلمتها، تستعلم عن معنى تلك الكلمات التي امتقع لها وجه الجد بغضب لم تعهده في ملامحه من قبل إلا ندرة، لكنه مع ذلك آثر أن يطيب من خاطرها، وسألها ألا تكلم في ذلك أياً كان من الناس، ثم وعدها بأنه سوف يتصرف ويزور المدرسة ويستفهم من المعلمة، ليقف على حقيقة الأمر، لكن لم تفارق ذكراها ابتسامة سريعة عابرة، أتت كأنها متشفية، زادت من قبح وجه كأنه خلق من دركات الجحيم، طالعتها في سحنة العمة المتربصة!

تمخضت مقابلة الجد مع المعلمة بنكران لما نقلته الحفيدة التي اختلقت ذلك كونها كاذبة!

تلقفت العمة النتيجة لتبتهج بالكلمة، فالفتاة كاذبة، نعم، ما أكثرها من نشوة أن تطبع الغريمة بهذا البهتان، مع يقينها بأن المعلمة هي الكاذبة، إنه انتصار خفي رفرفت فيه رايات التسلط والقهر والكراهية.

فيما تلا ذلك من أيام اعتادت "لبنى" على سماع كلمة "كاذبة" إلى جانب اتهامات أخرى تكيلها لها في كثير من الأوقات سفيرة العتمة، مما ضاعف شعورها بمعاني الظلم وافتقاد العدل، توازياً مع شظايا جارحة لغربة استوطنت روحها، وعزلة غدت تدمي وتستفحل، فانكفأت على نفسها تحاول أن تدفع من خلال تفوقها، وما يستقر في أعماقها من قوة ذاتية تحركها، تهمة الكذب بشتى الوسائل، لكن رغم ذلك فقد تسيَّد الخوفُ ليعلن مكانته كعنوان مسيطر، وظلٍّ مخيف لا يفارق، فاعتادت أن تصدع بالرضوخ لكل سؤال أو طلب أو أمر يُملى عليها، كما ألقيت على عاتقها مهام كثيرة اعتادت أن تتولاها بصمت يتناسب ومستوى الرهبة التي تكونت كغزل العنكبوت ودون أدنى اعتراض، من تنظيف وترتيب للمنزل، وكيّ للثياب، ومساعدة في تحضير المؤونة والغذاء، كما وُضع لها كرسي أمام المجلى أيضا، تعتليه لتنتهي فروض غسل الأواني والصحون، كل ذلك لم يكن ليقف حائلاً يخفف بطش المُتجبِّرة المُنتظرة لأيِّ خطأ أو هفوة بسيطة، كي تباشر أذيتها، تقبض على شعرها بلؤم مُتجذر، تسحبها بعنف خارج غرف البيت نحو الحديقة، تتقصد أن تضربها هناك، كانت تجد متعة ساديَّة يُحركها شرٌّ مُستفحلٌ مُقيم، تتلذذ في تعذيبها على مرأى من أعين

الجيران في شرفات المباني المُطلة على حديقة الأسى، فيتعالى الصراخ من روحها تسألها الله الرحمة، بينما ينهال الرجاء من حناجرهم أن تكفَّ عن هذا السُعار، فكانت كلما أمعنوا في محاولة ثنيها عن جموحها تضاعف هي من جُرعة توحشها!

كيف لا، وهي التي ترى وتسمع وتتابع بألوان من الغيرة والحسد والتوجُّع الخفي، الكثير من قصص الحب التي تضجُّ أمامها، كل مهرجانات الغبطة ولحظات السعادة، كل حفلات الخطوبة والأعراس التي يهنأ بها الجوار حولها، بل وحتى عند أغلب الأقربين من أسرتها، تنظر بعين الجوع الأعظم والحرمان الأكبر والأسى، كلّ بطنٍ يتكوّر لعروسٍ جديدة، كلّ حالة ولادة، كلّ ثدي أمّ يدرُّ الحليب والرحمة، كلّ تسريحة شعر ووجه يزدان بالحُسن لفتاة مُقبلة على الحياة، كلّ طفل يحبو، كلّ طفلة تلعب، الجميع يبش له الحظ إلا هي!

تقلب الأمر في سواد نفسها مرات، ألم تأت ابنة أخيها التي تمقت، نتيجة عاطفة جارفة أخذت بمجامع قلب شقيقها فسلبته أحلامه وكتبت عليه أن يركع في حضرة الجمال، فلم يُقدر له الجمال صنيعه، ولم يشفع له الخضوع رضوخه، فأطاح به في غفلة أجفلته ولطمة أذهلته، تحررت اللاهية لتحيا سعادتها بينما قيدته بآثار النزوة تتحرك أمامها، تُذكّرها بها، تنظر بعينيها وإن غابت، تتكلم بلسانها وشفتيها، تتنفس صدرها، تمدّ لها لسانها في تشفٍّ حرَّاق، كأنها تضيف إلى الأغلال أغلالاً، خلقت منها جارية تخدم ما خلفت، فكيف لا؟

تناهى إلى مسامعها من خلف باب غرفتها، حيث كانت منشغلة بإنجاز قطعة "كانافا" قماشية بين يديها، جزء من الحوار الدائر في فناء البيت بين أبيها، الذي استغربت زيارته المفاجئة من بعد انقطاع طويل، وبين جدتها "أمينة":

– إنها ابنتك أولاً وأخيراً، أخذتها أم أبقيتها، لكن هل شوقك إليها حقاً هو ما ألزمك التكرم بهذه الزيارة؟

– أمي، حتى وإن لم يكن هو الشوق، أليس لي الحق بأخذها؟

– أحد عشر عاماً لم تكترث لوجودها، فما الجديد؟

– إنها إجازة الصيف، وجدت أنه من الحكمة بمكانٍ أن تمضي وقتاً تُروِّح فيه عن نفسها.

– ما أعظمه من شوق تنزلت بركاته على قلبك يا بُنيّ!

– بأي حال، لم أقل إنها ستقيم عندي بشكل دائم، ربما لفترة مُحددة، أو إن طاب لها المقام.

– وماذا عن "عفاف"، زوجتك المرهفة الأحاسيس، أهي راغبة أيضاً برؤيتها للفترة التي تتكلم عنها؟

– "عفاف" ستسافر بعد مرور الشهر إلى "طرابلس" برفقة "جواد" لقضاء بقية إجازة الصيف عند أهلها، فلتمض الصغيرة الوقت في التعرف إلى أخيها وزوجة أبيها.

– "إبراهيم"، إنك لا ترغب ولم ترغب في يوم بضمها إليك، فلم الآن؟

– ستكون بخير يا أمي، فلا تمعني في الشك واللوم.

– وهل ينفع الآن لوم، غير أني أحدث نفسي، كيف جاز لحكمتك أن تغفل عن تعريف الطفلة بأخيها كل تلك السنوات، أليس "جواد" بأخ لها، حتى وإن كان من أبيها اللاهي عنها؟

– لا يتعلق الأمر بلهو أو تجاهل يا أمي، أنت تعلمين تماماً ما هي المُوجبات، فلا تكرهيني على قول ما أجهد في كتمانه.

– وهل يفرض عليك ما تكتم أن تهجر؟

– لو كان الأمر كذلك لما التزمت بإرسال مصروف للإنفاق عليها وعلى الأسرة.

– أَتَمُنُّ عليها بتلك القروش التي تتصدق بها فوق خرقتها الممدودة قرب المسجد؟

– على رسلك يا أمي، فأنا لم أجحد وإن نالتني سخريتك، لكني أذكِّر بما ينكره عليَّ البعض.

– هوِّن عليك، فالبعض الذي تقصده، يسألك أن تُبقي ثرواتك التي تغرقنا بها في خزائنك، وفرها يا بُنيَّ للسلطانة "عفاف" ووريث العرش، هما أحوج إلى ذلك من طفلة بصقتها!

أخرج "سيجارة" بحركة عصبية تبدت في احتقانٍ داكنٍ تلون به وجهه، وارتعاش لم تستطع محاولة ضبط انفعالاته أن تخفف منه، فاستلزم منه إشعالها عوديّ ثقاب بعد تحطم الأول بين أصابعه، في اللحظة ذاتها لم ينتبه فيها إلى "السيجارة" الأولى التي ما تزال في منتصفها مُتقدة في صحن الرماد أمامه!

خرجت الكلمات من جوفه يخالطها زفير سحابة دخان اكتست بلون الغيظ:

– إن وجدتِ في نفسكِ شيئاً ضد "عفاف" فما علاقة الطفل في كل هذا؟

– لا أقصد "جواد" لذاته فلا تراوغ، هو تنبيه إلى دستور كونيّ تواريه خلف ظهرك، لا بأس في تلميح يُشير إلى استفحال المعايير المزدوجة التي أخالها قد تجاوزت كل الضفاف.

– ليس الأمر ما ترين، أليست هي الحياة التي تنحت نُظمَها في قوالب تشكلنا، فتفرض منطقها على الجميع؟

– بل الطبيعة التي تكوِّر جبلتنا هي التي تنتصر بتحكمها وقيادتها لنا في السراء والضراء، تراها تستقر هناك بعيداً في أعماقنا، إنها لا تكذب، لا تُماري، ولا تُخطئ في نقل النمط، إنما حوادث الدهر تُخرجها للعلن.

– وهل ترين أن حوادث الدهر أخرجت طبيعتي، ما الذي تعيبينه عليّ؟

– لم تُخرجها فقط، بل فضحت ميزانها المُختل، ألا تسأل أبوَّتك الأخرى أين أنت من رحمةٍ تُرتجى للجميع، كيف لمنطق الأبوَّة أن يُجتزأ أو أن يُكال بميزان درهمٍ أو دينار؟

– لم أقترف إثماً بطلاق تعلمين ظروفه وزواجي من امرأة أخرى، وهل أنا إلا فرد من الناس، لي حاجات ورغبات ليس لعاقل أن يُنكرها عليّ، حالي كحال معظم الرجال.

– لا ينكر أحد عليك ذلك، لكن اعلم بأن القلوب الغُلف لا تحرِّر أقفالها مفاتيح الشهوة والرغبة، بل مفاتيح الرأفة والرحمة.

– ماذا عن قدومي هذا، ألا ترين فيه خيراً؟

– أنبئني عن تأخر هذا الخير وتردّده، هذا إن كانت الرحمة ما دفعتك لهذه الزيارة أساساً.

– ما الذي ترينه دفعني إذاً؟

– انظر لنفسك لحظة، لعلها تفطن إلى قسوة قلب تزيّنُ لك قرب هذا وتقبّحِ لك دنوَّ تلك، تباً لها من تجارة تضُنُّ فيها بضمِّ لحمٍ ومَسكِ آخر.

– أرجوك افهميني يا أمي، إنها تذكرني بها، ستلد النار ناراً؟

– ما بالنا نحاسب النار ونتغافل عمن أشعلها؟

– إني أحاذر من حريق قد يطالني مرة أخرى.

– هل يُنجي حذرٌ من قدر وإن حرصت؟ ربما نار مبغوضة كتلك التي رحلت، خلَّفتْ ناراً لها منافع كثيرة لا تشابهها، فالعبرة في المقاصد.

– بل جميعها تخرج عن ذات المارج القديم.

– دعني أسالك، ما ذنب الطفلة حتى وإن ولدت نتيجة ما تتوهم من ظروف، هل نقاضي النتيجة ونبرئ المُقترف؟

– كل ما يترتب عن نزوة ملعون، ألم تُلعن الخمرة وصانعها وحاملها وعاصرها وقاطفها وبائعها كونها من الآثام؟

– ما أغبن قياسك، أتؤخذ هذه بجريرة تلك، هل اختارت أن تكون نتيجة في الأصل، فلمَ تتمُّ مُحاسبتها؟ من يقطف ويحمل من الكروم لتناول العنب، ليس كمن يحمل النية لصنع الخمر.

– كما ترين، لن أدخل معك في جدال لا طائل منه.

– لم يعد جدالاً، إنما أسلوب كلامك هذا عزز إثارة الريبة في الغرض من قدومك لأخذها!

إنه يعرف أمه تماماً لو بدأت، لذا فقد آثر أن يمسك حيث أنهت، ولا يطوّر الجدال إلى الحد الذي يثير يأسها ويُخرج حزنها، فلا يكسرنَّ شوكة اصطباره على ما لا يرغب سماعه، مع ذلك فهو لم ينثنِ عن بغيته التي جاء لأجلها، نهض من مجلسه متحاشياً أن تلتقي عينيه في عيني أمه متجهاً صوب غرفة الصغيرة التي استيقنت توتراً يلوح في الأجواء، وحيرة لا تعلم هل تحقق لها فسحة من سعادة كما وعد الزائر بذلك جدتها، أم شقاءً تكسوه قشور صلة الأرحام الزائفة!

– "لبنى" حبيبتي، جهزي نفسك، سوف تذهبين معي لقضاء فترة إجازتك الصيفية معنا في المنزل، تمرحين فيه مع أخيك الصغير وتلاعبيه، وتتعرفي إلى خالتك "عفاف".

بضعة أزقة فقط كانت تفصلها عن بيت أبيها الذي لم تأنس طمأنينة منذ اللحظة الأولى لتخطيها عتبته واستقبلت فيه وجه "عفاف"، التي لا يبتعد وصفها كثيراً عن أية صورة نمطية مُسبقة معلومة عن معنى الخالة زوجة الأب، ملامح الاستقبال الجامدة، الابتسامة المُتكلفة، ونبرة الصوت الحياديَّة، هي المعايير الأولية ذاتها التي رسمتها مسبقاً لها في مُخيلتها، أما الطفل "جواد" بأعوامه الثلاثة، فقد استأنس من بعد تردد حذِرٍ بشريكةٍ لطيفةٍ أشرقت أساريرها لضحكاته البريئة، فهفت نفسه إليها وتعلقت آماله بمن غدت تلاعبه وتسلي طفولته بحنانٍ أصيل، غير أن الأيام

القليلة التالية سرعان ما تمخضت عن خيبة أمل منتظرة، كي تتكشف الحقيقة عن مشاعر أبوَّة نفعيَّة صارخة في زيفها وكذبها.

لم يكن الأمر أبداً شوق أبٍ لابنته، بل أشبه بمؤامرة لنخاس خطط لاستقدام جارية صغيرة، لا تكلف كثير أجر كي تخدمه وزوجته وابنه بصمت وخنوع يتناسب وما رأى فيه حق أبوة تتيح له اقتراف ذلك، إن الكرسيّ الصغير الذي دفعته عمتها "تماضر" إليها لتنظيف الأواني في المجلى سابقاً، تبعها لاحقاً كي تراه أمامها في مطبخ زوجة الأب، إضافة إلى ما طلبت منها "عفاف" إنجازه من فروض التنظيف ومسح الأرضيات والجدران وشراء الخضار والمستلزمات المنزلية الأخرى، مع حرمانها من حق التسلي باللعب مع بقية الأطفال قرب البيت كما كانت تفعل، فخرجت من هذا الأتون قبل أن ينتهي الشهر فارَّة من نار أبيها إلى رمضاء عمتها، تسعى راكضة نحو بيت جدها لا تلوي على شيء!

(الفصل الثالث)

في السنة الأولى من المرحلة الإعدادية، تُفاجَأ بـ"سالم" غلامٌ من الجوار تعرفه في المبنى المقابل لبيتهم، يهرول نحوها أثناء عودتها من المدرسة، ليخبرها لاهثاً بأن سيارة الإسعاف كانت قرب بيتها، أتت لتحمل جدها الذي فاجأته نوبة قلبية إلى المشفى، نظرت إليه مشدوهة، وكأنها لم تستمع إلى ما ألقى من قول، تجمدت الدماء في شرايينها لتلك الكلمات التي ظنتها أقرب لهذيان طفولة.

تسأل "سالم" الذي وافق من غير تردد، أن يرافقها للمشفى القريب من البيت، خلال أقل من ربع ساعة تقريباً، يُدركا وجهتهما وقد بلغ منهما الجهد مبلغاً، عند وصولهما قرب البوابة الرئيسة، تخشى "لبنى" من أن يُمنعا الدخول، يقتربان من سياج معدني كانا يلعبان قربه في بعض الأحيان، يتسللان بخفية من أسفل فتحة فيه يعرفانها، قد فعل الصدأ فعله في أطرافها المُهترئة السفلى، تفضي إلى فناءٍ خلفيّ، وغرف إدارية قديمة، تنتهي بمدخل لقسم الطوارئ، عند مكتب الاستعلامات في ردهة الاستقبال تخبر الموظفة عن اسم جدها "عطا اليعقوبيّ" وحالته التي وصل بها، وأن أهلها قدموا برفقته مع سيارة الإسعاف، تتعرف إلى رقم الغرفة التي يرقد فيها، تقوم الموظفة باتصال سريع، تغلق بعده سماعة الهاتف، ثم تطلب من "لبنى" بوجه لاح أنه يخفي عنها أشياء مُريبة تجاوزت نبرتها المُصطنعة أن تنتظر أهلها حيث هي، فلم

يتم السماح لها بزيارته نظراً لدقة وضعه الصحي، يُغرق الدمع خديها ليختلط بنشيج رجاء تسألها فيه عدم حرمانها من لحظات فقط تتيح لها مطالعة وجهه، يرق لها قلب طبيبة كانت تصغي مصادفة إلى الحوار الدائر، فتطلب من الموظفة بإشارة فهمتها، السماح لها بزيارة على عجل.

عند وصولها باب الغرفة المفتوح، أشد ما أثار قلقها تحلّق أصحاب الزي الأبيض بهذا العدد حول سرير الجدّ، كانت أول صورة اخترقت انتظارها القلق، هي صورة جدتها "أمينة"، مُنحنية فوق صدر شريك حياتها، قد ضمت رأسه إلى نحرها وهي تنتحب بتشنجات خالطها عويلٌ مُفزع، بينما تسمَّر والدها "إبراهيم" بجمود مريب عند عتبة السرير، ينظر أباه في وجوم حزين وقنوط العاجزين، أما "تماضر"، تلك التي لم تعهد في عينيها ذرف المآقي من قبل، فقد هالها أن تنظرها مُحمرة العينين، قد غطت الدموع وجهها، نظرتها تلثم يد أبيها المطروحة جانب السرير، في إشارة مقيتة لم يخترها تنطق بموته، ما بال تلك القوة الجبارة أذلتها قوة أعتى، قوة عجيبة أهمدت حركاتها، ألجمت كلماتها، صوتها، ضحكاتها، سلبتها أنفاس الحياة وأسبابها، كيف لها أن تنسى الشهر الأخير من مرضه عندما كانت تسعد بتدليك يديه وقدميه فرِحة بابتسامته التي ترتسم على وجهه وهو يدعو الله أن يرضى عنها ويعوضها كل الخير؟

الدرع الذي كان يقيها الكثير من السهام، ها هو مُسجىً أمامها، قد مات!

فاقم رحيل جدها غربتها الباطنية غربة أخرى، لم يخفف من تمام انهيارها سوى تطمينات لا تغني ولا تسمن من جوع، كانت تهمس بها جدتها في أذنيها في توكيدٍ متكرر بألا تخشى شيئاً ما دامت هي على قيد الحياة، فلم تكن الجدة بالطبع جاهلة حدة مزاج ابنتها "تماضر" وكراهيتها لحفيدتها التي جُردت بوفاة عميد الأسرة من وسيلة الدفاع الأقوى التي كانت تقيها الشيء الكثير من بطش العمة المُتحفزة.

سرعان ما تنكمش مداخيل الأسرة بدرجة ملحوظة بُعيد رحيل الجد، فتقتصر على معاش الراحل التقاعدي الذي يُصرف لزوجته الثكلى، وبعض المعونات المالية والعينية الدورية المتباعدة التي تفرضها صلة الدم، يقدمها ندرة العم "لطفي"، الذي يبدو أن تبعات الزواج والغربة قد شغلاه عن المشاركة بواجباته نحو بيت العائلة الأول، وبعض مال يقتطعه والدها "إبراهيم" من حياته الزوجية الجديدة، ربما خجلاً، وعلى كراهة منه، كمصروف للبيت ولابنته، أما العمة "سحر" فالأمر إن تجاوز كمية من الألبسة والهدايا التي تقدمها في زياراتها أثناء الإجازات فحدوده القصوى لا تتعدى نفحات نقد تذهب بذهابها، لكنها مع ذلك، كانت تثير غبطة الصغيرة التي كانت تفرح بالأحذية الرياضية الثمينة، وبعض الملابس الزاهية التي تختصها بها.

تُحكم "تماضر" قبضتها وتفرض بصلف قسوتها على البيت وما فيه ومَنْ فيه، رحلت صور البهجة وانطفأ الفرح برحيل عميد الأسرة، لم يعد هو البيت ذاته الذي كان مركز استقطاب لزوار

كثر، فقد فارق الأحباب وانكفأ الخلان، وهجر الصحب الدار والأركان، خيَّم جمودٌ ثقيل، وحلَّ خمودٌ وبيل، جثمت البلادة وفاز العُبوس، حيث عمدت العمة الصريم إلى تهميش أي دور فاعل لأمها، كما أنها لم تتردد لحظة في إزاحتها خارج المتن بشكل حرفي، كي تصول وتجول دون رادع أو حسيب، للدرجة التي باتت تتحكم فيها بكمية الطعام التي تقررها كحصة لابنة أخيها "لبنى"، ما دفع الصغيرة في بعض الأيام أن توفر ليرات قليلة من أجل شراء تفاحة اشتهت تناولها!

لشد ما أحزنها أن يحل يوم يسجل مُفارقة مُزلزلة أخرى، لقطعة كانت بمنزلة الرئة بالنسبة إليها، المُتنفس الذي اعتادت الاسترواح بنغماته العذبة، كم حلقت بها فوق بساط الأماني إلى حيوات أخرى كثيرة مفرحة، تتجاوز كل بلاد السحر والعجائب، تسبح في الأفلاك كريشة لجناح ملاك يطوف فوق سحاب فضيٍّ ناصع، أو أهلَّة رُكاميَّة مُتراصَّة، تخفف عنها وحشتها، وتؤنس وحدتها من بعد محطة جدها الأخيرة، كتبت تلك المفارقة القهرية لأسباب فرضتها مستجدات اقتصادية داهمة، لقد غادر رفيق لها تقرر بيعه بدراهم معدودة، كجزاء لوفيٍّ لم تعهد فيه لغة سوى العطاء، ارتحل عنها "البيانو" الحبيب، في يوم كان ليله ثقيلاً، واستعباره طويلاً، شهدته وسادة بللتها دموع دافئة رحيمة فرت عن قلب ذبيح.

فاقم تلك الآلام تشبث الآمال بأداة موسيقية أخرى، إنه جهاز "أوكورديون" يناسب حجمها وعمرها، كان معروضاً للبيع أمام

عينيها خلف زجاج الحانوت الوحيد المتخصص ببيع الأجهزة الموسيقية في المدينة، قد لاح في مكانه تياهاً كتاج تكلله مفاتيح اصطفت كالجواهر، بدت منتظمة متقاربة، ملأت سطوحاً جانبية كأنها عقيق أحمر، قد تخللته عروق بألوان العنبر، سكنت ورقة بجانبه تحمل كتابة حفظتها لكثرة مرورها وتفقدها للرفيق المحتمل الجديد الذي خططت لنيله، توسطتها أرقام وحروف تراءت لها كسراب (450 ل.س) "أربعمئة وخمسون ليرة سورية"، أعيتها الحيل خلال أشهر ثلاثة تجلدت فيها بأنواع من الصبر، لجمع مبلغ من مال تيسر لها بعد لأيٍ، من مصروف زهيد كان أشبه بالصدقة، يخرج عن والدها الذي لم تبقَ من أبوَّته سوى وثيقة القانون، وبعض الهبات المُختلفة التي ادخرتها من عمتها "سحر" في آخر إجازة قضتها عندهم في البيت، ومبلغ متواضع آخر من جدتها، وحفنة مال لعلها كانت أشبه بزكاة، دستها زوجة شريك أبيها "زياد عكاري" مدام "نوال" في يدها، أثناء زيارتها لهم ثاني أيام عيد الفطر، مع ذلك، لم يتجاوز إجمالي ما ضمت بين يديها أكثر من ثلاثمئة وأربعين ليرة سورية، انتصر في نهايتها عامل الوقت والمقدرة، لتفاجأ باختفاء عزيز أزيل عن واجهة كم استنامت إلى شفافيتها الزجاجية الكاذبة، ناله مَن اكتمل ماله، فحقق مآله.

في يوم من الأيام تعود "لبنى" إلى المنزل، فتفاجأ بحركة غير اعتيادية، وتواجد زوار من رجال ونساء لا تعرف منهم أحداً، أصوات متداخلة أحدثت جلبة غريبة لم تستطع أن تستخلص الحالة منها، أهي أحاديث فرح أم حزن؟

لجأت إلى جدتها تسألها عن الأمر، فأجابتها بأن عريساً حضر وأهله من أجل خطبة عمتها.

تباينت في أعماقها المشاعر ما بين راحة وسرور وترقب حذر، فلربما تُحل مشكلة عمتها بهذا الزواج المنتظر، بدا الإحساس تجاهها رحيماً، ذلك أنها أصبحت كبيرة في السن، ولم تتزوج بعد، ربما تكون هذه هي لحظة الفرج على الجميع.

حضر العريس وحضرت معه الأحلام المشرقة، كان رجلاً كبيراً مُطلَّقاً بلا أولاد، يمتلك حانوتاً صغيراً في السوق لبيع مستلزمات الخياطة، تمت الخطوبة والعرس بسرعة كبيرة، لكن، سرعان ما تبخرت الأحلام وتلاشت في اليوم الأول للزواج، عندما تعرفت "لبنى" إلى مطامع العريس المُضحّي، الذي خطط للمكوث في منزل الزوجة الموظفة العاملة، هذا ما جرى بالفعل، فتمخض الحلم ليلد خيبة، ذلك أن الأعمال المنزلية قد تضاعفت، وما كان يقتصر على خدمة العمة تحول إلى خدمة لها ولزوجها "موسى"، من غسيل ومأكل ومشرب ومسؤوليات زادت وتطورت، إضافة إلى شعور بعدم الراحة داخَلَ قلب "لبنى" من نظرات الرجل المُريبة، وبعض حركاته التي فرضت نظام طوارئ على المنزل، فلم ترتح الجدة أيضاً أن تترك حفيدتها وحدها بحضرته، كما أنَّ أنواع الثياب المنزلية تغيرت من قمصان نوم مكشوفة مريحة إلى ثياب أخرى تغطي الجسد تحسباً من القادم، لم يحدث أي شيء فعلياً، لكن ذلك لم يغير من ذلك الشعور الغامض المتخم بالريبة.

طلبت العمة بعد أقل من شهر واحد من أمها أن ترسل

"لبنى" إلى بيت أبيها، فهو أحق منها بتربيتها والإنفاق عليها، وتبعات الزواج تتطلب زيادة في المصروف لم تعد قادرة على تحملها، لكن الجدة رفضت بقوة هذا الطرح، أما الأب، فعندما طلب منه أن يرسل مصروفاً إضافياً خاصاً بابنته، تملَّص من الأمر بطريقة يعلم نتيجتها، حين عرض على أمه عوضاً عن ذلك أن ترسلها إن شاءت إلى بيته كي تعيش مع زوجته وابنه، لكن "لبنى" التي استيقنت نفسه ردة فعلها، تعلقت بثوب جدتها ترجوها ألا تتخلى عنها في ذلك الظرف العصيب، تهدئ الجدة من خاطرها وتطمئنها إلى أنَّ الموت وحده يحول دون ذلك، فلا تخف ولا تخش شيئاً ما بقيت هي على قيد الحياة.

مادة الرياضيات تقف كحجر عثرة أمام تطلعاتها المستقبلية، تبلغ الصف التاسع مع حمل ثقيل، إنها معاناة لم تجد لها حلاً لشيء كرهته مذ كانت في المرحلة الابتدائية، ليس بغريبٍ أن يُعتبر الأذى غير البعيد لمعلمة المادة سبباً إضافياً لذلك النفور، ألم تنعتها بـ "ابنة الحرام" فيما مضى من زمن؟ صحيح أنها تجاوزت المرحلة الابتدائية ومعلمتها الظالمة، لكن ذكراها لم تتجاوز تلك الكلمات.

تلوح بوادر حل في الأفق، تستعين الجدة بمهندسٍ شاب، هو ابن صديق لجدها الراحل، سألته المساعدة فأبدى استعداده لتقديم دروس تقوية دون أجر.

باشر المهندس "رسلان" مهمته في زيارات شبه يومية لبيت جدتها، بدأ قبل كل شيء بمحاولة تحفيز "لبنى" كي تتجاوز ما

ظنه نوعًا من رهاب الأرقام تعانيه "أريثموفوبيا"، كي يتسنى له الولوج فيما بعد إلى مواطن الضعف التالية فيعمل على تمتينها ما أمكن، كان يحاول تبسيط النظريات والمعادلات لها قدر المستطاع من خلال تعزيز الشرح بأمثلة يتروى في تفصيل حلولها خطوة بخطوة، وعند إحساسه في لحظات معينة باستعصاء الأمر عليها، كان يتوقف كي لا يذهب ما قدمه من جهد سدى، ثم ينتظر إلى الدرس التالي آملاً أن يلقاها في مزاج أكثر جاهزية.

نظر في عينيها مرة وقال بنبرة هادئة رقيقة حانية: "كم أنت جميلة!".

كانت هي المرة الأولى في حياتها التي تشعر بانفعال باطني لم تعاينه من قبل، لقد عجزت عن إيجاد التعابير التي تشرح حالها بالتحديد، مع ذلك، فهو إحساس وإن كان مجهولاً لها، لكنه مع غموضه تجلى قوياً ذا جاذب يحرص المرء على التمسك به خشية أن يفارق، وهو كذلك نورٌ يُدغدغ الكيان بشفافية مُسكرة، عميقٌ لذيذ، إنه شيء بين النشوة والدفء، بل قد يتجاوز الدفء إلى حرارة ظننت أن تنُّور لهيبها بؤرته الأحشاء، ومَبعث شرارتها حُجرات القلب، في تغيّر ملحوظ داهم، أحدث فوضى في دورة الدماء التي سرت كجداول قطرات تتراقص طرِبة فرِحة، تسعى في جري لمُستقر لها فوق صفحة وجهها المتورِّد بحُمرة عُذريّة وطهر أصيل!

لم يقتصر الأمر بعد مرور أسبوع تقريباً على إعطاء الدروس فقط بشكل مُحدد مُباشر جاف، بل تعداه إلى بعض الهدايا الرمزيَّة

التشجيعية البسيطة التي حرص "رسلان" على إحضارها معه في مرات عديدة، مثل قطع الحلوى أو الشوكلاتة، أو كما حدث في أحد المرات عندما أحضر معه في كيس صغير وضعه داخل حقيبة الكتب التي يحملها، شالاً صوفياً زاهياً أبيض كهدية لها في عيد ميلادها مع زجاجة عطر صغيرة، عيد ميلادها الذي لم تعتد أن يذكرها فيه أحد حتى لو بكلمة، خلفت الهدية عميق الأثر في نفسها للدرجة التي جعلتها تبكي في سريرها ليلاً، وكأن خيط الضياء الذي تسرب من ثقب مفتاح السجن لعتمة روحها كُتب له أن يُغلق بإحكام، كي تتابع تخبطها في ظلام ثقيل وعزلة تطحن ضلوعها، يدٌ تحكم الضغط على رقبتها دونما هوادة، تكتم أنفاسها، تهدد النهار بأي انتشار مفاجئ، كيف يزحف كل ذلك دون أن تفطن الجلادة إلى تسرُّب الحياة من تحت الأبواب المُوصدة ومن بين فرجات الأمل؟ فالغبطة من هذا النوع تُحدث فعل الماء الذي يعانق أرضاً جافة، فينبسط فيها الثرى مُتمدداً مُبشراً مُنتشراً بلون آخر يملأ الشقوق بسلسبيل عذب متغلغل بيسر ورحمة، نعم، لقد آن للرجاء أن يُبتر، وعلى الرحيل أن يُجبَر، تضطر العمة إلى أضيق السبل في انتقاء كلمات رمت بها في وجه الشاب، ظاهرها الشكر وباطنها المكر، على ما قدم من معونة رأت فيها كل الكفاية، في صياغة كريهة متآمرة أبعد ما تكون عن نُعوت الثناء، بل تبدَّت كإيعاز له بالتوقف عن زيارتهم ورؤية الفتاة، إنه عقاب النبض الأول والفهم الأول لشيء أول!

تمضي الأيام سراعاً فينمو الغصن بتدرج حتميّ، تُشكل فيها

سنيّ المراهقة شكلاً مُبهماً من تخبُّط غريب، ترفض فيه "لبنى" عوالم الأنوثة، لتشارك الصبية ألعابهم والكثير من حواراتهم وعباراتهم، ترتدي ألبستهم، حتى تسريحة شعرها الذي حرصت على قصه وتقصيره بطريقة بدت ذكوريَّة إلى حد ما، لم تتردد في لعب كرة القدم معهم، وكأنها كانت بذلك تبعد عن نفسها خطر الذكور بمحاولة محاكاتهم، وربما خداعهم تبعاً لرؤيتها اليافعة حينها، ولما أضمرته في نفسها من أساليب تراها مُنجية، حيث توهمهم من خلال طريقتها تلك بأنها منهم، فهي ليست أنثى حتى وإن كانت أنثى!

شدت قطع جلدية أحاطت بمعصميها، كما تقلدت بعض الأساور المعدنية، وعصبت جبينها بعُصابة سوداء أكسبتها جدية ما، إضافة إلى أشياء أخرى حرصت من خلالها أن تتمثل عوالم الغلمان!

تنمو الفتاة محاولة ما أمكنها الإبقاء على هذا النهج المتغافل، غير أن جدتها باشرت مهمتها مُرغمة في شرح ما خفي عنها، وتنبيهها إلى التغيُّرات الحتمية التي تفرض فصلها عن عالم له جنسه المختلف عن جنسها الذي تتجاهل واجباته اللازمة فطرة لا يمكن تجاهلها، لتمضي سنوات قليلة تالية، يكون للزمن فيها رأي آخر تنقشع فيها حقائق تبدد شرودها بتكامل مُورقٍ حييّ، أخرجها من شرنقة كم تشبثت بالاختباء في جوفها عبثاً، ليُنضجها حوريَّة، فيخرجها للنور كفراشة قُيِّض لقلبها وبصرها أن يتقلب بين عدة فصول.

ضمن هذا الجو الغرائبي، وعند بداية العام الدراسي للصف

الثاني عشر والذي يعتبر المرحلة الأخيرة المؤهلة للمرحلة الجامعية فيما لو تم تجاوزها بنجاح، تشاء الأقدار أن تلتحق "سارة أبو نجم" بالمدرسة، طالبة جديدة شاطرت "لبنى" مقعد الدراسة بعد أن ارتاحت نفسها إلى نصائح من الطالبات الأخريات، تُخبرُ بلطف زميلتها ودماثة خلقها وجنوحها إلى أسباب السكينة والسلام، وهو ما تم بالفعل، فلم ينته الأسبوع الأول أو يكاد، إلا وكانت عرى الصداقة قد توطدت بينهما، مع أن لهجة "سارة" في الكلام كانت بعيدة عن لهجة أهل "بانياس"، كونها وفدت وأسرتها من محافظة سوريَّة أخرى منذ فترة قريبة، مع ذلك، وجدت كل فتاة في رفيقتها مهوىً تطمئن نفسها إليه، وبعد محاولات غير قليلة نزلت جدة "لبنى" عند رغبة حفيدتها المتكررة تسألها زيارة صديقتها الجديدة في بيتها بعد ساعة الانصراف.

في تلك الزيارة تستقبل أم "سارة" الفتاة بترحاب أصيل ووجه باش ينطق باللطف والوداد، بعد ذلك بساعة تقريباً، يصل الأب من عمله، فتقوم ابنته بتقديم صديقتها إليه، "لبنى اليعقوبي"!

ينظر الأب إلى رفيقة ابنته بدهشة خالصة، صمت للحظات بما يشبه الجمود، ثم سألها:

– هل أنت قريبة لـ "عطا اليعقوبي"؟

– نعم، إنه جدي – رحمه الله –..

ردد الأب بصوت خفيضٍ متسائل:

– مات جدك؟ رحمة الله عليك يا "أبا إبراهيم"، من يعيش في بيتكم الآن يا بنتي؟

– جدتي وأنا، وعمتي "تماضر" وزوجها "موسى".

– أخبريها أن صديق جدك الراحل سوف يزوركم اليوم مساءً إن شاء الله.

عند المساء تستقبل الجدة والد صديقة حفيدتها، تفرح كثيراً وقد فاضت عيناها بالدموع، ساعة بدأ الرجل يستذكر أمامها قصة الرضيعة "لبنى"، أخذ يروي تفاصيل مضى عليها زمن، يقص حكاية ليلة الشتاء الماطرة التي سجلت أول يوم لها تحياه في "بانياس" ساعة وصولها قبيل الفجر، واللحظة التي تناولها من بين يديه جدها الراحل، إن العالم لصغير حقاً، كيف تمضي السنوات ويعود السائق الطيب الشهم "بدر أبو نجم" مرة أخرى لزيارة البيت الذي قضى فيه تلك الليلة المشهودة حتى الصباح، البيت الذي يضم صديقة ابنته هو دوناً عن الناس جميعاً، تلك الرضيعة التي تحرك قلبه رحمة لأجلها، كبرت كي تشارك فلذة كبده "سارة" المقعد الدراسي ذاته، لم تكن تعرف الواحدة منهما عن عائلة الأخرى أي شيء، حيث انتقل "بدر" وعائلته منذ خمس سنوات من مدينته "الرقة" إلى "بانياس" مدينة زوجته ليستقر ويعمل فيها، كانت "لبنى" تصغي بانتباه شديد إلى كل كلمة وحرف يخرج عن والد صديقتها، وما إن انتهى من سرد القصة حتى تنهض فجأة من مجلسها دامعة العينين، تُسلم مرة أخرى بمشاعر وجدانية جديدة مختلفة على العم "بدر" الذي ضمها إلى قلبه مستحضراً جدها الراحل، فما أعظم أقدار الله.

في واحد من أيام الجمعة، كانت "لبنى" تزور "سارة" في

بيتها، أخذت تستعرض أمامها مهاراتها التمثيلية المسرحية في تقليد بعض الطالبات والمعلمات وحتى الأقرباء، في محاكاة عالية الأداء لحركاتهم وأصواتهم، ما أثار في نفس صديقتها موجة من الضحك والتصفيق والاستحسان، لم تقف "لبنى" عند هذا الحد، بل أخذت تقلد بعض الممثلين والممثلات، بينما ينساب لحن موسيقي رقيق، وصوت عذب في الخلفية، كان المغني الإسباني "خوليو إيغليسياس" يصدح بالفرنسية برائعته الرومانسية الشفافة "أنا لم أتغير"، لم تعلم "لبنى" السبب الذي جعلها فجأة تقرر أن تخرجان من المنزل في تلك اللحظة لقضاء بعض الوقت في المشي قرب الكورنيش، كأنه تاريخ قديم يشدها إلى الشفق الأخير في موعد لها عزيز وإن أضحى متقطعاً مع قرص الزوال الأرجواني.

اتجهتا تتهاديان في مشيتهما بينما تتجاذبان أطراف الحديث نحو طريق النهر الذي شق له مجرىً عتيقاً تعانق بقاياه البحر، عند وصولهما قادمتان من شارع "شكري القوتلي" قريباً من نهر "بانياس" وقبل أن تنعطفا يميناً باتجاه الكورنيش، يخترق الصمت صوتٌ لعدَّة طلقات ناريَّة! نعم، طلقات نارية واضحة قوية، مزقت هدوء أصيل يوم الجمعة، للحقيقة، لم تكترثا لذلك، فأغلب الظن أنها طلقات في الهواء، أو لأي سبب آخر، إلا السبب الذي كان، تابعتا مسيرهما ونسيتا الأمر تماماً، كانتا تتقدمان، لكن، استوقف "لبنى" فجأة مشهد غريب..! نظرتْ، أمعنت النظر، داخلها شك مُنفر، وصور جنّ تتراقص أمام عينيها، قالت لصديقتها بتردد

وجِل، ما هذا الذي أراه، هل هو رجل مرميّ على الأرض، أم ربما كيس قمامة كبير..؟

بالفعل، كان آخر شيء تصورته أن يكون.

إنها جثة قتيل..!

فضول اليافعين دفع بهما قدماً، اقتربت، اقتربت أكثر حتى شاهدت الشيء الجديد على مخيلتها حساً ولوناً ورؤيةً، كحقيقة ماثلة تنطق برائحة العدم، نعم، كان أول منظر في حياتها تراه لقتيل أمام عينيها..

دنت أكثر من ذلك تجر صديقتها المترددة، كان يرتدي بدلة عمل زرقاء داكنة من قطعتين، نصفه من ناحية الخصر حتى القدمين مُمدَّد على جزء من الرصيف، بينما كان الحوض والبطن والصدر ورأسه موزَّع فوق إسفلت الطريق، اصطبغ وجهه بلونٍ قرمزيّ مُتجلّط كريه، كما تجمعت أسفل الرأس بركة من الدماء!

هالهما المنظر، وأخذتا أيَّما مأخذ، صُعقتا بالفعل، تجمدت للمرة الأولى أمام معنى القتل غير السينمائي، أمام القتل الحقيقيّ، رأت فيما سبق موتى قبل ذلك، لم تنسَ بعدُ ملامح الموت التي غطت وجه جدها فوق سريره في المشفى، أما "سارة" فقد أخبرتها بعد عودتهما إلى المنزل عند الغروب، أنها رأت ميتاً للمرة الأولى عندما كانت في التاسعة من عمرها، قصت عليها أحاسيسها كما انطبعت في ذاكرتها فاسترسلت تقول، عندما كنت في زيارة لبيت عمتي في العاصمة "دمشق" أثناء العطلة الصيفية، كان الأمر يتعلق بشابٍ مصابٍ بمرض عُضال، في البناء المقابل لبيت

عمتي، تسمَّرتْ قدمي أمام رهبة الموت، ما زلت أذكر شقيقته الشابة قد خرجت تلطم خديها، تشد شعرها، يرافقني اسمها الذي يتردد صداه في زوايا بعيدة، أذكر القبو الذي بثُّ أمقته منذ ذلك اليوم الذي رأيتُ فيه تلك الحادثة، حضرت شقيقته وعائلتها عند أقرباء لهم في الحيّ، في محاولة لتقديم أي معونة لوقف زحف الموت نحو تلك الروح الشابة، كانوا من مدينة "الحسكة"، كنت واحدة من عدة أطفال تجمعوا قرب باب القبو المفتوح، سمعتُ الصراخ، رأيتُ كيف قامت أخته بقص ضفيرة من شعر رأسها، ارتعدتُ خوفاً حينها، لم أعلم أن ذلك جزء من تقاليد الموت، هبتُ الموت حينها أيَّما هيبة.

أما "لبنى" فقد دوَّنت في مذكراتها اليومية مساءً جانباً من أحاسيسها كتبت فيها:

أن يكون الموت قتلاً هو أمرٌ بشع جداً، بل هو أكثر الأشياء فظاعة، اهتصرت روحي تلك الحقيقة المخيفة، لم أرغب في تصديق الأمر أنّي أمام جثة قتيل، حيث لا أحد هناك بعد، أو لعلَّ الناس قد نأوا بأنفسهم عن المكان، آثرتُ وصديقتي الابتعاد لهول الصدمة، ابتعدنا بالفعل، ثم سألت عن السبب فيما بعد، قيل لي بأنه ثأر مبيَّت، خرج رجل من محبسه، بعد أمرٍ بعفوٍ عام، وقتل هذا الآخر، لأنه وشى به وكان سبباً في دخوله السجن، أقسم يومها أن يقتله حين خروجه، تربَّص به وفعل..!

قال الناس إنه بعد أن أطلق عليه النار، تابع ماشياً، هادئاً، كأنما كسر كأس زجاج!

بعد يومين من انتهاء الامتحانات الأخيرة الخاصة بشهادة الدراسة الثانوية، يطرق باب العائلة أول خاطب، وهو "أيهم ديروان" ابن تاجر مجوهرات شهير، شاب يقترب من نهاية عقده الثالث، تضغط الأسرة والأقارب لاستجرار موافقتها على النجل الذهبي، من بعد ضخ تشجيعي متواصل، يتمحور الحديث فيه عن ذلك المستقبل المشرق الذي ينتظرها، والبحبوحة التي ستنعم بها، والحال التي ستفضي إليها من رفاهية منتظرة، وحياة رغيدة، هي أمنية لأية فتاة سعيدة حظ، يقع عليها اختيار هذا العريس الحلم، خاصة أن الأب الذي غيَّب نفسه باختياره، لم يبخل مع ذلك بإسداء النُصح وإبداء الرأي في تلك القضية المصيريَّة، فهو يرى بأن الفتاة سوف تجد راحة من كل المشاكل التي تتبرم منها على الدوام فيما لو صدعت بالموافقة ورضخت لحكمة هذا العرض المغري!

خلال تعارف سريع وجلسة لم تطل بينها وبين الخاطب البرَّاق في غرفة الضيوف أثناء زيارته لمنزل أهلها، تسأله الفتاة ببراءة وصدق عن رأيه بالحب وما الذي يعنيه له، ينظر إليها بدهشة مُقززة وريبة مُستنفرة خلفت شدقين اتسعا ليرسما ما يشبه ابتسامة متعجرفة هازئة تقطر كبراً واستعلاءً:

– الحُب، هل تعنين به تلك القصص الحالمة التي ينظمها الشعراء ويؤلفها الكتاب وتروجها الأفلام السينمائية؟

فطنت إلى ما تضمر إجابته من نبرة سخرية لأمر تراه عظيماً ويراه الأبله حقيراً!

– بل أعني الحب الذي أجَّج فؤاد عُروة عشقاً بعفراه، وتفطَّر لعلته قلب قيس بليلاه، وهو ذاته الحب الذي فتك بعنترة شغفاً بعبلاه!

– هكذا هو الأمر إذاً، ولنقل بأن هذا الحب وقع من السماء لتغرقك بحوره، فما هي الخطوة التالية بعد فوزك به، وحصولك في الوقت نفسه على الشهادة الثانوية؟

– الشهادة الجامعية بالطبع.

أحنى ظهره إلى الأمام قليلاً، بينما ارتفع حاجباه واتسعت عيناه محدقاً في عينيها بدهشة وذهول، كأنما يشحذ همة حواسه كلها في محاولة لفهم ما يقع على أذنيه من مُستهجَن قولها.

– وماذا وراء الشهادة الجامعية، أليس الزواج هو مبلغ الآمال والمحطة المنشودة لكل فتاة؟

– لا يقف الأمر عند حد، فالغايات متصلة مُستمرة فيما يتعلق بالمعارف، الشهادة الجامعية مرحلة لها ما بعدها، تستمر باستمرار الحياة، ترتقي بك من عالم إلى آخر من الضياء، ومن مرتبة علمية إلى تالية أعلى منها، إنها خطوات عاقلة من أجل خير البشرية، وهكذا.

بعد أن ارتشف قليلاً من فنجان القهوة أمامه عقب على كلامها قائلاً:

– ألا يكمن خير البشرية في عدم تضارب المهام التي خُلق لأجلها كل من الجنسين، الذكر والأنثى؟ إن عناية المرأة ببيتها ورعاية زوجها وتربية أطفالها، كل ذلك سوف يعوضها

عن التلهية الفارغة بتسلية أكثر نفعاً، وسيبلغ المطاف بالشهادة الجامعية لتزين واحداً من جدران المطبخ، ضمن إطار مشبع بعوالق الأسمان وأبخرة الزيوت الشاردة، هناك ستجد مستقراً لها في مرتبة عالية، ما بين قطرميزات المُخلل والزيتون والمُربَّى!

في خطوة جريئة سريعة وحاسمة، استجمعت الفتاة قوتها بعد أن بلغ منها الامتعاض مداه من لزوجة وعفن كتلة اللحم والشحم والعظم التي تتقيأ جهلاً وتخلفاً أمامها، اتخذت قرارها دون تردد، فهي كيان حُرم من نعمة الحب، وهذا مخلوق لا يمتاز عن الطبل الأجوف بشيء، لا يعرف عن الحب شيئاً، بل لا يفقه لغة العطاء، فكيف به أن يكون شريكاً لحياتها التي تتمنى؟

لم تمض دقائق قليلة إلا وتعيد إليه خاتم الخطوبة التي رفضتها بعفوية تناسب روحها الصافية، أنهت الأمر مخاطبة إياه، انت لا تساوي عندي حتى ثمن هذا الخاتم، لا أريد الزواج منك، أنت غير أهل لذلك.

مضت فترة طويلة منذ أن تاه الفرح عن دروب البيت فلم يطرق له باباً، ربما تخبو نشوته سريعاً، لكن لا بأس به وإن حلَّ ضيفاً عزيزاً على قلب بذاته، تحقق الفتاة إنجازاً ليس من المبالغة أن ينعت بالنصر ضمن الظروف التي واجهتها، لقد نالت الشهادة الثانوية بتفوق.

بعد أيام من إنهاء إجراءات تسجيلها الجامعي في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، وهو الفرع الذي كانت قد وضعته نصب عينيها كهدف تطمح إلى بلوغه، تزور الأسرة مجموعة من

النساء، يهفو قلب "لبنى" لواحدة منهن، فترى فيها كل حنان الأم التي لم تعرف، سيدة تضج سماحة وتشع أنواراً، تبسم لها برحمة ووداد، إنها السيدة "عنايت" التي أصبحت فيما بعد والدة زوجها الذي اقترنت به دون تردد، عائلة ثرية هو أكبر الأبناء فيها، والده "علم الدين شملان" رجل في الثانية والستين من عمره، يدير مكتباً للأعمال التجارية الحرة، كما يمتلك واحداً من أشهر المطاعم في مدينة "اللاذقية" القريبة يشرف عليه ابنه الأصغر "زاهد" الذي يحمل شهادة من كلية الزراعة، إضافة إلى "صيدلية" في المدينة نفسها تديرها ابنته الوحيدة "وصال"، وأعمال أخرى متفرقة منها أرض زراعية تضم مناحل عسل، وأربعة شاليهات قرب شاطئ البحر يتم تأجيرها للمصطافين خلال السنة، وودائع مالية لمستثمرين يتم تشغيلها وتوزيع أرباحها في أوقات محددة.

يحدث الزواج سريعاً، تقترن "لبنى" بـ"خليل شملان" شاب وسيم القسمات لطيف الحضور يبلغ الثلاثين من العمر، رياضي البنية، أبيض البشرة، حليق اللحية، انثنى أسفل أنفه شارب أسود يبدو كقوس توازى وتره والشفة العليا، يحمل شهادة جامعية من كلية الإعلام والمقيم وأهله في مدينة "اللاذقية" أيضاً، يعمل مع والده في إدارة ممتلكات العائلة والمستثمرين، إضافة إلى عمل آخر يشبع ولعه الثقافي ونهمه المعرفي، من خلال ما يزود به المجلة الثقافية الشهيرة "أبنوس" من مقالات ومواد أدبية وفلسفية متخصصة.

كان صباح يوم العرس شتويّاً بهيجاً بكل ما فيه، اجتمعت

غيومه متآخية تنثر الرذاذ البارد بلطف يغلف الأثير بتفاؤل وضَّاء، تبدَّت حبات أمطاره الناعمة كشذى يفر من قارورة عطر بنكهة التراب الندي، فلا برق ولا رعود ولا صخب، جيَّش مشاعر الفتاة وحرك وجدانها هذا الفيض بصور قديمة كثيرة، فلم تجد نفسها إلا وقد خلفت منزل جدها الذي سيكون آخر عهدها به اليوم قبل زواجها، متجهة صوب شاطئ البحر، تزودت بعبوة ماء ورغيف خبز وبعض قطع الجبن وحبات من التين المجفف، وضعت ذلك كله في سلة صغيرة من قش اعتادت أن ترتفقها كلما زارت الماء القريب، جلست إلى البحر تبثه مشاعرها، تخبره أنها ستزف اليوم عروساً، تحرك لسانها بهمس تصبّه في أذن الموج:

أبي، اليوم سأبدأ حياة جديدة لا تُثقل عليك، ألم تُشر عليَّ بنصحك بأن زواجي سيجعلني في راحة وحِلّ من المشاكل كلها التي أكابد؟

أمّي، أمّي التي لا أعرف، ابنتك غدت خلقاً آخر ليس كالذي بصقته.

جدي الحبيب، أينما كنت، يرحمك الله، كم تمنيت أن تحيي وصحبك عرس حفيدتك التي أحببت قبل أن ترحل.

جدتي، يا آخر شعاع للرحمة، لن أفارقك وإن ابتعد بي الجسد.

وأنت يا "تماضر" كيف أنسى كل كلمة زودتني بها خلال الأيام الفائتة ترهبني من الزواج وتصوره لي رعباً سيقتلع فؤادي ويجتث قلبي من بين الضلوع، حتى ليلة الأمس، سأحفظ قولك

لي: "اذهبي إلى قدرك"! قرّي مستقراً ومقاماً، لا أعلم اليوم بديلاً يحل مكاني يبرد نيران فحيحك، بأي حال، لعل العزاء يكمن في رحيلي عنك، فهنيئاً لك هذا الفوز.

للمرة الأولى تشعر "لبنى" فيها بحال من الاستقلالية وبعض نفحات الحرية عندما انتقلت مع "خليل" للعيش في شقة جديدة قد أثثت بكل ما يلزم، قدمها "علم الدين" هدية زواج لابنه البكر، تتألف من غرفتي نوم وصالة جلوس وطعام، استبشرت فيها نفسها لحظات مختلفة مترقبة لم تعهدها من قبل، جعلتها تستروح نسائم الانعتاق عن سطوة قد طالت، فبادرت إلى اختيار كل قطعة أثاث بنفسها، ها هو ذا المطبخ بكل ما فيه مُطوَّع لها بما بثت فيه من روحها وأمنياتها، زودت صالة المنزل بمكتبة صغيرة ملأت رفوفها بما حملته من كتب تعرف عناوينها وألوان أغلفتها وحتى رائحة صفحاتها جيداً، بما لها من مكانة قلبية خاصة عندها، نقلتها معها من بيت جدها الراحل كي تشاركها أيام سعادتها القادمة، إضافة إلى كتب وملاحق خاصة بمنهاج تعليمها الجامعي، كانت قد تناقشت أثناء فترة الخطوبة وتعارفها إلى "خليل" حول الأمر المتعلق بمتابعتها للدراسة فلم يبد أي اعتراض، بل شجعها على ذلك وأثنى على رغبتها تلك، لكن مهرجان الفرح الذي أمامها لم تكن له مقدرة على تهدئة روعها كلما طاف بصرها ليقع على كل تفصيل تضمه غرفة النوم، فحار قلبها بين انبساط وانقباض، فتارة تجتزئ كل قطعة في الغرفة، من سرير وثير، ووسائد زاهية، وأغطية وملاءات طرزت

بخيوط بلون الذهب وملمس الحرير، ليستقل بها خيالها فيجعلها خاصة بها وحدها بمعزل عن شريكها في ذلك المكان، فيهدأ خاطرها وتطيب نفسها إلى حين، وتارة أخرى ينقبض صدرها كلما أيقظتها الحقيقة لتفطن إلى واقع يرمي لها بكيان رجل سيلتهم بعينيه ما تحرص على مواراته من جسدها، أسئلة كثيرة قفزت كلها دفعة واحدة لتقصي كل طمأنينة تنعَّمت بها إلى حين، فكيف ستبدل ثيابها، وأنَّى لها القدرة على ارتداء زيّ خاص بالنوم في هذه الغرفة أمام رجل، بل هل سيحتويهما سرير واحد، ويلتحفان الغطاء نفسه؟ تفجرت الدماء في وجنتيها خجلاً، وسفعت ناصيتها حرارة لما ترى فيه إثماً عندما تمادى بها الخيال قهراً ليصنع لها صورة "خليل" وهو عارٍ تماماً أمامها وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو ينظرها وينتظرها.

لا، لا، يا إلهي، كيف قذفت بنفسي في هذا الأتون؟

لم لا نهنأ بسعادة خالصة صافية وراحة بال دون أن ينغص علينا لحظات السكينة ما يُفرض علينا من أثمان وضرائب تجبى من مشاعرنا المرهفة وأعصابنا المرهقة؟

لم تبرز بوادر حمل خلال الأشهر السبعة الأولى، تخلف تلك الحالة شيئاً من خيفة توجستها نساء المحيط الأقرب من العائلتين، السبب خفي، إلا عن الزوجين، ببساطة، فالعروس ما تزال عذراء!

لم تكن "لبنى" تعلم أي شيء عن معنى الزواج، فقد تلبستها رهبة حين وقع عليها معنى أن تعايش رجلاً غريباً في سريره، بينما

يكابد "خليل" صراعاً جُوّانياً عميقاً، فهو لا يستطيع البوح بمكنون صدره، كما لا تستطيع هي أن تفعل بالطبع، يمرّ الوقت وتتكشف بعض الحقائق لجدتها وحماتها التي كانت ترى فيها خير بديل عن أمها، فعمدت إلى وسائل عديدة لم تقتصر فقط على العلاج الطبي، بل تجاوزتها إلى سبل أخرى كزيارة إلى شيخ بصحبة حماتها التي تحب، كتب لها رقية شرعية ورَشَّ عليها ماءً قد قرأ عليه بعض آيات من القرآن الكريم، لم يفارقها البكاء إبان تلك الفترة العصيبة، فاختلت صحتها ونحل جسدها وآلت إلى سوء من الحال خفتَ له ذلك البريق المُتوهج في عينيها الجميلتين، وبدَّد تلك النُضرة التي تُميز مُحياها، كما فارقت حمرة الجوري صفحة الوجنتين، فعافت نفسها كل شيء، وانذوت في قوقعة يغلفها اليأس والقنوط، لم يُخرجها منها إلا ما رشح من بعض كلمات وقعت على سمعها عرضاً تشي بحال من استياء وضجر يمر به "خليل" للدرجة التي قد تهدد بإنهاء زواجهما، فصدعت راضخة إلى نصح جدتها وإلى كل طيب من القول جهدت فيه حماتها لتجعله كنوع من ترويضٍ مُهم يدفعها إلى تفهُّم الأمر، هذا ما يحدث، يقع حمل بعد مرور ثلاثة أشهر أخرى، تفرح عائلة الزوج كثيراً بذلك، ثم تضع طفلتها الأولى "سيرين".

اتسمت الأيام الأولى لولادة الطفلة بأجواء امتزج فيها الفرح مع كثير من الحيرة والقلق جراء البكاء الذي تجاوز المألوف عن بكاء الرُضَّع، فقد كان مستمراً للدرجة التي حرمت الرضيعة وأمها النوم، إنه اقرب إلى صراخ يصدر عن ألم ترافق مع حالات

متكررة من الإسهال والقيء، عملت "لبنى" بكل توصيات السيدة "عنايت" من ملاحظة ثياب الرضيعة والتأكد من خلوها من أي مواد قد تسبب لها ضيقاً أو وخزاً أو حتى بسبب الجوع، فهي لم تتوانَ أو تغفل عن إرضاعها، كما قامت كذلك بتدليك بطنها بزيت الزيتون، جربت كل الوسائل التي نصحتها بها، لكن، كل ذلك لم يجدِ نفعاً.

بعد زيارة للطبيب يتضح بأن حليب الأم غير نافع للرضاعة الطبيعية لما تخلفه مادة الـ"لاكتوز" من أثر ضار لا يحتمله الجهاز الهضمي للرضيعة، لذلك يتعين اللجوء إلى بديل فوري، فأوصى بنوع محدد من حليب صناعي ذي تركيبة ملائمة، وهذا ما كان، قد يكمن الخير في غياهب الأقدار، وبعض المُستنكر من ظاهر حوادث الأسى لعلّه يضمر لطفاً ورأفة بنا نتعرفها بقادم الأيام، فلا بأس.

طفت على السطح بعض الخلافات التي تتعلق بثياب وطريقة لباس"لبنى"، فلقد نشأت ضمن بيئة عائلية منفتحة لا تتقيد بزي محافظ كغطاء رأس للأنثى أو حجاب، فضلاً عن جلباب أو نقاب، فعماتها لم يكنَّ يرتدين أغطية للرأس وكذلك أمها كما علمت، أما فيما يتعلق بأبيها فهو أبعد الناس عن هذا التوجه، خاصة أنه لا يلتزم بصلاة ولا صيام مع ما يميز سلوكه من معاقرة للخمرة لكن دونما إدمان، أما عن "خليل" فما وثق ظنها به من التزام أخلاقي واستقامة مسلك أسري واجتماعي لم تكن تخرج كلها في الحقيقة عن بواعث دينية بالمطلق، بل لما كان يرى فيه

ضرورة أخلاقية تنظم سلوك الفرد والمجتمع، تتعلق بمفاهيم كم أجهد عقله وقلبه بمحاولات تلقف خباياها والتعرف إلى حقائقها، كالوجود والحرّيَّة والإرادة، أفكار غذاها جنوحه الذي يعيشه كمتعة يهيم بنشوتها عند مطالعاته لكثير من الكتب الفلسفية وحتى بعض المؤلفات التي تتعلق بمدارس التحليل النفسي، مع ما كان يشحذ همته من لقاءات لم يتوانَ فيها عن خوض غمار ملاحم جدلية مع أقرانه لا تخلف عادة أي منتصر، غير أنها كانت تؤسس لفجوات أخرى تدعم بذور شك يتسلل، وتُبقي لنفسه اضطرابها، وللحقيقة فهو لم يقتلع جذور الدين من تكوينه أو يبتر الأسباب كما قد يتراءى للبعض، لقد أبقى على شكل البركان وخموده، لكنه حفظ الصهارة لأوقات يدرس بعناية مقدار تسريح ما ينفع من المُهل منها ليخصب الأرض لا ليحرقها، لذلك فهو لم يكن يرغب بارتدائها غطاءً للرأس، لكن ما استجد في الأمر هو مرورها بتجربة روحيَّة أثناء فترة مرضها، لما اعتقدته رؤيا صادقة بددت وحشتها فهدأت نفسها واستكانت لها، كان لها أعظم الأثر في اتخاذ قرارها بارتداء الحجاب، لم تكتف بذلك بل وضربت كذلك على جسدها ما يستره من جلباب فضفاض أدهش زوجها عند رؤيته لها بهذا المظهر، فلم تطب نفسه لذلك ولم يستسغه، وحاول أن يثنيها عن عزمها ويعيدها سيرتها الأولى فلم يفلح، حتى صديقه الأقرب "بشير صوفر" الكاتب والإعلامي الشهير، وسكرتير تحرير مجلة "أبنوس" الذي كان يثق بمواهب "خليل" وقدراته المعرفية والفكرية، والذي كان يحرص أن يضم

كل عدد من المجلة مقالاً أو دراسة أدبية أو فلسفية يدرجها له، فمالك المجلة التي يترأس تحريرها أولى له مهمات إدارتها بشكل شبه كلّيّ، لم يخف الصديق استغرابه من التغير المفاجئ الذي حل بزوجة صديقه والتي هي في الوقت نفسه صديقة زوجته "ألفت" الأستاذة الجامعية، بكلمات حملت في ظاهرها التعجب وبدا الاستهجان في نبرتها واضحاً، لكن أكثر ما حزَّ في نفسها ساعة التقى بها والدها مصادفة بهذا الزي في الطريق فلم يتردد عن شتمها في وجهها ثم تابع مشيته وهو كظيم!

لم يمض أسبوع على ذلك إلا وأردفت بمنديل غطى وجهها ولم يبق إلا على العينين، فهاج الزوج وماج ومادت به الأرض لتصرفها الأحادي الذي رأى فيه نمطاً سلوكياً لا يتوافق ورغباته، فعمَّ التوتر وخيَّم الجفاء، كما ساد العلاقة بينهما نوع من فتور ونفور لم يقتصر على زوجها فقط، بل تجاوزه إلى شقيقه "زاهد" الذي لم تسلم من سخريته كذلك، وهو الذي لم يرتح أساسا لزواج أخيه منها ولا لاقتحامها حصنهم العائلي الذي قد يهدد طموحاته المالية الآجلة.

ترحل الجدة عن الدنيا في خضم من الأحداث المتتابعة، التي لم تنعم فيها "لبنى" ببسطة من العيش سوى لثلاث سنوات تقريباً، تستعد للترقية للسنة الدراسية الرابعة والأخيرة في الكلية، وفي أحد الأيام التي تقرر فيها مباشرة دوامها بزيها الجديد، يستوقفها حارس البوابة الخارجية لمبنى الجامعة ليطلب منها رفع النقاب وكشف وجهها من أجل التأكد من هويتها، تتردد لحظة ثم تذعن بعد أن

نفذت الأمر على عجل ثم تدخل مسرعة يخالطها شعور عابر ما بين القهر والندامة، إنه مشوار طويل عليها أن تتقبله مع ما يُفرض عليها مما ترى فيه غرامة يصعب التملص منها.

تعاين توتراً قد بدا يلوح في الأفق، يجتمع والد زوجها "علم الدين" بأفراد أسرته بعد الغداء في يوم جمعة، الابن "خليل"، وشقيقه "زاهد"، والابنة "وصال" إضافة إلى زوجته "عنايت" بحضور من "لبنى" في بيت العائلة ليعلمهم بمشكلة كبيرة تواجههم تستلزم منهم استعداداً مختلفاً وجدية توازي المسؤوليات الجسام التي ستلقى على عواتقهم في الأيام القريبة القاتمة القادمة، مع الكثير من الجهد المطلوب بذله والتضحيات!

أزمة مالية خطيرة لم يعد بالمستطاع إخفاء تفاصيلها عن العائلة أكثر من هذا الحد، تتعلق بالمبالغ النقدية للمودعين، والتي تتم إدارتها في أعمال مختلفة لم تلق النجاح المرتقب، حين بدأ بعضهم بالمطالبة بأرباحهم الشهرية التي باتت متقطعة بل ومنكمشة، ليحصلوا عليها كل شهرين عوضاً عن كل شهر مع مقادير مالية أقل، ثم لتتوقف تماماً في الأشهر الثلاثة الأخيرة، ما أدى إلى خسائر جسيمة ثم إلى ديون متراكمة بلغت ما يقرب من ستمئة ألف دولار أمريكي.

يتحدث الأب بصوت يائس منهك لم يعتادوه فيه من قبل، نبرات متهدجة ترشح بقهر الرجال وآي القنوط والعجز:

– قبل كل شيء، اعلموا بأننا يجب ألا نغفل عن حجم الديون التي يترتب علينا سدادها للمودعين، حتى وإن اضطررنا

إلى التصرف ببعض الأصول الثابتة من أجل ضخ سيولة نقدية عاجلة تهدئ بعض الشيء من ضغط أهل الحقوق.

لم يرتح "زاهد" لهذه البداية فاستفسر بوجه لم يستطع أن يخفي فيه امتعاضه.

– هل تتضمن الأصول الثابتة يا أبي مكاتب الشركة والصيدلية؟

أجاب الأب وقد لمح في عيني زوجته نظرة رجاء تعتمل ببريق يهتز بدفء، إنها نظرة يفهمها تماماً، كيف تخفى عليه وإن بدت راضية مستسلمة مُشجعة، فحاول أن يتقيها بأن أشاح بوجهه عنها ليجيب ابنه الذي يعلم مدى تعطشه للمال وتيقظ طباعه الدنيوية مؤكداً بنبرة تقصَّد أن تنطق بالحزم:

– ليس ذلك فقط، بل قد نلجأ لاتخاذ إجراءات وخيارات أكثر صعوبة وإيلاماً.

تدخلت الأم لتشارك الزوج ما ذهب إليه ولتعلمهم تأييدها أيّ خطة يراها راعي الأسرة.

– سترى في أبنائك جميعاً خير السند والمُعين، لا عليك، إنما هي ثمرات سنيّ عمرك وأرزاق الله يضعها حيث يشاء، لا ضير إن بقيت أم ذهبت، افعل ما تراه مناسباً ويحفظ حقوق الناس، حتى وإن اقتضى الأمر بيع بيتنا هذا.

– لا يا "أم خليل" إلا البيت، سأتدبر أموري فلا تشغلي بالك، البيت لا يدخل ضمن ما أقصد، لن يحدث شيء من هذا في حياتي.

– أطال الله في عمرك وبارك في صحتك، أليس في هذا

كل الكفاية لنا؟ فلا تحمل ما لا تطيق، ستنزاح الغمة وتسير الأمور إلى حال أفضل وفرج قريب إن شاء الله.

– يحز في نفسي أن أكون سبباً فيما يضيّق العيش عليكم.

– حالنا أفضل من حال الكثيرين، نحمده على كل شيء، من ذا الذي يؤمن بحياة كلها سعة ورخاء؟ إن كانت الشدائد ابتلاء فكذلك النعماء، إنها أقدار الله نرتضيها ونثق بها.

– لله درك من أصيلة كريمة.

ثم أردف قائلاً:

– سأعرض المكتب والمزرعة و"الشاليهات" للبيع، وسأبقي على المطعم فهو ما يزال يدر دخلاً معقولاً.

وبعد لحظات صمت، رمق ابنته "وصال" بحب وحنان وتابع:

– وربما أضطر للاستغناء عن الصيدلية كذلك، فسامحيني يا بنتي.

قاطعته الابنة لتجيبه من خلال ما لم تستطع أن تحبسه من دموعها:

– بالله عليك يا أبي، لا تقل ذلك.

ثم حاولت أن تخفف من الأمر فتصنعت الابتسام وهي تقول:

– بأي حال كان قضاء الوقت فيها أقرب للتسلية، وستجد الصيدلانية البائعة ذات المريلة البيضاء تسلية أخرى أفضل منها فلا عليك يا أبي!

– أسأل الله أن يعوضك خيراً منها وأفضل، بارك الله بك يا صغيرتي.

اتجه الأب صوب ابنه البكر موجهاً حديثه إليه:

– إيه يا "خليل"، وما رأيك أنت؟

– الرأي ما تراه يا أبي، لكنني أنصح بأن نُلجم بعض الألسنة بدفعات عاجلة، خاصة أولئك الذين يفضح فساد أنفسهم سوء الظن وخبث النوايا باعتقادهم أننا سنأكل أموالهم بالباطل!

أشار الأب إلى دور يقوم به محاسب الشركة ليبدي لهم أن الأمر لا يتعلق فقط بقرار شخصي اتخذه وحده في بداية هذه الجلسة، فعقب على كلام ابنه موضحاً:

– لم يستطع "عمران" أن يرد عنه كل الجموع المُطالبة، فعشرات الأسئلة تنهال عليه بعد أن اضطررت أن أتوارى لأسبوعين متتاليين عن الشركة.

– كيف لهم أن يتفهموا غيابك يا أبي ويسكتوا عنه؟

– وجدت في ذلك محاولة كي ألملم الأمور بعيداً عن جنونهم ما استطعت، لقد دفعت إلى ذلك دفعاً، أعلم أن "عمران" أصبح وللحقيقة في وجه المدفع.

– لكنه في النهاية "موظف" يا أبي، ليس إلا.

– نعم، لكن حُمق وتخبُّط البعض منهم جعلهم يرون فيه الرجل الذي كان يتولى إدارة دفعاتهم المالية، ويعلم مصائرها ويُخفي الأمر عنهم!

– كيف ذلك، ألا يعلمون أنه غير مسؤول عما حصل؟

– هذا لن يوقفهم عن السؤال ولا حتى التمادي كوني آثرت الابتعاد إلى حين.

– هل تعني أنهم يطعنون في ذمته هو؟

– لا، ليس ذلك بالضبط.

– لقد كانوا على اتصال دائم معه بالفعل، لكنه ليس صاحب المال ولا القرار بأي حال.

– هذا ما قصدته تماماً، صحيح أنهم كانوا على تماس معه بشكل دوري، غير أن الأمر تطور في الآونة الأخيرة إلى اتهامات أخذوا يكيلونها إلينا في وجهه تقول بسوء الأمانة، لا تعثّر إدارة أو تقدير، لذلك لم أرَ بداً من سؤاله كي يضع خطة عاجلة لجدولة الديون تبعاً لما ذكرته أنت، فكان الحل المبدئي المُتاح الذي طرحتُه في البداية.

– بمن نبدأ حسب تقديرك ومعرفتك بأكثرهم حدة؟

– أقترح أن نقدم ثلاث دفعات أولى لـ"غازي حجلي" و"وصفي عيسى" و"تميم شرُّوف"، فهم الأكثر تشكيكاً واتهاماً، والأقل تفهماً وصبراً.

في تلك الأثناء كانت "لبنى" تصغي إلى الحوار الدائر في لحظات متباينة تقذف بها بين انتباه مكفهر وشرود مُستفهم مُستنكر، لا تعلم من أين تبدأ إن شاءت أن تساهم بأي حل يناسب مقدراتها ويهدئ من غلواء ما يعنِّف وجدانها، وقد استشعرت في نفسها مسؤولية روحية ما عمَّا يحدث، فكأنها تؤخذ بذنب غيرها، وكأن زواجها من ابن هذه العائلة شكل ما اعتقدته نفسها نذير شؤم، فلم تجد بداً من تبكيت خفي وتقريع متحفز أخذ ينهش ضميرها فيلومها على قدر لم تختره، لكن ضرباته تصر على اختيارها.

في عشية اليوم نفسه يطرح "خليل" على زوجته عدة خيارات كان من بينها قراره بالسفر إلى "دُبَي" كخطوة أولى يحاول فيها مساعدة العائلة في الخروج من تلك الأزمة الخانقة وانتشال أبيه قبل أي شيء آخر من المستنقع الذي خاض فيه.

– إنه أبي، لن أنتظر حتى تنهش لحمه كل تلك المخالب والأنياب المستنفرة.

– كم من الوقت يلزم للخروج مما نحن فيه؟

– لا أعرف، حقيقةً لا علم لي، لكن قد يطول الأمر لسنوات.

– اذهب يا "خليل"، سأحتمل غيابك المرّ عنا مهما كلف الأمر؟

– ربما ستمضي سنة لا أكثر، سأرتب فيها أموري وأعمل على استقدامكم، الصبر يا "لبنى".

– وهل لنا سوى الجهد والكد والعرق والصبر؟

– أشعر ما الذي تكابدين وهو حق لك، صدقيني ستؤول الأمور إلى ما يسرك ويرضيك.

– يرضيني أن تستعين أيضاً بحليّ الذهبية، لعلها تساعد بعض الشيء، أنت بحاجة لأي مبلغ ماليّ إضافي ريثما تؤمن لك عملاً هناك.

– ما أطيب روحك وأعذب قلبك، لا يا "لبنى"، لا حاجة لذلك الآن، فما زلت أمتلك مبلغاً من المال لا بأس به ادخرته من أجل الاستعانة به في أيام كهذه خشيت قدومها، فلتكن خطوة أولى وليكن السفر أول المفاتيح الممكنة لمعاودة النهوض، لا

عليك، أبقِ على حُليّك الآن، ولو استدعت الضرورة للانتفاع بها أعدك بأني سأخبرك بذلك.

– علمتُ أن الخسائر كبيرة ولا تحتمل التردد، أرجوك أن تأخذ مصوغاتي الذهبية وتتصرف بها كيفما تشاء، فإن لم ننتفع بها الآن فما الحاجة إليها إذاً؟

– "لبنى"، هل تعلمين بأن والدي قرر أن ننقل كل ممتلكاتنا كي يتم تسجيلها باسمك أنت؟

– ماذا تقصد، باسمي أنا، كيف، ولماذا؟

– نعم عزيزتي، نحن ندخرك لأمر جلل، لقد وضع والدي ثقته كلها فيك أنت دوناً عن الأقرباء جميعاً، إنه إجراء احترازي ضروري للمحافظة على الممتلكات من الحجز أو وضعها في المزاد العلني.

– لا بأس بأي تصرف ترونه يساعد في تجاوز الأزمة، أنا على استعداد لتقديم كل ما يلزم حماية للأسرة، فانظروا ما أنتم فاعلون وأنا طوع أمركم.

– كما أتمنى ألا تأخذي كلام أخي "زاهد" على محمل الجد، أعلم أنه يتجاوز عليك بالقول في بعض الأحيان، فاعتبريه أخاً لك، كلي أمل في أن تتفهمي الحال وتتجاهلي حماقاته.

– لا عليك، كرامة لك ولعيني والدتك التي أحب، سأحتمل كل شيء، لكن، أتمنى من الله أن يهديه إلى الخير، إنه يظن بي السوء وكأني أطمع بمال له أو سأسلبه حقاً من حقوقه ضمن العائلة.

– لذلك أطلب منك بكل مودة أن تصبري عليه وأن تتوخي

الحكمة في ذلك، أنت أهل لها، وإن فاقك سناً فأنت تفوقينه عقلاً وتدبراً، أسألك الحلم والأناة ما وسعك.

سادت لحظات من الصمت، قبل أن تستفسر من بعد تردد لم يطل قائلة:

– كل ذلك لا يهم الآن، لكن أتمنى عليك أن تصدقني القول، هل هدد بعض من يطالبونكم بالأموال بخطف ابنتنا حقاً إن لم يتم تسديد أموالهم؟

– من أخبرك بذلك؟

– لقد سمعت شقيقتك "وصال" تبكي وهي تذكر ذلك لوالدتك في المطبخ، كنتُ في صالة المنزل، ربما غفلتا عن وجودي قريبة منهما، لا أخفيك، لقد جن جنوني، لكن لم أشأ أن أزيد الأمور تعقيداً ولا تشنجاً فآثرت أن استفسر منك أنت.

– لن يحدث شيء من ذلك أبداً بالطبع، فلا عليك، إنما هي أقوال في الهواء تكثر في مناخات مشابهة تولد الكثير من اللغط وسخف القول، لكنها لا تبارح الألسن ولا الأفواه، ولا تبتعد عن كونها فقاعات تتلاشى، فلا تخشي تفاهة مما قيل أو مما قد يقال.

– وماذا بالنسبة للإجراءات العاجلة التي ستتخذ لسداد الديون؟

– اقترح أبي أن نبقي على المطعم الكبير الذي يديره أخي "زاهد"، إضافة إلى ما هو مأمول من سفري وما أطمح من خلاله أن يقلص مبلغ الديون حتى لو قضيت العمر كله أنحت الصخر، لكن سيعود كل قرش لأهله وسأحفظ لأبي اسمه وسمعته النظيفة.

تمر الأيام سراعاً، ومع كل يوم يمضي كانت الأعباء تزداد

صعوبة والحال ضيقاً، يتم بيع ما تقرر بيعه من ممتلكات ضمن وقت قصير جحدها قيمتها وبَخسها أثمانها الفعلية لضرورات تتعلق بوجوب الدفع العاجل، كان مما وقع عليه قرار البيع الشقة التي اعتقدت "لبنى" أنها ستكون جنة لن تهبط منها، كي تنتقل وزوجها بعد ذلك إلى غرفة في منزل العائلة الكبير، تم تجهيزها لإقامتهما مؤقتاً ريثما تنقشع سحائب الطامة التي حلت بهم، فتراكمت خسارات فوق أخرى، حيث لم تستطع الدفعات الأولية وإن كانت كبيرة أن تلجم بقية الأصوات عن التفلت، ومبلغ العجز المتبقي قدر بمئتي ألف دولار أمريكي، فأسقط في يد "علم الدين" وأزفت ساعة الخطب وآن أوان الصيحة.

استنفرت حواسها جميعاً عند سماعها طرقاً مستمراً على باب المنزل صباحاً، لم تتجاوز الساعة حينها التاسعة، عندما فتحت السيدة "عنايت" الباب طالعتها وجوه صارمة عابسة لعدة رجال بلباس الشرطة يتقدمهم ضابط برتبة نقيب، أخبرها بمذكرة استدعاء صادرة بحق زوجها "علم الدين" والذي خرج في اللحظة نفسها من غرفته سائلاً إياها الابتعاد عن الباب، وقد تلقى الغاية من زيارتهم فلم يجد بداً من أن يتصنَّع رباطة الجأش أمام نسوة المنزل ليسأل الضابط بعض الدقائق كي يغير ثيابه خلالها ويرافقهم.

مضت أربع ساعات ثقيلة عاد بعدها "علم الدين" من قسم الشرطة بعد يوم قاسى فيه مشقة كبيرة وصنوفا من المهانة والقهر، ما إن اقترب من الأريكة في صالة المنزل حتى تهاوى جسده فجأة لينطرح قربها على الأرض بينما ندت عنه آهة

كالحشرجة وهو يشير إلى منتصف صدره بحركة ثقيلة ومحاولة للفظ كلمات كأنها اختنقت فغاصت في جوفه، سارعت "لبنى" وزوجته إليه وقد انخرطتا في بكاء يخرج عن حزن وخوف، سألهما بحركة من رأسه وعينيه أن يقودانه إلى سريره وقد تحامل على نفسه يجر أذياله بإعياء وتهالك.

أخذته ضربة عنيفة على حين غرة وكأنما سلك معدني حادّ ساخن مر بسرعة ليخترق ضلوعه ويخرج من ظهره بلمح البصر، كان الألم شديداً لا يُحتمل، رافقه شعور أقرب في وصفه إلى شيء انفجر داخل صدره فعطل عقله وأسلمه إلى ذهول، هذا ما ذكره للطبيب الذي استُدعي على عجل، فنصح بنقله إلى المشفى على جناح السرعة لإجراء فحوصات وتحاليل تخصصية ولمزيد من الراحة في هذه الفترة، كان التشخيص المبدئي للحالة ما همس به الطبيب في أذن السيدة "عنايت" خارج الغرفة بأنها ذبحة صدرية، ولا يجوز التهاون بضرورة دخوله المشفى، واليوم قبل الغد إن أمكن.

كان اليوم الأول "لعلم الدين" في المشفى مزدحماً بالزوار، فقد عاده ابنه "خليل" لساعات تابع فيها نتائج التحاليل والفحوص التي أجريت له، كما فعل كذلك "زاهد" الذي مرَّ لساعة اطمأن فيها إلى وضع أبيه الصحي، وغادر بعد إلحاح من والده أن يفعل كيلا يترك المطعم دون إدارة، كما زاره لفيف من الصحب والأقارب وحتى بعض أصحاب الديون.

في تلك الأثناء سألت "لبنى" السيدة "عنايت" التي لم تبارح

زوجها كل الوقت أن تأذن لها بالبقاء قرب حموها لتشرف عليه طيلة فترة وجوده في المشفى، لكنها عارضت ذلك وأقسمت عليها أن تذهب إلى المنزل كي ترعى طفلتها، كانتا هي و"وصال" تتناوبان الزيارة كل ست ساعات، ترعى واحدة الطفلة والأخرى تعنى بالمريض، خاصة أن "سيرين" في الحقيقة لا تحتاج في غذائها إلى صدر أمها بعد أن بلغت الفطام، وحتى إن احتاجت للحليب فعبوة الرضاعة كانت تفي بالغرض.

لم يطل المقام بـ"علم الدين" في المشفى لأكثر من ثلاثة أيام، خرج بعدها مُحمَّلاً بتعليمات طبية تفرض عليه نظاماً غذائياً صارماً بل وحياتياً مختلفاً ليس من المحمود أن يحيد عنه، فالراحة التامة قبل أي شيء آخر ضمن أجواء من الهدوء والسكينة، والامتناع عن مزاولة أي نشاط يستلزم جهداً جسمانياً أو ربما يتسبب بتوتر نفسي، كذلك التخفيف ما أمكن من تناول الملح والسكر والاستعاضة بأغذية من البروتين النباتي والسمك أو الدجاج كبدائل عن اللحوم الحمراء، بأي حال فبنود كثيرة من تلك القائمة وجدت لها طريقاً إليه دونما حاجة إلى تعليمات من طبيب، فما جندل نفسه من مصائب أرخت بسدولها على حياته ساهم بتقبل كل ما فرض عليه من محرمات تبدت كعقاب ارتضاه، فمر أسبوع وتبعه آخر لم يبارح فيه المنزل، وقد صار إلى حال من الوهن أفقده الكثير من وزنه، فكلَّت حركته وخارت قواه بتسارع مريب، وانخفض صوته إلى نبرة مبهمة لا تستطيع تمييزها، أهي همس أم أنين؟ كان يسألهم أن يقربوا له حفيدته

الوحيدة، فتبصره ساعتها وقد استحال إلى طفل رقيق مفتر الثغر عن ابتسامة رضى وقبول، يحاكي بنظراته الغائمة باعث الفرح الذي يضمه بين يديه، يقربه من وجهه، يتنفسه، ويلثمه تقبيلاً، ثم يغرقه بوافر الدعاء ورطيب الدمع الذي أضحى في الأيام الأخيرة مدراراً يفر عند رؤية كل فرد من أهل بيته يدخل غرفته.

آنس شيئاً من قوة تحرك لها كيانه، وثار صدره ببواعث الانشراح بعد أن لطف الاستحمام والماء البارد من حرارة الأسبوع الأخير من شهر "يوليو" فهفت نفسه إلى الخروج من غرفته إلى صالة البيت، قد تطيَّب بعطر صيفي بعبق الليمون والقرنفل، فامتلأت رئتيه بأسباب الحياة، وأشرق مُحيَّاه مُستبشراً بتلك الصحوة التي حملت به كي يُسارع الخطو ببهجة تاق فيها إلى اجتماع أفراد أسرته عند الغداء، فنادى زوجته التي كانت في المطبخ تحضر الطعام يستعلم منها موعد قدوم "خليل"، فأجابته من مكانها بأنه اتصل ليخبرها بأنه سيضطر إلى القدوم متأخراً بعض الشيء، فهو يعمل على إنهاء آخر الإجراءات المتعلقة بالأوراق المطلوبة لسفره، ثم سألته إن رغب بانضمام "زاهد" فسوف تتصل به وتطلب منه أن يترك من يحل مكانه في المطعم فترة غيابه، انتظرت لحظات لم تستمع منه خلالها إلى إجابة على تساؤلها، بل تسرب إلى أذنيها صوت غريب لم تستطع أن تحدده، غير أنه أرعد منها الفرائص وحل الروع في قلبها فهزت رأسها محاولة أن تنكر ما ظنت، هبت مهرولة بذعر خارج المطبخ لتجد زوجها قد سقط ميتاً بلا حراك أسفل ستائر الشرفة في صالة المنزل.

[الفصل الرابع]

لله درُّ تلك الصور المتلاحقة التي تعلقت به كتعلق يد طفلته "سيرين" بإبهامه لحظة كان يمد لها كفه مُستحثاً فطرة استطلاع الطفولة فيها كي تعضه بأسنان جديدة حادة لم تكن تغرز في روحه سوى بهجة خالصة وألماً لذيذاً مستحبّاً.

كانت الأفكار والتساؤلات قد اضطربت في رأسه ضمن فوضى لا رادع لها، تقاطعت عناوينها ما بين الحاضر والماضي والمستقبل، كيف، لماذا، إلى أين، ومتى؟ أهو آخر عهد له يا ترى بتلك المدينة وأبنيتها، بشوارعها وأزقتها، بوجوه ساكنيها وشريطها الأزرق الحي، بتلك المناظر المختلطة التي تمر أمام عينيه تمسحهما بسرعة السيارة التي تقلهم إلى مطار العاصمة؟

تكلم بلا صوت يهذي مع نفسه، هذا "زاهد" وراء المقود، وهذا أنا أقبع كهلام بلا مذاق أجلس إلى يمينه، بينما تجلس "لبنى" في المقعد الخلفي قرب "وصال" تتوسطهما قطعة الحياة الزاهية "سيرين" قد أعانتاها على الوقوف كي تباشر سعادتها بشد شعري أو مداعبة وجهي كلما التفتُ إليها مبتسماً، وفي محاولة منفصلة أخرى تروم وصفاً يشرح جانباً مني يتجاوز العربة، فأظنني قد استُنسختُ كي يُطاح بي في أماكن عديدة لم أخترها لكنها فرضت حدتها، فأراني معهم تارة ألزم وجهي برسم تعابير متباينة ما بين الابتسام والتسليم والرضا، وتارة أخرى أجدني عند باب المنزل بعد أن حزمتُ أمري وحقائبي، تضمني أمي

إلى صدرها الذي خاطب ضلوعي بنشيج مؤلم وأدعية لا مثيل لصدقها ويقينها، بينما ألثم كفيها راجياً إياها أن تهدأ وتتفهم راحتي في ألا ترافقنا رحلة المطار لخشيتي على صحتها قبل أي شيء آخر، لا أعلم كيف أوتيتُ لحظتها قوة تماسكتُ فيها للحد الأقصى كي لا تشتعل أنفاسي بوقود يؤججه ما بلل خدي من نقيّ دموعها، ثم أجذُني كرَّة أدهى وأمرّ وقد غطى التراب أسفل ثيابي وحذائي أراقب الجموع التي تحلقت قرب الحفرة التي رُدمت وانتفخ ظاهرها كبطن امرأة حُبلى بمولود، بينما هذه الأخرى حُبلى بميت، فشتان ما بين الحملين، تساءل في نفسه عن نفع هذا الماء الذي يُرَش فوق ما ثار من نقعٍ أخذ يتهادى مع كلِّ آية تُتلى ودعاء يُلقى، أتُراه يُخفف حرارة عن الميت الذي شُدَّت وثاقه بآخر قماش لُفَّ به وكسوة أدرج فيها لم يطالعها في مرآته؟ أم لعله عُرفٌ يتعلق بصرح يُسقى وبناء سيتعرف به الأسباب، أين المَفرُّ وقد حلَّ المُستقر، فلمَ كلُّ تلك الأسوار التي تطوِّق دار القرار؟ أسترقُ النظر لهاتيكم الجموع التي تمالأت سحناتها واستوسقت على الرهبة والإيمان العميق، أو ما اعتادته من أقنعة جاهزة تنطق بالخشوع القطيعيّ المُستعار كما هو حال البعض منها الذي سينسى القبر ومَن يضمه وكل الأجداث المجاورة كشيء غريب يقع على خلقٍ من طبيعة أخرى، هم بمأمن من تلك القبضة التي لن تقربهم أبداً، حتى رائحة الأرض غريبة، كيف ترتبط الروائح السيئة بالمواد السيئة والأشياء السيئة، ربما ليتبين المرء خطرها، من جعل هذا السوء تنبيهاً من خلال حاسة

الشم؟ حتى أبي ستتغير رائحته بعد الموت لشيء غير صالح للاستخدام فتنبعث منه رائحة عفونة ونتانة كأيّ جيفة، لم يكن يميزه سوى العقل والنفس والروح التي فارقت، ويُكرم بالدفن، تحول إلى مادة لا تقدم فائدة، حتى لو قربت منه كل الطعام وكل الشراب وألبسته كل الذهب، سيتابع تحلله ولن يصله شيء منك، فلمَ يُصرّ البعض على تشييد قبر ينفقون على مَرمَرِه ونحته وتزيينه الشيء الكثير وقد يُرصّع بقباب من ذهب، ويُفرش محيطه بأغلى أنواع السجاد العجمي، إنهم ينفقون على تراب، لم لا يُبذل ذلك على من يتنفس، ويدعون من لا يتنفس!

لعلّي تحولتُ إلى شيء متناثر مُبهم، ما بال تلك الرؤوس الرطبة تحدق في عينيّ كفزاعات كريهة؟

بلى، لقد أحدثت وفاة والده أثراً عظيم الرسوخ والتشبث في نفسه، لتخلف انطباعاً مُستفحلاً يوازي التمرد والعصيان، فأبى الرحيل متسلحاً باستعصاء مُنكر ذي هيمنة، ثلاثة أسابيع منهكة تاه فيها الدليل وتوزَّع الخاطر، فلم يهنأ بنوم ولم تصفُ نفسه في صحو، لاح له يوم الأمس كبارق ردد صدى تخبط حزين، أصر صديقه "بشير" أن يلبي آخر دعوة له على الغداء في مطعم قريب على البحر قبيل سفره، إنها لحظات رفض محضة، رفض أهوج حانق، ما أعنفها من سيطرة تفقدك نعمة الخيار، ما أبشع أن تستسلم إلى اجترار تعمل على دفعه فيأبى، إنه وجه غير وجه أبي، السرّ الذي كان يتسرب إلى كلّ الملامح فيُنطقها وإن لم تنبس شفاه أو تتحرك به ألسن قد غادر منجزاً المهمة والعين

غير العين، أخُط توقيعي بقلم جاف لاستلامه للمرة الأخيرة من ثلاجة الموتى، تعلمت شيئاً مُهمّاً عن الجسد بعد الرحيل، فمن الوظائف المُهمّة لإبهام القدم أن تُعلق فيه ورقة موتك، يُكتب فيها اسم الجثة، فتنتقل الهوية من محفظتك وأنت حي لأسفل جزء منك وأنت ميت!

جالد كل القوى ليُنحي حديث الموت جانباً فلم يستطع، لقد انتهى إلى شيء يشبه الهذيان، حتى التصوُّر الأخير الذي ربط به بين الموت وبين السفر تشكل بقالب من سخرية فحادث صديقه يردد له بعض الأمثلة عن الموت:

– ما أجمل أن ترحل وأنت في ريعان الشباب كغصن أخضر تُذكَرُ بجمالك وبهائك، فتتركَ في النفوس رحمة وعظة لكل من يسعى أن يُنَكَّسَ في الخلق.

– لعلك على حق في جانب من كلامك، لكني لا أنصح بأن تثق بآراء تتولد عن أحداث موجعة.

– قد تكون أحداثاً كتلك سبباً لجلاء البصر ووضوح الرؤية، وقد تفهم جانباً من الحقيقة ببلوغ التراق، لا يكمن السوء في كل رحيل، حتى وإن كان مؤلماً.

– مع ذلك فأنت الآن مسؤول عن عائلة، يجدر بك الحفاظ على صحتك وأن تسعى بأمل مشرق لا يخذل من يرون فيك عونهم وسندهم، إني لا أرى حكمة في أن يقيدك يأس بسلاسل القهر، فتخسر كل شيء، أرجوك أن تنحي تلك الأوهام المحبطة.

– أنا لا أتحدث عن أشياء غدت باهتة، سفري، بحثي عن

عمل، متابعة سداد الديون لأصحابها، عنايتي بأسرتي، إنها مجرد تفاصيل سأخوضها وإن كرهت، قد يأتي المال كما ذهب، لكني يا صديقي أسافر أبعد من سفري هذا، أبعد بكثير.

– هل تستخف بضرورة تمكين أسرتك بأسباب الرزق والحياة، أين العيب في أن تظللهم بوارف السكينة وراحة البال، لم لا تهون الأمر على نفسك وتنجيها من مواطن الأذى وشعاب الردى؟ حتى صحتك لها ما وراءها، ليس لك أن تهملها أو أن تحمل نفسك فوق طاقتها من أوزار ترهق كاهلك وخيالات تدنس روحك.

– لا، ليس الأمر كما ترى، قد تضمن لك وفرة المال الصحة إلى حين، لكنها لن تمنع لوحة إعلانية أن تسقط فوق رأسك فتقتلك لحظة مرورك تحتها مصادفة، أو أن تهلك مثلاً لأن عجلات الطائرة التي تستقلها لتأمين رزقك قد انفصلت، أو أن يفاجئك زلزال يطيح بأمنياتك أثناء اليوم الأول لزيارة عمل لك إلى "الصين"، أو أن يقضي المرء غيلة بتناول كوب من شراب التوت دست له زوجته الحسناء فيه مبيداً حشرياً كونها تهيم غراماً بمدير مكتبه الفحل أو سائقه الوسيم!

لم يستطع "بشير" أن يمنع ضحكة صافية انطلقت بعفوية أشاعت لحظات تالية من اللطف وقلصت من جوِّ الوجوم المُخيم ومسحة الكآبة في المكان فعقب متشجعاً بابتسامة من صديقه:

– ألم أقل لك لا أنصح ولا أثق بتلك الآراء التي تتفتق عن حوادث مؤلمة، أنت اليوم بمزاجك هذا مختلف عما كنته قبل سنة

وما قد تصبح عليه بعد سنة، لا ثوابت في القانون الاجتماعي، إنَّما نسبية تفرض أحكامها، بل ربما النسبية هي الشيء الثابت الوحيد.

– لا أنكر ما تقول، لعلَّه من الضرورة بمكان أن نعاين الألم كي نستجلي الحقيقة، فما أتعسها من حظوظ حينما تتمثل الحقائق ذاتها كألم لا يفارق، لكن، هل يتعرف الجميع تلك المتغيّرات، أم تراهم لا يبالون بها، ها نحن ذا نتشارك طاولة كما يفعل أمثالنا، نشرب الماء، نتناول الحلوى، والخبز والغذاء، هل يشكل ذلك فارقاً بأي حال؟

– بالطبع، فقطعة الحلوى هذه وعبوة الماء التي ترى، بل حتى رغيف الخبز، كل ذلك يختلف تبعاً للحالة التي يستخدم فيها، أن تكون فقيراً مُعدماً أو غنياً منعماً، جائعاً أو شبعاناً، حزيناً أو مسروراً، في أيام رخاء أو تحت الحصار، تستكشفك أعين المستطلعين أو وحيداً، إنها جميعاً تختلف، قد تجد الكمية ذاتها كثيرة كبيرة زائدة تفيض عن حاجتك، وقد تجدها شحيحة قليلة لا تكفي حساباتك، لو كنت محاصراً تحت أنقاض مبنى تهدم فوقك وفي جيبك قطعة من الـ"شوكولاتة" وعبوة ماء واحدة سترى فيما بين يديك ثروة تستغني بها عن كل شيء، وكذلك لو تهت في صحراء تحت حر شمس لاهبة، أو مستلقياً في منزلك، ثلاجتك المتخمة بالأطاييب والشراب البارد لصقك، كل ذلك يحدث فرقاً.

– أوافقك الرأي، انظر لهذا النادل مثلاً، تراه على حال من

السعادة قد ينفسه عليها أي حزين مثلي، لكن لو صعقته مصيبة تماثل ما حل بي، وهذا ما لا أتمناه له، ستقضي على نشاطه وتسلبه ابتسامته وإن كانت من شروط المهنة.

– هل أنت على يقين من أنه يخلو مما تظن وإن رأيت منه ما ترى؟ بأي حال أنت قلتها، وذكرتني بنماذج ترفع فيها القبعة لامرئ يحتمل ما قد يغيب عن كثيرين، ففي حفلات الـ"كوكتيل" طالع أي نادل يحمل صينيَّة فوقها أفخر الأطعمة من "كافيار" و"سلمون" مُدخن، أو حلويات باهظة الثمن، يدور بها لضيافتهم، فيبز جمهور الكذب والرياء من مُحدثي النعمة أو أصحاب المظاهر الخدَّاعة والقشور الاجتماعية، تراهم يُصعِّرون خدودهم عنه استحقاراً وتيهاً، ترفعاً وكبراً لحظة اقترابه منهم، انظر أحوالهم وقد تسلحوا بوجوه تشي بترف يخالطه قرف، يُشعرونه وكأنه جرثومة لاحت في أجواء صفائهم التي عكرها دنوّه من حريرهم، وإن ارتدى كل نظيف وأنيق وتعطر بأنواع من المسك والطيب، فإن حدث وأشاروا إليه، فهم يومئون له بأنوف تعج خيلاء بألا يقترب، لكنهم في حقيقة الأمر على درجات من شره ونهم وجشع باستطاعتها أن تبتلع النادل وما يدور به وفيه من فلك.

– ذلك يتبعونه باب اللباقة أو "الإيتيكيت"، فكم من الأمور التي يدفعك الحصار المخملي إلى التقيُّد بها والتزامها على كراهة.

– تبا لهم ولـ "إيتيكيتهم" الكاذب، أخبرني بالله عليك، مَنْ مِنَ الناس الذي لا يكحّ أو ينحّ، يعطس ويحزق ويتجشأ، يدهمه إسهال أو نفخة بطن أو قرقرة أحشاء، أو ربما تثقل أحمال كليتيه

بسوائل لا يكاد يصبر على ثورانها فتنفلت منه بغير إرادة، مع ذلك ترى القوم يلتفتون بنظرات شذرة مستريبة مستنكرة فيما لو سعل شخص أثناء اجتماع عمل أو محاضرة أو درس أو مأتم، فويل له لو تجرَّأ وتنحنح، وثبور له لو عطس أو ضحك فجأة، أو حتى لو قهرته الغازات بانتصارها عليه في جولة من الجولات، فسرح الريح بيأس المستسلم للدنيا وعليها جميعاً، وكأنه أجرم بما لم يأته أحد قبله ولا بعده من الأوائل، ليت شعري من مخارجهم التي سُدَّت وأمسكت ما لا ينسل، فلا غرابة لو كانت العذرة حينها طبيعة منهم ترسمها وجوههم المنافقة، فتنطق بمنتن ريحها تعابيرهم الكريهة المصطنعة، حتى هنا تلعب النسبيَّة دورها بين الاحترام وبين الوضاعة.

ابتسم "خليل" مؤكداً على كلام صديقه، ثم رنا بطرف حزين ناحية البحر، وهو يتمتم بشرود:

– نعم، كذلك الخوف نسبيٌّ والأمن والثقة والكرم والبخل، فرق بين أن تهب القليل عن وفرة وأن تهب القليل عن قلة، أن تعطي الكثير عن وفرة وأن تقدم الكثير عن قلة، ربما قدر لي أن أقدم ما يتجاوز الأشياء، ولا أدري إن صنفت جموع المنتظرين ما سأبذل من نفس ضمن خانة القلة أو الوفرة، كشيء عزيز أو أمر حقير!

– لا، لا تقل ذلك، ولا تفارقنك الروح التي أعهد، أنت أكرم من ذلك يا صديقي، الزمن وسيلة فأحسن التصرف، سافر واسع إلى حياة جديدة، دع عنك ما أنت فيه، وليرقد والدك بسلام، أنت

مسؤول الآن عن زوجة وطفلة وسمعة يجب أن تُحفظ وأمانات أثق أنها ستُؤدى.

– وهل يقطع نياط القلب مع ما أحدثت النصال سوى ابتعادي عن أهلي وتركي لتلك الطفلة؟ ما يخفف عني بعض الشيء أنه رأى حفيدة له قبل أن يرحل، فكيف أتركها أنا نفسي وأرحل، قد يهلكني الشوق للصغيرة يا صاحبي، وأخشى أن يخمد جذوة ضربي في الأرض، ألا توافقني بأن أصغر الأشياء ربما يحول دون بلوغ المُنى أحياناً؟

– على النقيض تماماً، فالسفن الصغيرة تستطيع تحريك ناقلات النفط العملاقة، وعربات ضئيلة تدفع وتحرك طائرات ضخمة كذلك، فلا تُحقِّرنَّ من شأن ما تملك، قد يرتقي فرد لوحده بأمَّة بأكملها فيمضي بها إلى علياء، أو يمتطيها بسلطان يقيِّض له فيهوي به إلى قعر شقاء، فاختر ما يحفزك من قوة الصغيرة كي تُقدِم ولا تنكص على عقبيك، وليكن شوقك لأهلك ولها زاداً تتقوى به، وسهماً في كنانتك لا في نحرك.

نظر بامتنان ومودة في عيني صديقه الذي يكبره بخمسة أعوام فقط، لكنه في بعض الأحيان لا يستطيع إلا أن يرى فيه أستاذاً وحكيماً يرتاح لكلماته ويستهدي بنصحه، نهض قائماً متجهاً نحوه ليضمه إلى صدره بحرارة وهو يغالب دمعة لم يستطع حبسها.

– سأشتاق إليك يا "بشير"، سأشتاق إليك يا صديقي، نِعمَ الرجل أنت.

– ستصير إلى خير يا "خليل"، ولن يخيب لك رجاء، اعتن بنفسك.

لن ينسى ما لـ"بشير" من يدٍ عنده، إنه أهل لتلك المكانة التي يحملها له في ضميره، وهو صاحب فضل عليه ليس له أن ينكره، ألم يؤمن بمواهبه في فن الخطابة والكتابة، لو راجع أكثر الأعداد التي صدرت في السنتين الأخيرتين لمجلة "أبنوس" سيجد أنه لم يَخلُ إصدار منها إلا وقد تضمن مادة تحمل اسم "خليل شملان"، فكيف لصاحب مثله أن تُجحف له مروءة؟

يتفق معظم الناس على ما يميز لحظات الوداع من سمات حزن قد يتقاطع الفرح مع بعضها، وقد يتقدمه أحياناً فيما لو كان الوداع صورة تبطن الخلاص لطرف ما، كأن ترتاح أسرة يسافر القوَّام عليها بالسوء فيما لو كان يقبض على سوط البطش والظلم والعدوان، فنأيه عندها رحمة وابتعاده نافذة يتسلل منها فجر حياة حتى وإن كانت صباحات الحرية تتنفس لفترات وجيزة، لكنها تساهم في تجدد الآمال، لذلك فأسباب الترحال تتنوع بطرائق مدهشة، فهل يُحدث رحيلي حركة تؤثر في الوعي أو الوجود، لا أعلم يقيناً، غير أنه خطوة تشكل ضرورة تفصل بين محطات لم أنشد أكثرها، كما لم أرغب بالتأكيد في إثارة الدمع في تلك الوجوه التي أفارق، ولا في نوع القبلات التي كانت أرأف مس يغوص في الأعماق، وآخر سُقيا أرتشفها من بئر النجوى.

أخذت ألوان الطبيعة تتبدل بمضي الوقت منذ ساعة مغادرتنا في السيارة ليلاً من مدينة "اللاذقية" على البحر الأبيض

المتوسط صوب مطار العاصمة "دمشق" كخطوة أولى، ومنها لأستأنف عند التاسعة صباحاً التحليق في الأجواء نحو الجنوب الشرقي إلى إمارة "دُبي" ثم حتى لحظة وجودي الآن أتابع من مقعدي الأيسر قرب النافذة في الصف الأخير من الطائرة ذلك التسارع في شريط المشاهد حولي وفي الأسفل، تحاملت على نفسي لأخفف عنها من خلال التناسي بما دفعت إليه البصر كي يتلهى بما يرى، فاسترجعت آخر استراحة كانت لنا بعد الجسر الثالث من طريق مطار "دمشق" الدولي تناولنا فيها القهوة التي تضمها حافظة حرارية حملتها "لبنى" مع بعض الفناجين الخزفية، حيث أوقف "زاهد" السيارة غير بعيد عن الطريق إلى جانب حقول مزروعة تشكل قطعة مما احتوته "الغوطة الشرقية" من أشجار باسقة وخضرة كثيفة خلفناها عند ساعات الفجر الأولى وقد تراءت في الأفق الشمالي بعيداً سلاسل جبلية ذات تركيب كلسي في معظمها، تطفو فوقها بعض السحب الرقيقة في سماء تزفر ضياءً اصطبغ ما بين حمرة وزرقة وشيئاً من صفرة ذهبية بادية تلامس الوجنات برقة الصباح، وطلّ بارد رفرفت لأجله الطيور سعادة وانتشت بقطره طرباً يبرئ سقم الأبدان ويطرد غُصصَ الأنفس، فأقتربُ لأقبّل وجنتي "سيرين" الغافية في حضن أمها، استنشق زكيَّ نكهة الطفولة وشفافيتها، تفوح منها رائحة الحليب والبودرة، وما غطى شدق فمها من رضاب يسيل فيبلل المريلة عند رقبتها، فأخشى الانهيار للحظة فأنسحب بانقباض أخفيه ولوعة أتجرَّعها، ثم ينتهي المشهد فجأة ليُرجعني من الأرض

نحو السماء، فأنتبه إلى مكاني، وأعود كي أتابع النظر عبر نافذة الطائرة، فترتسم تضاريس أخرى تنهد فيها تجمعات لحجارة تميل للون يغلب عليه السواد، تطوّقها رمال أقرب للحمرة تنهض ببروز يمتد خارج "دمشق" جنوباً، تشكل أقسام كبيرة منها حرَّات هضبة "حوران" البركانية، وتشمل أيضاً منطقة "اللجاة" ومساحة واسعة من "جبل العرب"، ثم لتتحول بعد ذلك إلى أراضٍ شاسعة مترامية الأطراف تشكل الجزء الشمالي الشرقي من صحراء شبه الجزيرة العربية، اللون الذي يتسيَّد التضاريس بعدها هو لون واحد متشابه، إنه لون رمال الصحراء البنيّ بكل درجاته حتى مكان وصول الرحلة عند سواحل الخليج في دولة الإمارات العربية المتحدة، تقطعها الطائرة في ساعتين ونصف الساعة تقريباً أو أكثر من ذلك بقليل.

كأنها لطمة نار أخذت بي على حين غرة لتصفع مسامات جلدي بحرارة أحاطت بأنفاسي وأطاحت بتماسكي، ثم لتُحكم قبضة لهيبها على رقبتي وتنشب مخالب رطوبتها فتخنق رئتيّ، لفحتني المفاجأة دونما سابق إنذار، فلم يخامرني شك أني ألقيت في تنور يفور، إنها اللحظة الفاصلة ما بين برودة ظننتها أصيلة تملأ مبنى المطار وردهاته وبين لحظة خروجي من واحد من بواباته إلى أرض "دبي"، هي الأيام الأخيرة من شهر "أغسطس"، ربما كُتب عليَّ أن أتذوق شيئاً من قرص حلواها الساخنة التي تناولتني قبل أن أتناولها عند اليوم الأول لوصولي!

لم ينتشلني مما أنا فيه فجأة إلا سماع اسمي يتردد بصوت

خرج من بين جموع المنتظرين تعرفت فيه صوت "نزار" ابن خالتي، والذي يقيم هنا منذ بضع سنوات حيث كان قد استعلم مُسبقاً عن موعد الرحلة كي يحضر لاصطحابي من المطار، تبادلنا السلام والتحيات فيما بيننا على عجل، ثم أقلني بسيارته إلى بيته حيث استقبلتنا زوجته "رنا" التي تنتسب إلى واحدة من العوائل الدمشقية العريقة بعبارات التأهيل والترحيب، قد لاح خلفها وجه لطفل صغير يبدو في السادسة من عمره، وقف على تردد واستحياء مستطلعاً الزائر بفضول وحذر، كان البيت عبارة عن شقة في الطابق الثالث عشر من أحد الأبراج السكنية التي تطل على بحيرة "خالد" أبرز المعالم المائية التي تشتهر بها مدينة "الشارقة"، هي شقة متواضعة في مساحتها، لكنها على قدر ملحوظ من الهدوء والنظافة والترتيب، لا تخطئ العين في تلمس الذوق الرفيع الذي تركت ربة المنزل بصمات لها كتوقيع تجده في كل جزء من المكان.

بعد فترة راحة قصيرة دعتنا الزوجة إلى مائدة كانت قد أعدت على ما يبدو قبيل وصولنا بقليل، تناولنا الطعام الذي استحقت أطباقه الشاميَّة مني خالص الشكر والثناء لمن أحسنت طهيه وإعداده بتلك الطريقة الشهية، مرت ساعة بعد فترة الغداء تخللها تناول بعض الحلويات وفناجين من الشاي والقهوة، وطرح أحاديث متفرقة تتعلق بأخبار البلد والأصحاب والجوار عموماً، وما وصلت إليه أحوال عائلتي على وجه الخصوص، ثم أخبرني "نزار" عن فرصة العمل التي يسَّرها لي بعد أن تدخل عند صديق

له يعمل مستشاراً لدى مؤسسة إعلامية كبرى اطَّلع على سيرتي الذاتية إضافة إلى مراجعته لنماذج من كتاباتي المنشورة في مجلة "أبنوس" والتي كانت بمثابة جسر عبور ساهم في انتقالي لجولة تالية من قدري، حيث تم الاتفاق على تعييني بوظيفة مُحرِّر صحفي تحت التجربة في القسم الثقافي التابع لصحيفة مَحليَّة يومية واسعة الانتشار، كان من المقرر أن أوقع على عقد العمل بعد ثلاثة أيام تتبعها إجراءات تالية تتعلق بتأشيرة الإقامة والعمل والتي تستلزم تبعاً للقوانين مغادرتي البلاد لفترة قصيرة لأي بلد قريب أو بعيد لا فرق في ذلك، ثم عودتي مرة أخرى ومزاولة عملي، فكرت كثيراً لو أني أستطيع اغتنام تلك الفرصة للعودة مرة أخرى لأهلي، لكن "نزار" نصحني بألا أتخذ هذا الخيار فهو سيؤجج ما أحاول إخماده، مع ما يتضمّن من تكاليف مُضاعفة ومصاريف مُرهقة أنا أحوج إليها في هذه الفترة، وأشار عليَّ أن أنحاز إلى خيار الأغلبية في السفر إلى أقرب وجهة كـ "سلطنة عُمان" أو بعض الجزر الإيرانيَّة القريبة كجزيرة "كيش" مثلاً، بتكاليف أقل ومدة زمنية لا تطول، فوافقت على طرحه شاكراً ثم سألته أن يقترح لي فندقاً معتدلاً أقيم فيه لفترة ريثما أتدبر أموري وأبحث عن مسكن مناسب غير بعيد عن مكان عملي لأجل سهولة المواصلات، فسألني بشهامة وصدق أن أبيت عنده تلك الفترة، لكنّي أقسمت عليه أن يُنفّذ رغبتي ففي ذلك راحة لي، وسهولة في الحركة، وأنا على يقين بأنَّ وضع بيته لا يسمح بذلك، حتى وإن بقيت ليوم أو يومين وقررت خلالها أن

أخرج برفقته صباحاً وأقضي الوقت في أي مكان ريثما ينتهي عمله فأرجع معه، لكني لم أرتح أبداً لتلك الصورة التي أحدث مجرد استحضارها عظيم الحرج، فكيف بي لو وافقته على ما يطرح تحت ضغط الحياء، هذا مُحالٌ ولن يكون، فشكرته بعمق بعد أن أذعن لمشيئتي.

انقضت نصف سنة تقريباً على سفره اتصل خلالها بأهله مرات عديدة، كان في كل مرة منها يزوِّدهم بأخبار مُشجعة تتعلق بعمله الذي بات يأخذ الكثير من وقته وجهده، كما كان يستعلم منهم بداية عن صحة أمه التي بدأت تتدهور بشكل مطّرد، غير أنها كانت تتحامل على أوجاعها لحظة يطلبها للكلام فتحاول جاهدة ألا تطيل معه الحديث كي لا يعكس صوتها تعباً قد يقرأ فيه ما يثبط همَّته ويُخيّب سعيه، فتتهرب من ذلك العناء بطريقة غير مباشرة بأن تعطي سماعة الهاتف لـ"وصال" التي تنقل له بشكل مختصر أحوال الأسرة وانغماس "زاهد" في العمل، ومعاودة تسديد الديون منذ أربعة أشهر مما يخرج عن إيراد المطعم، كما لم تنسَ شكره على المبالغ المالية التي يقوم بتحويلها إليهم، والتي يقتطعها من مرتبه الشهريّ في عمله الجديد، ثم يختتم الهاتف بحديث أطول بعض الشيء مع "لبنى" التي كانت تُصبّره و تشدُّ من أزره بعبارات الشوق والمودَّة والاطمئنان على صحته وكيف يقضي أوقاته ومن يعنى بتحضير طعامه وأسئلة كثيرة مشابهة، ثم تخبره عن دراستها الجامعيَّة وسنتها الأخيرة استعداداً للتخرج، وأنها أصبحت لا تلتزم بدوامها بشكل مُتصل،

بل تعتمد على مراجعة المحاضرات من بعض الصديقات في كثير من الأحيان، أو مكاتب تسهيلات تتخصص بإعادة طبع وبيع المنشورات الجامعية الدورية، كما أنها اعتادت أن تقرِّب السماعة من فم "سيرين" التي كانت تستمع إلى صوته فتدمدم بكلمات غير مفهومة، بينما تستحثها أمّها لنطق كلمة "بابا"، فتذهب محاولاتها أدراج الرياح غالباً، أو قد يحالفها الحظ فتخرج عن الطفلة كلمات قد تبدو قريبة أو مُشابهة، مع ذلك فكم كان يفرح قلبه بسماع طلاسمها، أما من جانبه فهو لم يألُ جهداً في تقديم مبررات الانتظار والتروِّي، والعوائق التي تحول دون انضمامهما إليه في تلك الآونة، فلا بدّ من انقضاء فترة أخرى قد تمتد لنصف سنة إضافية، حتى يعمل على تحسين أوضاعه المادية بمستوى أفضل يمكنه من تأمين كل الحاجيات المطلوبة لاستقدامهما، كتذاكر السفر والانتقال إلى شقة أخرى مُناسبة يتوجب تجهيزها وتأثيثها بما يلزم، كما حرص على تذكيرها مراراً بضرورة بذل كل طاقاتها ما تبقَّى لها من فترة دراسيَّة كي تتخرَّج وتنال الشهادة الجامعية، فهي ستكون خطوة مُهمّة تسهّل عليها فرص العمل فيما بعد.

كان "خليل" يتشارك السكن مع آخرين ضمن شقة قريبة من مكان عمله تتألف من ثلاث غرف، تضم كل غرفة منها مستأجرين اثنين تخفيفاً للنفقات، أما هو فقد اختار أن يتحمَّل دفع أجرة الغرفة كاملة لتكون له وحده، فينعم بشيء من الخصوصية والاستقلالية والراحة، مع ما تتطلب ظروف

وطبيعة عمله الصحفي من صفاء ذهن وتحضير مسبق للمواد، فحبَّذ أن تقتصر علاقته مع شركاء السكن على بعض التحيَّات والأحاديث الودية العابرة، فلكل منهم حياته أو بالأحرى وتبعاً لتشابه الأسباب، مشاكله الخاصة التي تُغرقه وتكفيه، أما التسمية التي تطلق على هذا النمط السكني فهي "شقق العُزَّب"، كونها تقتصر على الذكور أو الإناث فقط، مع أن فئة من ساكنيها ليسو كذلك في واقع الأمر، غير أن طبيعة أعمالهم وظروفهم المختلفة تحول دون استقدام زوجاتهم أو أزواجهن.

تمثَّل أهم تقدُّم في مسيرته القصيرة تلك باكتسابه لثقة مدرائه في العمل ومديره المباشر وثنائهم على المواد التي يقدّمها والتي باتت تشكل سمة إيجابية ملفتة في تنوعها وجودة انتقاء مواضيعها المختارة بعناية، كما اكتسب بدماثة خلقه ولطف طباعه محبة واحترام زملائه وزميلاته، إضافة إلى خطوة ذات أهمية أيضاً تجلت في حصوله على شهادة قيادة السيارة، فخطوة كهذه سوف تُسهل عليه تمتين قنوات التواصل على نطاق المهنة وتوسيع آفاقه الاجتماعية وتحسين ظروفه بشكل عام، فتعرف إلى أماكن جديدة في البلد واستكشف مناطق جغرافيّة أكثر تنوعاً كلما سنحت له فرصة لذلك، خاصة أيام العطلات الأسبوعية برفقة أحد زملاء العمل، حيث لاحت بوادر صداقة قربته إلى "أسامة حاتم" وهو سوري الجنسية أيضاً، يحمل درجة الماجستير في الفلسفة وزميله في القسم نفسه، متزوج من "سجى" وهي خبيرة مؤثرات خاصة تعمل في الحقل الإعلامي، والذي وجد في "خليل" متحدثاً

لبقاً ومستمعاً فطناً ومُحاوراً بارعاً، فلم تمض الأسابيع الأولى له في العمل إلا وقد خلف أجواء حماسية أحدثتها اقتراحاته التي تسخر من القوالب الجاهزة وخطوط الرتابة الثابتة لتطرح أفكاراً تنويرية شاملة، تضج حركة ونشاطاً، كان يناقش الكثير من التفاصيل في صدق وجرأة، ولا يتردد في إبداء رأيه حتى في مسائل قد تبدو بسيطة لكثيرين، ففي أحد المرات مثلاً ناقش الطريقة التي تقدم بها فقرة الكلمات المتقاطعة، ووجوب تطويرها من كلمات مكررة ومعلومات متداولة تقتصر على تمضية الوقت والتسلية فقط إلى جعل المحتوى يرتقي بالقارئ ويحترم عقله فيقدم له بعض التحديات المعرفية والعلمية التي تشغل فكره وتخلف فائدة، وأبواب أخرى اقترح أن تستند إلى أرشيف من الصور القديمة، ومسابقات متعددة، منها أفضل قصة قصيرة مترجمة، وأفضل فكرة ليوم تطوعي بيئي أسبوعي، وأفضل رسم تشكيلي وكاريكاتوري وصورة ملتقطة، وغير ذلك كثير من طروحات فاعلة لم ينجز أغلبها بالطبع لاعتبارات مختلفة.

يتألف القسم الثقافي من سبعة أشخاص يرأسهم الدكتور "عبد الجليل نشأت" وأربعة كتاب هم "أيوب الدامري"، "منقذ عابدين"، "أسامة حاتم"، "خليل شملان"، إضافة إلى محررة شؤون المجتمع "راغدة جابر"، ومشرفة ترجمة المواد الأجنبية "شهد جوبان".

في صباحات أيام الخميس تحديداً اعتاد الزملاء والزميلات في القسم الثقافي أن يتشاركوا إفطاراً جماعياً خفيفاً، يتألف من الشاي أو القهوة وقطع الـ"كرواسان" أحياناً، وبعض المعجنات

الأخرى كشطائر اللحم وفطائر الجبن أو الزعتر والسبانخ في أحيان أخرى، حيث تمضي الدقائق في أجواء من المرح والدعابة تثار خلالها مواضيع لطيفة قد تتطور إلى نقاشات جدية عميقة يتشارك بها زملاء القسم جميعاً، كانت الغاية من ذلك توثيق عرى المودة والصداقة والتأكيد على روح العمل كفريق واحد متفاهم متماسك، وفي صباح منها يتشعب الحديث ليتطرق إلى التعريف الأقرب للإنسانية، كيف يجده كل واحد منهم، كانت "شهد" هي التي أثارت الموضوع عندما قدم لها "خليل" أثناء فترة الإفطار شطيرة من اللحم، فاعتذرت عن تناولها بطريقة تجاوزت الرفض إلى ما يشبه الاستنكار، وأتبعت رفضها بتبرير فوري لخشيتها من أن يفهم تصرفها على أنه موجه لشخص "خليل" لا لعلة كونها نباتيَّة لا تقرب كل ما هو حيواني، فهي ترى وحشية في تصرف غالبية البشر ممن يقترفون آثام كتلك في العدوان على تلك المخلوقات المسالمة التي لا تضرهم بشيء، ولا ذنب لها سوى أنها تفتقر إلى وسائل الدفاع عن نفسها، فما كان منها بعد اعتذارها إلا أن تناولت بدلاً عن ذلك فطيرة محشوة بالسبانخ!

وضع "خليل" شطيرة اللحم من يده، وسألها مبتسماً:

- هل كنتِ نباتيَّة كل الوقت، أم طرأ حادث جعلك كذلك؟

لاحظ بشكل خاطف تعبيراً يرتسم على وجه "أسامة" الذي كان مقابلاً له وكأنه يطلب منه أن يكفّ، لكن الفتاة استرسلت لتجيبه بثقة وهدوء:

- لم أكن في صغري على بيّنة من الأمر، فخضت فيما

يخوض الناس من حولي، بداية بأسرتي والمحيط الأقرب، كنا جميعاً نتناول أنواعاً مختلفة من الطعام ومنها اللحوم بالطبع، لكني تنبهت للأمر في العشرين من عمري تقريباً وقررت التوقف تماماً عن هذا الانحدار.

- لكن لا بد من حدوث أمر خلق ذلك الفاصل.

- لم يعد الأمر مقتصراً على تصرف بعينه، فهي أمور كثيرة، قد يكون اجتماعها بمرور الوقت تسبب في ذلك، لكني ما أزال أذكر حادثة بعينها تشرح جانباً من العدوان الذي أعنيه.

تدخلت "راغدة" فجأة في الحوار الدائر لتسأل:

- هل تعنين أنها حادثة تتعلق بذبح البهائم وغيرها مما يؤكل من لحوم؟

- لا، ليس ذلك بالتحديد، مع أني لا أتمنى بأي حال أن أسترجع تلك الصور، ولكن قد يكون في ذكرها ما يشرح أسبابي.

سادت لحظة من الصمت هدأت فيها حركة الأيادي التي تتناول الطعام وخفت صوت مضغ الأفواه لتسألها "راغدة" بتشوق أن تسرد عليهم فحوى تلك الحادثة، فتكلمت "شهد" بنبرة بدت رتيبة حزينة:

- أثناء فترة دراستي في جامعة "دورهام" شمال "إنكلترا" كنت أقيم في بيت خالتي التي كانت تعيش وحيدة في قرية "براندن" القريبة، كان البيت عبارة عن كوخ صغير من طابقين خصصت لي غرفة في الطابق العلوي منه، حيث كنت أرى من مكاني خلف نافذتي مساحة خضراء كبيرة وبعض بيوت الجوار، كانت

الحركة هادئة في القرية، أما في الأيام التي توزع فيها الشمس دفئاً حانياً يثير النشاط في المكان فيحرص فيها بعض السكان على زيارة المدينة وقضاء الوقت بشيء من المتعة والتسلية، وفي واحد من تلك الأيام المشرقة تشاء الصدفة أن أنظر من خلال النافذة فأجد غير بعيد عني وفي حديقة خلفية لبيت من بيوت الجوار شاباً ربما في العشرين من عمره، يمسك شيئاً بيديه لم أستطع تبيّنه، لكني تعرفته بعد أن وضعه على الأرض ورأيته يتحرك، تأكدت عندها أنها سلحفاة، كانت تحركاته تثير الريبة، فلقد كان يستطلع في كل مدة بيت جيرانه الذي كان يفصله عنهم سور خشبيّ بين حديقة المنزلين والمحيط من حوله، فجأة دخل منزله وغاب لبرهة ثم عاد يحمل بين يديه سلكا معدنياً، اقترب من السلحفاة ثم رأيته يربط قدماً من أقدامها الأربعة بالسلك ثم أخذ يلوح بها بشكل دائري مخيف وفي كل مرة يضرب بدرقتها الأرض وحائط المنزل، وهي تخبئ رأسها ضمن قوقعتها، لكنه لم يتوقف عند ذلك، فأحضر مطرقة وإزميلاً وانهال على ظهرها ليهشم الدرع ويجبرها أن تخرج رأسها، ثمّ ليخنقها بعد ذلك بالسلك المعدني ويتابع تعذيبها، حتى لوث المكان بجريمته، وعلى حين غفلة مني تحركت ستارة النافذة فلمحني ورفع رأسه فجأة ناحيتي، وعندما أحس بوجودي واستقر في ظنه أني شهدت فصول ما جنت مخالبه، رمقني بنظرة جامدة لا تعكس أي انطباع، لم تكن نظرة إنسان سويّ أبداً، فلم أبارح مكاني في تحدٍّ وغضب، ثم وجدته يحضر كيساً بلاستيكياً وضع فيه أشلاء السلحفاة التي

مزقها بدموية وسادية بشعة، سار بهدوء ليركب دراجته النارية وقد غيَّب الكيس داخل حقيبة وضعها خلف ظهره، ثم انطلق بعيداً. منذ ذلك اليوم، بت أراقب وأتفكر في كيفية استسلام الخراف والعجول والدواجن وغيرها لسكاكين بني البشر، فعافت نفسي كل أنواع اللحوم، وكانت لحظة فارقة عندما مررت بمطعم للوجبات السريعة وابتعت شطيرة من لحم العجل، بعد أول قضمة استذكرت المنظر القبيح، فكأنني أنظر إلى عيني العجل الصغير تخرج من بين دفتي الشطيرة تقرعاني في لوم كيف أفعل، وكيف أقضم مخلوقاً لا نكتفي فقط بقتله، بس نقطعه ونشويه ونأكله، لفظت اللقمة من فمي في الكيس نفسه، ثم اتجهت إلى أقرب حاوية قمامة في محاولة للتكفير عن ذنبي وغسل يدي من الإثم.

ندَّت عن الحاضرين تعابير صوتية تنوعت ما بين صفير مستنكر لفظاعة الفعل، وهينمة خفية شاجبة، ومفردات تجاوز بعضها التنديد، كما عبَّرت "راغدة" بطريقتها التي ترى بأن تصرفات كتلك لا تخرج إلا عن مسٍّ شيطاني ملعون، أما "أيُّوب الدامريّ" فرفض بلباقة رأيها القائل بإجرام من يتناولون اللحوم، في الوقت نفسه الذي استنكر فيه أيضاً ما اقترفه المعتوه في حق السلحفاة وقتلها بتلك الطريقة الشاذة، فعقب على ذلك بقوله:

– في تلك الحالة فأنت تصنفين الغالبية العظمى منا كمجتمع يعتمد على اللحوم كوجبة أولى في غذائه على أنه مجتمع متعطش لسفك الدماء؟

– لا أقصد مجتمعاً بعينه، أنا أتحدث عن شعوري تجاه

المسألة، قد تختلف طريقة التعبير فأرجو ألا تأخذها بحرفيتها، كلنا نعلم طيبة قلبك يا أستاذ "أيوب" ولا نشك في كرم أخلاقك والكثيرين، لكن كما قلت لك، أحياناً تدفعنا بعض الحالات النفسية التي مررنا بها إلى صياغة مفردات تصرخ بحدتها رفضاً ولا تطعن في خُلُقٍ كريم.

هي تحترمهم حقاً ولا ترغب بالتأكيد أن يُفهم كلامها بشكل مغلوط، فسارعت إلى تبديد ذلك المُناخ من التوتر عبر المزاح متوجهة بالكلام إلى "أيُّوب" وهو مُحرر صحفيّ "سوداني" في منتصف عقده الخامس، تمتاز كتاباته بتمرير رسائل إنسانية راقية في مضمونها ضمن نفحات من السخرية والمرح:

- أليس من الحكمة بمكان لو امتنعتم عن تناول اللحوم لشهر أو شهرين، أقلها كي تتاح الفرصة لزيادة الثروة الحيوانية وإراحة الأبدان من أخطار الـ"كوليسترول" وتصلب الشرايين وانسداد الأوعية وضغط الدم والسمنة والسكري وغيرها كثير.

فبادرها "أيُّوب" بضحكة تترجم صفاء قلبه وتفهمه لطريقتها في تحجيم النقاش وترطيب الأجواء ليرد عليها:

- عليك في تلك الحالة أن تقنعي سيدات "السودان" بالامتناع عن دعم كروش رجالهن بما لذ وطاب من أطباق "الأقاشي" و"شية السلات" و"الجقاجق" وغيرها من مذاقات كتب خيارك النباتي عليك حرمان التنعم بها.

عندها أدلى "منقذ عابدين" بدلوه من خلال تساؤل طرحه ليعيد التوازن إلى النقاش قائلاً:

– وما رأيك بما يعدّ الأسد لنفسه ولأشباله من ولائم طعام لا تكون إلا بافتراسه وقتله للغزلان والجواميس والحُمُر الوحشيَّة؟

فأجابته دون تردد وكأنها اعتادت تلقي أسئلة من هذا القبيل بخط أحيا مناخ الجدية في الحوار:

– الأسد والنمر والضباع وكل ذوات المخلب لها العذر فيما تقدم عليه كونها تتبع غريزة تحكم أفعالها، والأهم أنه لا بديل غذائي لها تسلكه، أما الإنسان فله عقل وله خيار أن يحيا باتخاذه النبات غذاءً، دون الخوض في تناول الدماء.

– إن كان كذلك فيجب أن نحاسب النمل الذي يأكلنا، والجراثيم التي تفتك بنا، والسرطانات التي تقتلنا، وكل ما يتبع السلسلة الحياتية من عناكب وعقارب وثعابين وتماسيح وقرود، وحتى بعض النباتات التي تتغذى على الحشرات والكثير من الطفيليات، بل وحتى النجوم التي تبتلع ما حولها، والمجرات الكبرى التي تلتهم مثيلاتها الصغرى، وكل ذلك الكون العدواني!

– يبدو أنك تصر على تتبع تلك الجوانب المعتمة من كل الأقمار؟

– لا يا سيدتي، ولكن يجب أن نتكيف مع ما هو ثابت من فطرة، فالعالم ما هو كائن، لا ما نتمناه أن يكون.

– مع ذلك فلا بد أن أوضح بأن الأمر بدا تصاعدياً ولم يقتصر على تلك الحادثة فقط، كنتُ أتابع تقلبات نفسي، فأتصور الأمر يشبه اللقمة لأكلة شهية تستطعمها وهي في فمك، لكن لو لفظتها عرَضاً، لما استساغها بصرك مرة أخرى، ولعافتها

نفسك، مع أنك كنت تلوكها متلذذاً، فالسر يكمن في العين وتآلف الأحاسيس، وكذلك للتعوّد والذكرى مكان، ذلك أنَّ مَن تعوَّد القذارة مثلاً، وانطبعت صورها في ذاكرته منذ صغره، وتطامنت نفسه بمرور الوقت على التعايش ضمن بيئة تسعى فيها الصراصير والحشرات ليلاً في مطبخه وفوق جدران بيته وداخل أثاثه وربما فوق فمه أثناء نومه وهو غير مكترث، سيجعله يستغرب قرفك من رؤية صرصار أو عند رمي قمامة أو كل أشكال الوخم في غير أماكنها!

هل يعلم المرء لو تناول ما يرى أنها وجبة من لحم مشوي ما هو نوعه أو جنسه، بقريّاً كان، بشريّاً، بغليّاً، أو حتى حماريّاً؟ بالطبع لا، فتعويد النفس على استباق الاعتقاد الحسن تُقصي عنك تلك التصوّرات.

وبالمناسبة، فأنا أنصح بألا تأمنّن لطعام تأكله في سوق، فقد تستعدي نادلاً أو طباخاً أو مديراً للمكان، فيوعز أن تدعم وجبتك بشيء من مخلفاته دون أن تدري، حتى وإن كانت كل النجوم تزين بوابة الصرح العظيم الذي تقضي فيه وقتك الثمين! فاحذر في تعاملك مع الناس، إن لم يكن انطلاقاً من خلق كريم، فأقلها درءاً لما تعافه نفسك من عقاب خفيٍّ قد يُكتب عليك.

كان "خليل" في تلك الأثناء يُعمل الفكر في كلامها، هو يرفض تماماً إجرام قاتل السلحفاة، لكنه تساءل في نفسه تتنازعه الأهواء ما بين استفهام واستنكار، تقول إنها نباتيَّة، لا تستطيع أن تفهم العدوانية التي يتصف بها أغلب البشر في أكلهم لحوم

الحيوانات، وهي تعذر الوحوش لغريزة تبرّر تصرفاتها، لكن دفاعها عن حقوق الدجاج والمواشي في الحياة وجريمة ذبحها، لم تمنعها أن تتناول فطيرة السبانخ وقد طُليَ ظاهر عجينتها بسائل مكون من محتوى بيض الدجاج كما أعلم، فلو استندنا إلى قياسها هذا، ألا تتساوى البيضة بالنسبة لدجاجة مع الجنين بالنسبة لأم بشرية؟ ما بالها لم تبد عناء يدفعها لخلع الحذاء الذي تنتعله، والمشغول من أبقار سلخت جلودها لأجل راحة قدميها، أو استبدال حقيبة يدها الجلدية بأخرى لم تنغرس إبرة جرت خيوطها لتستقر في مادة لكائن حي قتل لحفظ مستلزماتها النسائية، ولا أن تغوص في جلستها المريحة في كرسيّ سيارتها الوثير المصنوع من جلد الجاموس الفاخر المنحور بمدية لا ترضاها، إني أثق بصدق نواياها، ولا أظنه نفاقاً تستند إليه أو ازدواجية في المعايير، لكنها على درجة من براءة تجعلها بعيدة عن استكشاف مجاهل كثيرة ستتعبها.

كانت "شهد" لبنانيَّة الأصل، في الثامنة والعشرين من عمرها، تتميز بملامح أوروبية من شعر طويل وعينين زرقاوين وفم ناعم بشفتين ورديتين، تُعدُّ طويلة بين النساء، مع بشرة بيضاء من غير سوء، وقوام رشيق يليق بحسناء مثلها، تحمل شهادة بكالوريوس في اللغة الإنكليزية من جامعة "دورهام" في المملكة المتحدة، حيث كان يعمل والدها الدكتور "أدهم جوبان" مُعداً للبرامج في القسم العربي من هيئة الإذاعة البريطانية، فتعرف إلى والدتها الإيرلندية التي كانت تعمل طبيبة أبحاث

سرطانية في مشفى "ذي رويال مارسدن" في "لندن" لتتوج قصة الحب بينهما بزواج أثمر عن "شهد" طفلة يشاء القدر أن تبتلى أمها بعد ثمان سنوات من حياة كانت تضج سعادة بسرطان الثدي الذي يتم تشخيصه، ويا للمفارقة، في المشفى الذي تعمل هي نفسها فيه، فترحل مخلفة وراءها حزناً ثقيلاً وتركة صعبة أدخلت الأب في دوامة حزن عميق، ليقرر بعدها مغادرة البلاد مع ابنته إلى دولة "الإمارات" للعمل كأستاذ محاضر في الجامعة الأمريكية في "دبي"، كانت "شهد" نادراً ما تقضي بضعة أيام من إجازاتها الصيفية في "لبنان" أما الفترة الأطول ففي "براندن" القرية الإنكليزية الهادئة الوديعة حيث تقطن خالتها التي تحبها بل والتي تحمل الكثير من ملامحها، والتي كانت ترى فيها قطعة جميلة من شقيقتها الراحلة ما فتئت تذكرها بها، وهي التي رعتها واستضافتها فترة دراستها الجامعية كلها، مع العلم بأن والدها لم يتأخر أبداً في الإنفاق عليها ومساعدة خالتها كذلك فيما يلزم من مصاريف كان يرسلها بشكل منتظم.

مرت منذ سنتين بتجربة زواج فاشلة لم تستمر لأكثر من أربعة أشهر انفصلت بعدها عن الرجل الذي أخطأت في استكشافه، كانت تعتبر تلك التجربة ثمناً دفعته من حياتها غير نادمة ولا آسفة، خاصة أنها تريثت في مسألة الإنجاب بعد أن توجست خيفة لما تكشف لها من عيوب طباعه في الأيام الأولى للزواج، فمن توسمت فيه وداعة الحملان كشر عن أنياب الغيلان، فقد كان يعاني من غيرة مرضيَّة ترقى إلى درجة

الوساوس، أما المشكلة الأكبر التي كانت تؤرقه فهي تتمثل في عملها الذي طالبها بتركه، لكنها كانت تصر بشدة على الرفض وبشكل قاطع، بل وأخبرته بصراحتها المعهودة عنها أنها لم تعد تكنّ له أية ذرة من مودة ولا احترام، وطالبته بأن يسرحها بإحسان وسوف تتنازل له عن كل حقوقها بدلاً من أن تلجأ للقضاء، لذا لم يكن بدٌّ من الطلاق، فهدأت نفسها بعد خلاصها من ذلك الكابوس الغليظ دون أن تبقي على أي شيء يربطها بمن أفسد عليها حريتها لفترة تتمنى أن تُحذف من تاريخ حياتها.

(الفصل الخامس)

كأنها مسافة بين الأرض والقمر، لم تستطع أن تُحصي عدد المرات التي نظرت فيها "لبنى" لساعة يدها وهي تجلس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، للمرة الأولى خُيِّلَ إليها أن المسافة اليوم أكثر بعداً من أي مرة اعتادتها بين مبنى الجامعة وبيت أهل زوجها، إنها ألعاب الزمن لا أكثر، وما أحدث ذلك سوى لهفتها وفرط سعادتها بل وتعجلها أيضاً كي تزف إلى أهل المنزل بشرى تخرجها وحصولها على الشهادة الجامعية بجدارة، أفٍّ لعقارب الساعة تلك قد كبلتها قيود الكسل، لكنها تصل في نهاية المطاف قرب المبنى وتنفح السائق إكراميَّة إضافية فوق أجره، تصعد الدرجات بسرعة تُحرِّكها طاقة الغبطة، تضرب جرس البيت في الوقت نفسه الذي تستخدم فيه المفتاح، لكنها أرادت بذلك أن تستدعي انتباه مَن في الداخل، استقبلتها "وصال" بقبلات التهنئة ودموع الفرح، وكذلك فعلت حماتها السيدة "عنايت" التي ضمتها إلى صدرها بحب ورحمة، كانت تكرر من بين دموعها خلاصة مشقة وصبر سنوات مضنية، لقد تخرجتُ يا "ماما"، تخرجتُ يا "وصال" وكأنها غير مصدقة، فتجيبها حماتها بحب، لن يضيع الله لك تعباً يا بنتي، حق لك أن تفرحي، إن الفرج يأتي بعد الشدة، الحمد لله الذي أسعدني بك. عادت "وصال" وهي تمسك بيد "سيرين" التي بدأت تتعلم المشي منذ فترة قريبة، ثم وضعتها

وسط الصالة وهي تضحك من مشيتها، لتحملها "لبنى" وتضمها إليها وهي تقبلها، ومن بين الدموع كانت تردد، "ماما"، تخرجت يا حبيبتي، وسوف نسافر عند "بابا".

أثناء فترة استراحة "زاهد" بُعيدَ العصر في المنزل وعلمه بخبر تخرجها واقتراب موعد سفرها لم تخرج من فمه سوى عبارة "حسناً فعلتِ"، لم تكن تلك العبارة في الحقيقة وليدة طيب خلق أو لباقة منه، لكن نفسه اطمأنت بعض الشيء لما كان يظنه رقابة سيتخلص منها بسفرها، مع العلم أنها لم تكن تتدخل بشؤون عمله سوى أنها في بعض الأحيان تطرح استفسارات لم تكن سيئة النية بالطبع تتعلق بمتابعة تسديد الديون، مدفوعة بحب الاطمئنان إلى حال الأسرة وحتى حجم المسؤولية الملقاة على عاتق زوجها كشريك في ذلك، والوقت المتبقي للخروج من تلك الضائقة، فتعمل على صياغة كلامها في قالب من الدعاء كأن تقول: "أسأل الله أن يكون لإيراد المطعم وما يرسل "خليل" من دفعات خير العون في تقليص حجم الديون" غير أن ردوده كانت تأتي جافة خشنة وجارحة أحياناً للدرجة التي كانت تستدعي تدخل حماتها وحتى "وصال" كي تصدان عنها. لقد كان يرى أنه لا حق لها في التدخل في الشؤون المالية للعائلة فقال لها مرة: "أتمنى ألا يحملك اعتقاد بأن ما قام به والدي من نقل صوريّ لممتلكات العائلة وتسجيلها باسمك يخولك التصرف كمالكة لها بالفعل". كانت طعنة نجلاء نفذت لأعماق قلبها لكن لسانها تحرك بكلمتين اثنتين لا غير: "سامحك الله"، ثم انسلت إلى

غرفتها بصمت وهي مغرورقة العينين، تمسك يد ابنتها تجرها خلفها بانكسار، لتغلق عليهما بابها بهدوء، فلم يكن من حماتها إلا أن ردت عليه وقد أخذ منها الغضب مأخذاً: "عيب عليك، بل هو والله العار بعينه، كيف تقول ذلك لتقيَّة نقيَّة طاهرة صابرة مثلها، ما بال الدنيا قد أخذت بتلابيب عقلك فأذهبت رشاده، كيف حلَّ الشيطان لينفث في صدرك زينة زائفة وحرصاً مُشيناً وظلماً لا يجوز؟ مع ذلك، فهو في أعماقه لم يكن ليملأ جوفه بشبهة مال حرام، غير أنَّ تكوين شخصيته جعل جنوحه لعجلة في الأحكام، وبطش لسان، وسوء تقدير، تورث جميعها ندامة عند خلواته، ليقرِّع نفسه بعدها على عواصف تهبُّ فلا يأمن خلالها من جريرة أفعاله وما تُلحق من تبكيت ضمير، وهو لم يعتد أن يجهر باعتذار لما يعتقده ضعفاً في ذلك إلا فيما ندر، لكن أمه كانت أكثر الناس دراية به، وهي تعلم حبه واحترامه لها وخشيته من خسران رضاها، فلا تلجأ إلى التمثُّل بأدواته إلا ساعة ترى حكمة في الدفع إلى الحد الأقصى من الرد.

وعن "وصال" تلك الفتاة المُهادنة الناعمة، والتي أودع الله في فؤادها قلباً يخفق حناناً وعقلاً امتلأ بسُنن السلام وشفافية تتقدم الأحلام في خفتها فتسكن سُدُم السماء كنجمة فيروزية السناء، لقد أحبت "لبنى" بكل بساطة وعفوية ووثقت بها، واتخذتها صديقة مقربة تشاركها الأحاديث والرؤى، فلم تكن ترى في عدد السنوات القليلة التي تكبرها بها ما يمكن أن يشكل فارقاً قد يُحدث هوّة في فهم كل واحدة منهما للأخرى، حتى عندما استطاع شاب من

الجوار أن يلفت نظرها إليه ومن بعد ذلك قلبها، ضاق صدرها بعظيم سرِّهِ لتبوح بمكنونه إلى زوجة أخيها التي ميَّزت فيها أفقاً بعيداً ونظرة إنسانية واعية وفهماً مختلفاً عن نساء محيطها الأقرب، كيف لا وقد وجدت في ذكاء "لبنى" المُتقد ومطالعاتها المتخصصة في الشعر والأدب وسحر حضورها الآسر ضالتها المنشودة كي تأتمنها على ترانيم القلوب. هو شاب في مثل سنها كما أخبرتها، على قدر كبير من الوسامة والرجولة، يدير متجراً متوسطاً لبيع الطلاء وأدواته، زارها أكثر من مرة في مكان عملها بذرائع مختلفة، كشراء معقمات أو أدوية للصداع وما شابه ذلك من حاجيات بسيطة تتيح له إمكانية للتواصل، وذلك ما تمَّ بالفعل قبل عدة أسابيع من بيع الصيدلية التي كانت على الطرف المقابل لمتجره، فقرَّبت الأحاديث الهاتفية بينهما، كما اختزلت المسافات وحرقت المراحل، لكنه عندما عقد العزم على التقدم لخطبتها سألته أن يتريث قليلاً وذلك لأسباب متعددة، أبدت الظاهر منها والمتعلق بالأزمة التي حلت بالأسرة، بينما أضمرت السبب الآخر الذي كانت ستمهد له عن طريق أمها، لكنها لم تخفه حينها عن "لبنى" التي أسدت إليها بكل نُصح ومشورة، فبينما تحمل هي شهادة من كلية الصيدلة، اكتفى هو بشهادة الدراسة الثانوية ولم يتابع تعليمه بعدها، حيث التحق بمتجر أبيه الذي لم يعترض على قراره بترك الدراسة، فهو ابنه الوحيد ويرى مصلحته في أن يسلمه في حياته كل الأمور المتعلقة بالبيع والشراء وتفاصيل الصنعة وإدارتها وهذا ما كان، فبعد مرور

أعوام قليلة اطمأن الأب خلالها إلى فطنة ومهارة ولده، أصبحت زياراته إلى المتجر تقتصر على ساعة أو حولها عند كل صباح، يتناول فيها فنجان قهوة بينما يتابع ابنه "مُناف" بعين الحب والرضا وهو يدير الأعمال بحرفية عالية حازت على احترام الكثيرين، فلقد زاد النشاط وتوسعت الأعمال مما دفعه إلى أن يعرض على أبيه فكرة شراء المحل المجاور والذي كان حانوتاً شبه مغلق لتصليح العجلات الهوائية، فوافق صاحبه بعد عرضٍ مغرٍ، وبذلك بات في مقدوره أن يستورد مواد إضافية وكميات أكبر يخزنها في المستودع الجديد. كانت "وصال" تخشى من تلك العقبة الكأداء أن تقف حائلاً دون بلوغ الأرب، لكن "لبنى" سرَّت عنها وغذت نفسها بأسباب التفاؤل، وذكّرتها بأمثلة كثيرة تم تجاوز تلك المعضلة فيها، بل أكدت لها أن المزايا التي تشكل جوانب تؤسس إلى قبول أهلها كثيرة، فما أجمل أن يأكل الرجل من كسب يمينه وعرق جبينه، وألا يكون عالة على أحد، فكيف به وهو وحيد أبويه يدير أعمال أسرته، ويبتغي دخول البيوت من أبوابها، أليسَ هو مَن عرض عليها زيارة أهله لخطبتها؟ وقبل كل شيء وهو الأكثر أهمية أنه يحبها كما تحبه. ثم تشاء أقدار الله أن تضرب الأحزان بأوتادها وتنتصب سُرادقات الأسى، فيخطف الموت الأب، وتُكتب الهجرة على الشقيق، وتنهك الأمراض جسد الأم، وكأن ذلك كله تآمر على اقتناص السعادة، فأصبح من الواجب على "وصال" أن تنتظر مرور سنة على أقل تقدير اتباعاً للعرف السائد واحتراماً لذكرى وفاة والدها.

انقضت سنة وزاد عليها شهر أيضاً مذ غادر "خليل"، ها هي ذي بوادر "أكتوبر" قد حلت، وكأن الزمن يعيد نفسه بتفاصيل متشابهة وبعض الرتوش التي لم تغير الكثير، فطريق مطار "دمشق" بأشجاره وبُسطه الخضر على جانبيه، والتوقيت الصباحي لموعد الطائرة كذلك، خلا برودة خريفيَّة لذيذة منعشة سادت الأجواء، والسيارة هي نفسها، لكن هذه المرة تجلس "وصال" عوضاً عن أخيها في المقعد الأمامي، أما "لبنى" وابنتها ففي المقعد الخلفي، وهذا "زاهد" يقودها وهو منفرج الأسارير على غير عادته، كان رائق المزاج يلاطف الصغيرة "سيرين"، بدا ودوداً ليناً في كلماته مع أمها، ذلك أن السيدة "عنايت" أوصته وأقسمت عليه أن يترفق بزوجة أخيه وطفلتها خاصة أنها راحلة، فحريٌّ به ومن باب الذوق والكياسة أن يجعل الأوقات الأخيرة عامرة بوشائج صلة الأرحام، فكان كما أرادت ليس امتثالاً لوصيتها فقط، وإنما لرقَّةٍ لامست قلبه بالفعل حين رأى "لبنى" عند لحظات الوداع تضم أخته "وصال" بحب خالص إلى صدرها وهي توصيها من بين الدموع العناية بأمها وبنفسها، فدعا لها بصدق أن يرعاها الله ويحالفها التوفيق والسعادة، وحمَّلها كذلك السلام لأخيه.

خرج "خليل" من عمله عند الثانية ظهراً متجهاً بسيارته صوب مطار "دُبي" الدولي، كان موعد وصول الطائرة عند الثالثة إلا ربعاً، وستنقضي نصف ساعة في إنهاء إجراءات مراقبة جوازات السفر والتحقق من تأشيرات الزيارة والدخول واستلام

الحقائب، مرت دقائق ثقيلة كان يتفحص فيها كل من يلج بوابة الوصول، يركز بحثه على الخصوص في كل امرأة وطفلة، وأخيراً تغمره سعادة بالغة يرتعش لها قلبه عندما رآها وقد لاحت له من بعيد تتقدمها عربة الحقائب تدفعها أمامها، تراعي مشية "سيرين" بجانبها، وما إن رأته حتى تسارعت خطواتها، فأقبلت إليه وأقبل إليها، ليضمها بشوق مرحباً بها وبالطفلة التي حملها بين ذراعيه بحبور ثم قربها إلى وجهه وهو يغرقها بالقبل، لكنها بادرته ببكاء واستنكار تبدى في ركلها له بقدميها ومحاولة التملص والهروب من قبضة هذا الغريب، فأخذت أمها تضحك وهي تذكرها في محاولة لإفهامها الأمر بأن "هذا بابا يا حبيبتي" لا تخافي، وهو كذلك كان يفعل ويكرر عليها القول نفسه، وما إن هدأت حتى ركبوا السيارة جميعاً، سألها قبل كل شيء عن صحة أمه فطمأنته بأنها تتحسن تدريجياً وتدعو له على الدوام، ونقلت له تحية "زاهد" و"وصال" واشتياقهم جميعاً إليه، فتمنى لهم الخير وأخبرها بشكل موجز عن عمله والتقدم المطّرد فيه، وكان قد ذكر لها في المرة الأخيرة عبر الهاتف أنه انتقل إلى شقة جديدة تتألف من غرفتي نوم وصالة، قام بتأثيثها بكل الأساسيات، كما ابتاع هذه السيارة المستعملة بمبلغ معقول.

الوجبة الأولى لهم لن تكون في المنزل كما أخبرها، لقد اتخذ من هذا اليوم مناسبة للاحتفال فعرض عليها تناول الغداء في أحد المطاعم الشهيرة في شارع الشاطئ قرب منطقة "الجُميرا" من بعد جولة سريعة في المدينة.

لَشدَّ ما أثار دهشتها وحاز على إعجابها وهم في طريقهم من مبنى المطار باتجاه منطقة "برّ دُبي" ما رأته من أساليب بناء مدهشة في تنوعها، وذلك التنسيق والتنظيم العمراني الذي تتصف به المرافق العامة والبنى التحتية للبلد، من طرقات واسعة ذات جودة عالية وأنفاق وجسور حديثة تخالها شرايين وأوردة تحمل الحياة للمدينة، والكثير من المُسطحات العُشبيَّة المُشذَّبة، قد ازدانت بمختلف الورود الزاهية تثير متعة الناظرين، كما تتوزع أشجار السدر والغاف والنخيل وغيرها من أشجار البيئة المَحلّيَّة فوق رقع ممتدة كثيرة، لتضفي ملمحاً جمالياً وتراثياً يُعنونِ طبيعة المنطقة.

بدا "خليل" حينها وكأنه مُرشد سياحيّ، يحاول أن يشرح لها على عُجالة المعالم الرئيسة التي يمرون بها، كما كان يجيب على تساؤلاتها التي تطرحها بين الفينة والأخرى. عبرت السيارة بهم فوق جسر "القرهود" لتشاهد إلى يمينها منظراً بهيّاً ساحراً لانعكاس أشعة شمس الأصيل فوق صفحة مياه "الخور" وقد ارتفعت في الأفق الممتد ناحية الغرب والجنوب الغربي العديد من الأبراج السكنية والتجارية الشاهقة بواجهاتها الزجاجية الملونة وكأنها ألعاب تصنع أحزمة من نور.

بعد تناول وجبة غداء متأخر كانت أقرب للعشاء، وعودتهم إلى مدينة "الشارقة" عند التاسعة مساءً، توقف المصعد بهم عند الطابق الخامس لمبنى يتألف من ثمانية طوابق، قرأت الرقم المكتوب على باب الشقة، "خمسمئة وثلاثة"، راجعت الرقم

وكررته كي تحفظه فيما بعد، دلفت بقدميها متلهفة وقد تيقظت كل حواسها كي تبصم من خلال عبورها عتبة المنزل على أوراق مرحلة مجهولة أخرى من حياتها، جالت تستكشف كل جزء في المكان وكل زاوية، فقارنت دون شعور منها بين غرف بيت جدها الكبيرة في مدينتها، وحتى بيت أهل زوجها وبين مساحة هذه الشقة، وبين المطبخ الرحيب هناك وهذا المطبخ الصغير المتواضع ونافذته التي تطل على منور البناء الداخلي، لكنها حمدت الله بصوت مسموع وأثنت مع ابتسامة امتنان على جهد زوجها وحسن اختياره ورفيع ذوقه في تجهيز البيت بما يلزم، فصالة المنزل تضم طقماً للجلوس، وقد وُضعت في الزاوية اليسرى منها بعد ردهة الدخول طاولة للطعام وستة كراسي، كما تنتهي الصالة بشرفة تطل على حديقة "المجاز"، أما غرفة نومهما فتشتمل إلى جانب سريرهما على سرير آخر للطفلة، أحيط ببعض الألعاب والعرائس بلونها الأبيض والوردي، ونافذة متوسطة أسدلت عليها ستائر بلون عاجيّ، بينما احتوت الغرفة الأخرى على سرير نوم وخزانة، إضافة إلى طاولة مكتب مُجهزة بمصباح متحرك، وقرطاسية مختلفة مما يلزم الكتابة، وجهاز حاسوب مع ملحقاته.

عندما كان موعد وصولها اليوم الأربعاء فقد تقدم بإجازة قصيرة يعاود دوامه بعدها يوم الأحد القادم، لذا لم يعبأ لتسرب الوقت أو يضعه في الحسبان كما هو حاله كل يوم، لتمتد السهرة بهما بعد نوم الطفلة في سريرها حتى ساعة متأخرة، حرصت

خلالها أن تنصت إلى كل كلمة من زوجها كمثل حرصه على الاستماع إليها تحكي عن كل التفاصيل التي استجدت منذ ساعة سفره وحتى لحظة مغادرتها. يبقى الجدار الأكبر الذي ما يزال بحاجة أن يُقام قبل أن ينقض متمثلاً في الديون التي أبرم لأجل سدادها ما يشبه التوافق مع أصحابها أو مَن تبقى منهم، على أن يتم ذلك بصيغة أقساط شهرية، وهذا ما تحقق بشكل منتظم خلال سنة فاتت، وهو الأمر الذي شكل مصداقية رمَّمت ما اختل من دعائم الثقة فهدأت الخواطر، واطمأنت الأنفس، وحلَّت هُدنة، لكن مع ذلك، فلا بُدَّ من محاولة ضغط المُدَّة الزمنيَّة قدر المستطاع من أجل التفرغ لمتابعة الحياة الشخصية لجميع أفراد الأسرة دون مُنغصات.

ستباشر "لبنى" عملها مطلع شهر "نوفمبر" المقبل كمعلمة في مدرسة خاصة في مدينة "الشارقة"، تتكون المدرسة من قسم لمرحلة الحضانة وقسم آخر للمرحلة الابتدائية، كان "خليل" يتحدث عرَضاً مع صديقه "أسامة" في المكتب عن قرب حضور أسرته، وعن محاولة إيجاد فرصة عمل لزوجته التي تحمل شهادة جامعية، فاقترح عليه "أسامة" أن تبدأ بعمل ولو كان أقل مما يليق بمستوى تعليمها كمرحلة تمهيدية تكتسب خلالها معرفة بالبلد وخبرة بظروف العمل، فزوجة أخيه تعمل مشرفة اجتماعية في مدرسة خاصة تمتلكها سيدة سورية، وسوف يطرح عليها الأمر للمساعدة والتزكية، فإن رغب ووافقت زوجته على ذلك فعليها أن ترسل سيرتها الذاتية ونسخاً عن شهادة التخرج الجامعي كي

تعرضها على الإدارة من أجل دراستها وإبداء الرأي، وهذا ما كان، ففي الصباح سوف تذهب "لبنى" برفقة "خليل" للتعرف إلى المدرسة ومقابلة مالكتها التي أعطت موافقتها الشفهية منذ فترة قريبة بانتظار قدومها والتفاهم على بقية الأمور والإجراءات المتعلقة بعملها، خاصة أن الموسم الدراسي كان قد بدأ منذ شهرين.

استقبلت السيدة "أروى" وهي مالكة المدرسة "لبنى" وزوجها بابتسامة مشجعة ودعتهما للجلوس بينما طلبت لهما القهوة التركية، لكنها كأنثى بطبيعتها أولاً وأخيراً ما كانت لتكتفي بما بين يديها من أوراق ضمها الملف الذي قدمته المرأة إليها كي تطلع عليه، فغريزتها كانت تعمل بطريقة سريعة متقنة تبدو خفية إلا على النساء، لتراقب طريقة جلوسها وحركاتها وطبقة صوتها ونظراتها، وبالطبع ثيابها التي كانت تتألف من جلباب طويل، ونقاب وجه بلون أسود أنطق من عينيها لساناً آخر مع شفتين أسدلت عليهما خماراً لا حيلة له في أنوثة لا تحجب سحرها أستار، وحيويَّة لا تقف في وجهها أسوار.

خلَّفَ اللقاء انطباعاً أوليّاً حسناً في نفس السيدة "أروى" التي وجدت في طاقة "لبنى" الأدبيَّة والمعرفيَّة مكسباً لكادرها التعليمي، فسألتها من بعد تهنئتها أنَّ في إمكانها مباشرة العمل ابتداء من مطلع الشهر القادم، كما سيتمُّ إلحاق الصغيرة بقسم الحضانة، على أن يُحسم مبلغ من أجرها الشهريّ كأقساط مُخفَّضة خاصة بالكادر الوظيفي، أما المواصلات فستتكفل بها إحدى حافلات المدرسة في رحلتي الذهاب والعودة لها ولطفلتها.

إنَّ مسألة التأقلم مع محيط اجتماعي جديد تستدعي الأخذ بعوامل عديدة لعل أهمها عامل الزمن، فأن تنتقل من حياة ذات عادات وتقاليد وأعراف وثقافة ولغة واحدة متقاربة إلى حياة أخرى زاخرة بعشرات الثقافات والعادات والأنماط الاجتماعية وحتى اللغات واللهجات، ومن جغرافية شرق المتوسط المعتدلة إلى بيئة مُناخيّة صحراويَّة شديدة الحرارة، كل ذلك يجب أن يستند إلى تقنيات عقلية تبدأ من فهم الآليات التي تحرك كل ما سبق، وكيفية صهرها ضمن بوتقة واحدة، قوامها رقابة الذات أولاً، واتباع القوانين التي تنظم الحركة العامة وتُقرِّب بين تلك الثقافات المختلفة، ثم الأخذ بإمكانية التعود التدريجي، حينها ستألف النفس ما كان يُنفرها، فتُبقي على النافع وتُحيّد الزبد، كي تخرج بعدها كسبيكة قوامها الاحترام والقبول والرضا. لذلك فلم يكن من المستغرب أن تواجه في الأيام الأولى لها بعض المصاعب المتعلقة باللغة واختلاف اللهجات والعادات وكل ما ينتج عن ذلك التنوع الديمغرافي، لكنها وبمرور الوقت ولطبيعتها الشفافة وجنوحها المتفائل نحو أسباب الحياة، وانحيازها الإيجابي لكل ما يُنعش الآمال، وجدت نفسها تنسجم بسرعة مع ما تختبره كل يوم، فأثناء الفترة التي كان يقضيها زوجها "خليل" في عمله، كانت تخرج وابنتها "سيرين" صباحاً، متجهة نحو طريق كورنيش البحيرة القريب، تمشي للتريُّض بينما تضع الطفلة في عربتها، ثم تجلس لتستريح إلى أحد المقاعد المطلة على مياه البحيرة وسط العشب الأخضر، يزدحم رأسها بعشرات الصور والخيالات بينما تتابع كل

الأشكال المتحركة أمامها في شرود تذوب فيه معاني الأشياء، إلا ما يقطع تفكيرها من حيوات متنوعة تسحبها بخفة لتتربع بها فوق عروش مُسكرة، إن تشابك الأقدار شديد التعقيد، فما الذي يجعل نورساً بعينه ينقض ليختار سمكة بذاتها كوجبة له دون سائر الأسماك الأخرى؟ ما أبدعها من حسابات دقيقة تلك التي يتخذها الطائر كقرار لا يغيّره أثناء انقضاضه، كيف لي أن أعلم هل سأكون في موقع السمكة أو النورس؟ مع ذلك فإني أستشعر بحرارة القلب وصدق الحدس أيَّ درجة في ميزان العاطفة لو اختلّ، وإني لعلى يقين من طارئ قد استجد، كيف أغفل عن أنفاس "خليل" وقد كانت تتردد في صدري قبل صدره، ليست اللهفة التي عرفتها، ولا الضحكة التي عهدتها، ولا الشوق الذي كان يطيب معه قطاف، لكن، العلم مع الصبر، ولن أكون البادئة.

كان "منقذ" هو من اقترح إفطار اليوم، لمشاركة "خليل" فرحته بقدوم أسرته، وعودته من إجازته القصيرة، فشاع السرور في المكان، وسرت دعابات تستحث "أسامة" على الرد بعد أن وجهت إليه "راغدة" كلامها ضاحكة:

– هل سيحظى وجهك بهذا التورد لو التقيت زوجتك من بعد غياب تجاوز السنة كما يحدث لبعض النبلاء هنا؟

أجابها أسامة وهو ينظر ناحية "خليل" مبتسماً:

– ربما ترين أكاليل من الجوري تتفجر حمرتها فوق صفحة وجهي لو غابت زوجتي يوماً أو بعض يوم، فكيف بسنة، هذا حلم بعيد المنال.

ومن بين ضحكات الجميع ردت عليه "شهد":

– ألا تخشى من هُدهُد يطير بقولك هذا فيلقي به على سمع الغائبة، حيث لا تنفع عندها شجاعة ولا تجدي شفاعة؟

– إنها على درجة من الوعي تسمح لي بالتسرية عن نفسي ببعض القول، فلا حرج ولا خوف من وشاية طير، ولا نميمة أنسيّ، أو وسوسة جنّيّ.

وهنا تساءلت "شهد" ممازحة:

– وأنت يا "خليل"، هل تتمتع بتلك الحظوة وذلك المتنفس يا ترى، أم بتَّ الآن أسير رقابة التي أحيت الدماء في وجنتيك كما عرّضت "راغدة" بك؟

تردد "خليل" بعض الشيء، لكنه أجابها متقصداً أن يحمل في طيات رده رسائل ضمنية:

– من الراحة بمكان أن يسكن المرء إلى نفس تحبه، ووجه يتلقاه ببشر، وقلب يتوق إليه، وضحكة طفل تُطرب أبوَّته، وحتى مائدة طعام قد جُهزت لأجله تنتظر حضوره، وفم يدعو له لحظة مغادرته المنزل، ثم يتلقاه بعبارات السعادة عند عودته، فهلا ترين مُتنفساً فيما ذكرت؟

ردت عليه بمكر:

– يسكن المرء إلى نفس تُحبه، لكن، هل يُحبُّ هو تلك النفس بالقدر الذي تحبه؟

نظر في عينيها برهة، ثم أجاب وقد أحس أنه أخذ على حين غفلة منه:

– هذا شأنه.

هنا تدخَّل "منقذ" مُستفسراً:

– صحيح يا "خليل" لقد كتبتَ في مواضيع كثيرة، لكنك لم تكتب في مرة عن الحبِّ؟

أيدت "شهد" ملاحظة "مُنقذ" بقولها:

– بالفعل، أليس هذا غريباً، خاصة أن جمهورك يصنفك ككاتب إشكالي، فلم لا تكتب مادة عن الحب واختلاف آراء الناس حوله؟

أحاطت به الأعين محدقة وكأن مؤامرة تستجره إلى نزال يتحاشاه، فهو يعلم بأن نقاشاً كهذا سيتشعب بالتأكيد، وقد يترك آثاراً متباينة لاختلاف المعطيات ومنطلقات كل شخص، فسألها هو:

– أيهما برأيك الخيار الأفضل، أن يكتب المرء عن الحب أم أن يعيشه؟

ها هو البريق مرة أخرى يزمجر في زرقة عينيها محرراً طاقة سحرية تُحدث في العقول لوثة وفي الأنفس لوعة لتجيبه بغنج:

– الأفضل من الخيارين هو أن يكتب المرء عن حبّ يعيشه أو حبّ يتحراه.

وجد "خليل" الأمر وكأنه استدعاء أشبه بالاستفزاز الذي من اللباقة أن يُستجاب، حتى وإن أخرج بعض الخبايا، فنحى التحفظ جانباً بعد أن أصبح الاستمرار أنجع من العودة ليُردف مبتسماً:

– يا لحقل الألغام الذي استُدرجت إليه، بأيِّ حال فإني

أتساءل حقيقة، كيف يُمعن الناس في شرح مفهوم الحبِّ، ومحاولة فلسفته وتأطيره ضمن مفردات تُحيله مسخاً حركيّاً شهوانيّاً لا يتجاوز فورة، أو أن يبتعد عن كونه نزوة تتلاشى بتسريح السوائل!

وهنا عدل "أسامة" من جلسته ثم قال:

– تقصد اعتقادهم بأن الباعث الأساس لكل حبّ ينطلق من غريزة؟

– أتكلم عن بعض النماذج البشرية، تلك التي تصيّره كحاجات تختلف منطلقاتها النفعية فيما بينهم، قد تسكن كيان رجل يرى في أنثاه التي يغدق عليها من فيض حبّه موضوعاً حسِّيّاً يُحقق ما يطمح إليه من لذة، في سعي أنانيٍّ استحواذي تُغلفه تلك القشور الضرورة، أما المرأة فيُلهب فؤادها كلام رجل يغزل فيها نظماً تجود به مخيلته المُتخمة بمعاني العشق، فتهوي بهشاشة عاطفتها في سحيق أوديته المُردية، إن طبيعتها تثق بما يُصوِّر لها الحبيب، وما عساها ترغب هي أن يقع في نفسها موقعاً، حتى وإن عارض ذلك العقل عياناً.

تتدخل "راغدة" مستشهدة بقول سمعته:

– أذكر منذ سنوات أني دهشت برأي طرحه أحد أساتذة علم النفس يبدو في السبعين من عمره، أثناء مأدبة غداء دعيت إليها، أقيمت على هامش مؤتمر في مدينة "بيروت" حينها، قال ضاحكاً: "مهما حاول الرجل أن يقدح زناد فكره ليُطرِّز قصائد هوىً فيمن يُحب، أو يشتد في تصنُّع الوجد وترويج نفسه كعاشق

عُذريّ يسمو بروحه زاهداً في ثمرات الجسد، فهو مُخادع مُخاتل، لكنه متقن لأدواته، مُدرك لمراده".

– أنا لا أوافق على هذا التصوير المقيت، فليس من الضرورة أن تشكل خبرة وتجارب فرد من الناس قانوناً يؤخذ به على عواهنه، قد يشيب شعر رجل فيلوح عيبه ويغيب عقله، إن درجة "أستاذ" لا تخوله قذف البسطاء من الأصفياء بشذوذ معتقداته، ولا تعني امتلاكه للحقيقة.

كانت "شهد" تتابع النقاش باهتمام كبير، وآراء "خليل" التي استحوذت على انتباهها بشكل أكبر، فتساءلت بصوت له وقع كالزئير على ما يميزه من نعومة تزفر في الأثير أمواج عنبر:

– ما الذي تقصده هنا، هل تعني أن رجلاً على درجة عالية من الثقافة والمعارف الأكاديمية وما مر به من تجارب حياتية طويلة لا يُعتد له برأي، كيف ننكر عليه رأيه المهني على أقل تقدير، وهو المتخصص في علم النفس؟

– أنا لا أنكر بالطبع كل آراء علماء النفس، بل أتكلم عن رأي هذا الشخص تحديداً، سأضرب لك أمثلة على ما أعنيه، قد يحب بائع الخضار حُباً أسطورياً يتجاوز به حبّ كثير من الأدباء والشعراء وكل أساتذة علم النفس، غير أن افتقاره لأدوات التعبير لا يعني افتقاره لكمّ الحبّ الذي يحمل في قلبه، فقد يكون عاجزاً بالفعل عن صياغة أحاسيسه الجميلة ليحتكم إلى منظومة من القافية والوزن والموسيقا والمفردة، فيتقدم عندها الأديب والشاعر ببضاعته لغة، لكنه ليس من الضرورة أن يتقدم بها نبضاً.

ثم أمسك لسانه فجأة من أن يسألها عن الحب استناداً إلى تجربتها الزوجية الفاشلة التي مرت بها، فعدل عن ذلك وأعاد في ذهنه تشكيل الصياغة بطريقة مبسطة، فسألها:

– إنك استمعت منا إلى تعريفات كثيرة عن الحب، لكننا لم نتعرف رأيك أنت، فما هو قولك فيه؟

كانت بالتأكيد تنتظر هذا السؤال، وقد استعدت له بحيث إنها لن تُخرج كل ما في جعبتها، بل ستكتفي بجزء تقدمه للمجموعة، أما المعين الأكبر فستحتفظ به لأوانه إن استدعت حاجةٌ أو تنبَّه ساهِمٌ، فقالت:

الحبُّ عند العقول السقيمة والأنفس المبتلاة بنتن التراكم أضحى تُهمة بالفعل، فمن يحرص على أن يحيا الوقت على صوت نعيق الغربان، من الصعوبة عليه بمكان أن يتحسس قلبه صوت هطول المطر، ولا لحن خرير جدول، أو تنفس فجر، ولا طواف غيمة بيضاء، فكيف له حينها أن يعرف الجمال حُباً؟ ما الحبّ عنده إلا أداة تلقى على مكامن الشهوة إن كانت تُطوِّع لترويض بهيميّته الدّوريَّة، فلا عجب عندها من أن تُصوِّر له نرجسيَّته حُسنَ حدٍّ وقُبحَ آخر.

انظر كيف يتشوّه الحالُ ويُؤذَى الجمالُ لو طالعتَ أحوال المُحبين، كم واحداً منهم خط اسم محبوبته عند شاطئ فوق رمال البحر، مَن نحت فوق جذع شجرة حرفين، مَن أرسل زوارق من ورق فوق نهر عذب خُطّت فيها أسماء وأسماء، مَن طبع أثراً فوق إسمنت طريّ، مَن حاول أن يتشبث بالحياة عبر أداة من

أدوات الطبيعة تلك التي ذكرت؟ ثم يأتي من يقذف المخلفات بحقد في البحر الذي أشهده حُبَّه، ويقطع الشجرة التي أودعها قلبه، ويلوث النهر الذي اتخذ منه في يوم رسول غرام، ويُدمّر كل إسمنت فوق رؤوس ساكنيه أو يرتضي اقتراف ذلك، فهل في ذلك كفاية تنقل بعض معاني الحبّ التي أفهم؟

كان رأي "أيوب" في الحب مختلفاً بعض الشيء، نظرت إليه "شهد" وبحركة لطيفة من رأسها أومأت له بأن يبدي رأيه فقال:

– ربما يتجاوز منطق الحب عند البعض ما هو معلوم من أقوال أو أفعال أو حتى آثار خبرناها، فمثل أولئك لا يسعون إلى لذة عابرة أو نطاق زمني محدود تقيّده أحكام ترتبط بتصورات مادّية أو دورة تبلغ ذروتها في بلوغ حالة انتشاء يزول انتظاراً لكرَّة أخرى زائفة، بل هو المبتغى الأقصى النزَّاع إلى ديمومة متصلة مستمرة، قد يراه البعض فلسفة تصوّف أو زهد بالزائل لأجل الباقي، تكمن خطوة الوصول الأولى في الموت لتلج عالم السرور الأبدي.

أجابته "شهد":

– إن أي فعل إنساني يجب أن يُحدث قيمة إيجابية مُضافة تخدم مصلحة الفرد في وعيه بوجوده الآني، حتى وإن كان ضمن نطاق إثارة الشعور بالمتعة أو البهجة أو الفهم السلس كي يتسرب للقلوب دونما تذويق ولا رتوش أو مفردات أقرب للطلاسم، وما دون ذلك أراه كجهد عبثي.

تَقررَ أن تكون مدرّسة لمادة اللغة العربية مع زميلتها من

"فلسطين" السيدة "ثروت" والتي ستتقاسم معها تدريس المادة نفسها، إنه اليوم الأول لها ولابنتها في هذا المكان، كانت قد ترددت إلى المدرسة عدة مرات بعد زيارتها الأولى مع زوجها "خليل"، لأجل إتمام الإجراءات المتعلقة بعملها، لم يكن الأمر يقتصر بالنسبة إليها على وظيفة تؤديها من أجل تحسين ظروفها المعيشية ودعم أسرتها فحسب، بل يتعداه إلى ما ترى فيه معنىً أوليّاً من معاني وجودها، فطموحها يتناسب مع تلك الروح المتوثبة، وهو يتجاوز كل أشكال الكسب المادي حتى وإن كان ضرورة، لذلك فلم تجد حرجاً في هذه الانطلاقة التي ترى فيها رسالة مقدسة، فما أعظمه من شرف تناله وأنت تتعهد مشروعاً لبناء إنسان وتسهم في صقل عقله وتكوين شخصيته.

في الغرفة الخاصة باستراحة المُدرِّسين والمُدرِّسات تم التعارف سريعاً إلى من كان حاضراً من أعضاء أسرتها المهنية الجديدة، معلمات من أقطار عربية مختلفة، فمن بلدها سوريا الآنسة "سدرة" مدرسة لمادة اللغة الإنكليزية، والسيدة "ديمة" مدرسة لمادة العلوم، والسيدة "هَيف" مدرسة لمادة الرياضيات ومن فلسطين الآنسة "رها" مدرسة لمادة الرسم والفنون، ومن مصر السيدة "ميار" مدرسة لمادة التربية الإسلامية، جميعهن معلمات للمرحلة الابتدائية، ومعلم واحد لمادة التربية البدنية والرياضيَّة هو الأستاذ "حسين" من سوريا أيضاً، متزوج في أواخر عقده الثالث، حسن الملامح، متين البنيان طويل القامة، قمحيّ البشرة، وكانت قد تعرفت فيما مضى إلى المديرة ومالكة

المدرسة السيدة "أروى" أرملة في الخامسة والثلاثين من عمرها، كانت شريكة لزوجها الذي توفى فجأة بعد أن عاشت معه لثمانية أعوام، تتابع مسيرة حياتها وقد ورثت تركة كانت من ضمنها المدرسة وابنة وحيدة "جالا"، طالبة في جامعة "الشارقة" كلية الفنون الجميلة والتصميم، ومن العراق وكيلة المديرة السيدة "لبابة"، إضافة بالطبع إلى المشرفة الاجتماعية السيدة "جُلنار" زوجة شقيق "أسامة" صديق "خليل" التي زكتها عند إدارة المدرسة وهي من سوريا أيضاً، والذين ستقضي معهم أوقاتاً وضعت نصب عينيها ألا تجعل منها رقماً في جدول، قد تؤثر فيهم وقد تتأثر بهم حقاً، لكنها عقدت العزم على أن تُضيف أموراً تتجاوز الخطوط المتعارف عليها التي ترسم معالم أي مُدرِّسة تقليديَّة.

كانت هي الوحيدة من بين كل المُعلمات التي ترتدي نقاباً، فمنهن من اكتفت بحجاب بسيط وأثواب طويلة أو عباءة، ومنهن من كانت حاسرة الرأس، ومنهن من كان يكشف غطاء رأسها من شعر أكثر مما يخفي، مع ما يستدعيه ذلك الزيّ من استخدام لكل أنواع المساحيق والمستحضرات التجميلية، لكنها لم تكن أبداً لتتخذ أو تتبنى رأياً أخلاقياً يستند إلى زيّ أو مظهر بعينه لإنسان، بل كانت تعتمد على ما تصنعه أيادي البشر وما يُحدثُ المرء من قول أو فعل، إن كان خيراً أو شراً، فليس لها أن تقترب من مضمار النوايا، مع ذلك فلم تكن لها طاقة أن تمسك نفسها بالمطلق من أن تستدعي حدسها على أن تتخذ منه مُستشاراً، لا حاكماً ولا مُقراً، وما أصدقه من حدس.

بعد الأسابيع الأولى لها في العمل، لم يفاجئها أن تتحول الهمهمات التي كانت تتسرب من خلف الجُدُر على حذرٍ وتردُّدٍ حول نقابها، إلى أن تُقدَّم كأسئلة مباشرة، ما مهَّد لجعلها كذلك ودفع لطرحها هو شيء يتعلق بما يمكن أن يوصف بالهبة الإلهية التي اختُصت بها، إنها "كاريزما" عجيبة لشخصيَّة اجتمعت فيها خصال الرقة والفتنة والسحر، كل ذلك دفع زميلتها "ميَّار" كي تسألها مرة في غرفة استراحة المدرسين التي باتت تجمعهم أيام الدوام، وفي حضرة من الآنسة "رها" مُدرّسة الرسم والفنون، و"حسين" أستاذ التربية البدنية:

– بصراحة أيتها العزيزة، لقد ترددت كثيراً قبل أن أسألك، لكن ما خبرته من تفهمك خلال الفترة المنصرمة شجعني على ذلك، فهل يحرجك لو تكلمتِ عن الموجبات التي دعتك لارتداء النقاب؟

نظرت إليها "لبنى" مبتسمة، وهي تعلم بأن إجابتها لن تقتصر على اهتمام "ميار" وحدها، فهنالك من يصغي بانتباه أيضاً، لذا فعليها أن تنتقي كلماتها بعناية:

– قولي لي أنت، ما هو السبب الذي ترينه جعلني أتخذ هذا الخيار حسب اعتقادك؟

– إنه لأمر مُحيِّر بالفعل، فعندما أتابع أسلوبك في الحوار، خاصة فيما يتعلق بالحريات، لا أستطيع أن أصدق احتمالية فرضه عليك.

– بالطبع لم يفرضه عليَّ أحد، بل ربما يدهشك لو علمت أن والدتي لم تكن تضع غطاء للرأس.

أبدت "رها" استغرابها، ثم تساءلت وكأنها وقعت على السبب:

– تقصدين بأن أحداً من أهل بيتك لم يجبرك عليه، لكن ذلك تم بعد زواجك؟

– بالضبط.

عادت "ميار" لتعقب ضاحكة:

– الآن توضح الأمر، يبدو أن زوجي وأنا مُعلمة لمادة التربية الدينية أكثر انفتاحاً من زوجك الإعلامي، بأي حال، لا ألومه على تلك الغيرة؟

لكن "لبنى" أضافت مُلاحَظة عززت الغموض بقولها:

– بالمناسبة، فزوجي لا علاقة له بما أرتدي من زي، بل كي أزيدك من الشعر بيتاً، فهو كان وما يزال يعارض ارتدائي للنقاب!

لاحظت تعابير التعجب والاستفهام التي أحدثتها إجابتها على وجوههم، ولم يفتها أن تلمح وقع ملاحظتها الأخيرة على وجه "حسين" الذي هز رأسه وقد اتسعت عيناه وارتفع حاجباه وكأنه يستعلم السبب، فلم يجد بداً من سؤالها:

– لا الأهل سابقاً، ولا الزوج لاحقاً، فما الذي حدا بك إلى ذلك؟

أجابت دون تردد:

– جعل الله من تمام عفاف المرأة أن تُدبِّر سترها كيف يكون، وإني رأيت في منامي رؤيا أوَّلتها بضرورة أن أدني عليَّ من الجلابيب فينكمش الأذى الكامن.

سألت "ميَّار":

– هل من الممكن أن تقصي علينا تلك الرؤيا؟

– لا بأس، سأحاول أن أسترجع كل التفاصيل التي تأبى أن تبارح.

كان ذلك منذ ثلاثة أعوام تقريباً، رأيت فيما يرى النائم وكأني كنت أمشي وحيدة عند سفح جبل تعلو قمته قلعة عظيمة، كنت على يقين أني أمشي في ساعة من نهار، لكني مع ذلك لم أشاهد شمساً في السماء ولا غيوماً تحجبها، تملكتني فجأة قوة غامضة سيطرت على قدميّ فكانت تجرهما رغماً عني نحو المكان، كنت كالمسحورة بالفعل، وعند منتصف المسافة للقمة، مررت بشجرة ضخمة عجيبة كأنها غابة لوحدها، قد امتلأت أغصانها بأعشاش لطيور ذات هيئات غريبة، كأن ريشها قد انتزع منها، ثم رأيت طفلة لم أرَ مثل جمال وجهها، تخرج من باب تلك القلعة في أعلى الجبل لتتجه منحدرة نحو الشجرة، تقترب منها ثم تتناول طائراً واحداً تحمله بين يديها لتعود أدراجها من الطريق نفسه، وعندما رأتني ابتسمت لي وتكلمت بكلمات لم أتبينها، غير أنها أعادت كلامها وهي تحدق في عينيّ متسائلة، وعندما وجدتني لم أفهم شيئاً أومأت لي برأسها أن أرافقها في رحلة صعودها بينما كانت تحمل واحداً من تلك الطيور، فمشيت خلفها حتى وصلنا عند باب تلك القلعة، أشارت بيدها نحو الباب فانفتح على مصراعيه، لم أصدق ما رأته عيناي، فلا جدران في الداخل وإنما مكان متسع لا حدود له، يتوسطه ممر ضيِّق طويل بلا نهاية،

اصطفت على الجانب الأيسر منه صناديق كبيرة مصنوعة من الذهب، مزخرفة سطوحها بكل أنواع الجواهر، فبدت الصناديق نفسها كالكنوز، عندها تحيّرت نفسي في طبيعة ما تحتويه؟ بينما توزعت على الجانب الأيمن من الممر صناديق أخرى من خشب الصندل تفوح منها روائح لعطور تلامس الروح لروعة شذاها لا تتمناها أن تزول، كانت الفتاة تمرر يدها بحنان تمسح رأس الطير فتنفتح عندها الصناديق جميعاً، ثم رأيتها تقبض على حفنة من أحد الصناديق على يسارها فإذا هي خلاخل من ذهب قد رصعت بأنواع من الماس والزبرجد والياقوت، وتقبض على حفنة أخرى من أحد الصناديق الخشبية على يمينها فإذا هو ريش ناصع البياض، بعدها كانت تترك الطير فوق أرض الممر وتذهب لتأتي بطير آخر غيره، وفي اللحظة الأخيرة قبل خروجها من الباب التفتت نحوي فجأة، فانعقد لساني دهشة عندما رأيت وجهها مرة أخرى عن قرب، لكنه في هذه المرة، كان وجهي أنا، وكأنني كنت أنظر إلى نفسي في مرآة، عندها استيقظت من نومي، قد تسارعت ضربات قلبي وأنا أتفكر في ذلك الحلم وما تفسيره، أو ما ظننتها رؤيا في محاولة لتأويلها، لكني لا أعلم حقيقة ما الذي جعلني أشعر بضيق كلما تخيلت طائراً دون ريش، وفي ذلك اليوم اتخذت قراري بارتداء الجلباب والنقاب.

بعد لحظات من الصمت، تكلم "حسين":

– ربما هي أسباب ترجع إلى تعودك على رؤية الطيور وحبك لها في طفولتك الأولى، فأغلب الأحلام تتخذ مواضيعها

من مادة الواقع، إضافة إلى عوامل كثيرة منها الإرهاق الجسدي أو الوهن النفسي وضغوط الحياة المختلفة تشكل جميعها تربة خصبة لثمرة الأحلام.

– لا أنفي ذلك، لكننا لا نستطيع أن نرجع كل ما نراه في نومنا إلى أسباب نفسية أو جسمانية، أرجو ألا تستثني العامل الروحي.

– هل ترين أنه من المنطق ردَّ المحسوس والمُدرك إلى شيء لا نعلم كُنهه، إن كان طبيعة، أو مادة، أو حتى ماهيَّة عصيَّة على العقل؟

– بل إني أجد ذلك الذي يتجاوز المادة والعقل هو الأدعى إلى التفكر، ولا أتفق في أن كل ما لا نعلمه يصنف كغير مُدرَك.

لعل الفكرة الأخيرة التبست عليه، فاستوضحها بقوله:

– هذا يعني أنك تدركين الروح؟

– جزء من الإجابة تكمن في سؤالك أنت الآن.

– وكيف ذلك؟

– عندما تتكلم عن الروح فأنت تسأل عن شيء تدرك وجوده لكنك لا تستطيع تعريفه، عدم مقدرتك على تعريفه لا ينفي وجوده.

سألت "رها" مرة أخرى:

– ألا يعتبر الحج أعظم المناسك الإسلامية؟

أجابتها "لبنى" التي لم تجد رابطاً بين كلامها الأخير وهذا السؤال:

– نعم، ولكن ما علاقة ذلك؟

– سأبيّن لك العلاقة من خلال المقاربة الموضوعية.

– تفضلي.

– كيف لامرأة تغطي وجهها في شارع ما، خشية من أن يراه بعض الرجال، تعمد إلى كشفه أثناء تأدية فريضة الحج وسط حشود هائلة من الرجال عند الكعبة، وفي المكان الأكثر قداسة عند المسلمين، فإذا كانت تغطية وجهها في الشارع تنطلق من ضرورة دينية تراها، فالأدعى أن تأخذ بها في المكان الأول من حيث تطبيق الشعائر الدينية، ألا وهو موسم الحج، لكنها لا تفعل، لأن الأصل في ذلك هو كشف الوجه وليس العكس؟

وجدت "ميَّار" في كلام "رها" ما يشبه التأييد لرأيها الذي توخت أن يبدو حيادياً، فهي لم تُنكر عليها النقاب وإنما جعلت طريقتها في السؤال تتكفل بذلك، فقالت:

– إنه مثال ممتاز وواقعي.

هنا كانت الفرصة سانحة ليغتنمها "حسين" بقوله:

– لا أعتقد أنه من الحكمة بمكان أن يخفي المرء أكرم سفير جعله الله لعقله وقلبه، فالوجه هو السمة الأكثر أهمية للتعبير عن شخصية الفرد وهويته، وليحمد الله إن كان جميلاً، يفتخر به وبتلك العطيَّة، لا أن يغيِّبه بدثار.

ثم أضاف موجهاً كلامه إلى "لبنى" وهو يبتسم:

– أما أنا فلا أنكر صراحة أني من جمهور زوجك في تلك الجزئية التي تعارض ما يُحجِّم من شخصية أو يحدُّ من حرية.

قلَّبت "لبنى" الأمر على وجوه مختلفة، ثم قالت بصوت خفيض وكأنها اكتفت من الحوار:

– نحمد الله على كل شيء، ولكلٍ منا مفهومه الخاص عن الجمال، فالعرب حرصت قديماً على أن تبذل الغالي والنفيس كي تكسو الحجر، فكيف بنا حين نكسو البشر، يتفق الجمع من الناظرين إلى الكعبة أنَّ تمام جمالها حين تُجلَّل بسترها القماشي الأسود المُطرَّز بخيوط الذهب، لا بكشفها حتى وإن كانت جلاميد عارية.

"لن تكون ما أنت عليه بعد سنة من الآن"، إنه يستذكر كلمات صديقه "بشير"، أيعقل ذلك؟ ثلاث سنوات انقضت بالفعل، فهل ما زلتُ "خليل" نفسه؟ لله ما أقبح صنيعي بصاحبي، كم مرة أرسلت إليه أو اتصلت به، ربما ثلاث أو أربع مرات طوال تلك الفترة؟ لكم تغيّرتُ ولكم تدنَّست نفسي، واسوأتاه، كيف أخذتني الدنيا فلم أعد أذكر أبي كما يليق بالذكرى، حتى تلك المرات التي غدت متباعدة أهاتف فيها أمي، ما بالي وكأني أجدها رشوة سترضاها، وكأن سماعها لصوتي سيبدد كل ريب في تأخري عنها، لن تكون لهفتها لسماعي كلهفتي لسماعها، ولا اشتياقي لها كاشتياقها لي وإن حرصتُ، لكنها تقبلُ وتتقبَّل، تبتسم وتضحك لي عند كل هاتف وأنا أعلم أن قلبها يبكي، لكنها تحتمل الكتمان كما نستمرئ الجحود. هل ما زلت على عهدي بـ "لبنى"، ما الذي يحدث لي؟ ما أبشع أن يتفجر الباطن بتبريرات لا تُزدرد، هل أصطنع الأعذار لدناءتي في محاولة تفسير الحال فأُعيده إلى

برودها الأول وتمنُّعها القديم، هل أنا على حق وهي المُلامة؟ لا، بالطبع لا، كيف أنافق نفسي باستجداء المسوِّغات لها، لقد صرت أخشى عليها من غوائلها، يا للدرب الوعر، ويا له من صراع، ألستُ الذي أصبحتْ متعته وأسباب راحته تكمن في مكان العمل لا بين جدران المنزل، هل أقوى على أن أخفي في نفسي ما الله مُبديه؟

استفحلت المشكلة بينهما في الفترة الأخيرة، فلم يعد بدأ مما ليس منه بد، وكأن الغرفة الأخرى في الشقة قد جُهِّزت مُسبقاً لغرض مُبيَّت تعرَّفت إليه الآن، فهي تخوض مستنقعه وتتجرع مراره، خاصة بعد أن اتسع الخرق على الراقع، فاستقل بتلك الغرفة التي لم تُختر عن عبث كما تبيَّن لها، ولم يكن وجودها لغاية تتعلق بتوفير أجواء للكتابة أو لاحتمالات أخرى ممكنة، كزيارة أحد من أفراد أسرته، فعادت الحياة بهما إلى أيام الزواج الأولى الماضية، لكن مع تفصيل مهم يتعلق بتبدُّل الأدوار، فالذي أصبح يتنصل ويتمنَّع ويختلق أسباب الجفاء هو "خليل"، وما فاقم الأمور توتراً جنوح "لبنى" في أغلب الأوقات إلى الصمت، دون الخوض في أي نقاش فعليّ يوضح مواطن الخلل لمحاولة رأب الصدع، فما أكثر الأحيان التي ترفع فيها الأنثى من مقام الكبرياء ليسمو فوق صنوف الألم وألوان العذاب.

لكن ذلك كله لم يمزق ما تبقى من أشرعة، أو يحرق كل أساطيل الحكمة، فالطفلة "سيرين" ما تزال همزة وصل تبقي على الود بينهما في حدوده الدنيا، بما تفرضه ضرورات الإمساك

بمعروف من لباقة في التعامل، وبعض حياد المعشر الذي يحول دون انهيار الأعمدة الأخيرة للمعبد، فهي لم تهمل ما تبقى لها من واجبات معيشية كتحضير الطعام، ورعاية الطفلة، والعناية بنظافة المنزل والثياب وحتى تقديم جزء من مرتبها الشهري للمساهمة في تسديد ديون أهل زوجها.

ما أشبه حالهما بفرسي رهان يتنافسان من أجل كسب مبهم، فكل تقدم يحرزانه في مجال العمل يقابل بتراجع على المضمار العاطفي وتضعضع في أركان الأسرة.

لقد برع هو في إثبات قدراته وتطوير مهاراته مستحقاً المكانة التي وصل إليها مهنياً، وحتى حظه من الشهرة التي باتت تطرق أبوابه من خلال استضافته في بعض القنوات التلفزيونية، وعرض العمل الجديد الذي يقوم بدراسته والذي يتمثل بمنصب كمحاضر ونائب المدير التنفيذي لأكاديمية مُتخصصة بتدريب وتخريج الكوادر الإعلامية.

أما هي فلقد أضحت العلامة الفارقة ضمن كادر المدرسة التعليمي، والصديقة المقرَّبة للمالكة والمستشارة الناصحة لها في كثير من الشؤون الإدارية، وفيما يتعلق بالجانب الشخصي فلقد تعرَّفَ الناس إلى الوجه الجميل بعد أن زال عنه النقاب الذي استعاضت عنه بأغطية رأس زاهية زادتها إشراقاً ولم تُقلل من عفَّتها.

بعد العزلة الاختيارية التي ارتضاها كل منهما عن تعوّد، والتي باتت روتيناً يوميّاً أثمرت بذوره عن حياد كئيب، وذلك

التقسيم المكانيّ الذي جعل الحائط بين الغرفتين أعتى من جدار "برلين" المُحطَّم، اقتصر التواصل بينهما على بعض الأسئلة العابرة أو الضرورية، أو النقاشات العامة التي تخلو من أي مذاق، سألها في إحدى الأمسيات أثناء مشاهدتها للتلفزيون:

– هل أنت سعيدة في عملك؟

أجابته بعد أن حدقت في عينيه لحظة، ثم تصنعت متابعة الفرجة:

– إنما هي حياة تمضي بنا عنوة، لتأخذنا حيث تشاء، سعدنا أم لم نسعد.

– مع ذلك فلم تجيبي على سؤالي؟

– هل تكترث لو كنت حزينة، أم ربما تقلقك سعادتي؟

– لقد تابعت التغيرات التي طرأت عليك في الفترة الأخيرة، هذا كل شيء.

– آها، فأنت تلمِّح في كلامك إلى أسباب نزعي للنقاب؟

– ليس ذلك بالتحديد، ولكن تلك الألوان الجديدة التي امتلأت بها خزانة ملابسك هي التي تترجم حالاً من حبور، وهذا أمر يفرحني بالتأكيد.

– أقدر لك هذا الشعور الطيب، كما أشكر انتباهك للملابس وانشغالك عن صاحبتها.

– لك الحق في التهكم، مع ذلك فأنت تعلمين بأنني أرجو لك الخير كله، لكني لم أعد أنا يا "لبنى"، أعلم بأن إحساسك يُنبئك بتغيّري، ولا تسألي عن الأسباب، فلنبق على شعرة الود

بيننا من أجل الصغيرة، في الوقت نفسه يبقى الخيار لك وأنا رهن مشيئتك.

– الخيار لي في ماذا، أتمنى أن تتكلم بوضوح، فنحن على درجة من الرشد تغنينا عن المواربة، أليس كذلك؟

– أقصد بأنني لست الرجل الذي يفرض عليك حياة تؤخذ بسيف الحياء، لكن ربما يحق لي أن أنصح بألا نهدم كل شيء ونتريث، هو رجاء أتمنى أن توافقيني عليه.

وهنا كتمت صوت التلفزيون والتفتت نحوه قائلة:

– تحاذر من عواقب الهدم أن تخدش صورتك الاجتماعية في العمل وتشغل بال أمك وأختك وتنعكس سلبا على الصغيرة، أما عن مشاعري فلا بأس بحقيقة أنك دفنتها وأهلت عليها أتربة النسيان، لا بأس، لك ذلك، ولكن لن أحدد مهلة، بل سأترك الأمر رهن ما قد يستجد من ظروف، عش حياتك ولا تخشَ مني ضرراً، فأنا "لبنى" التي تعرف وتثق.

– لا أشك لحظة برقتك ولا طيب أخلاقك، لكنك تعلمين وإن لم أخبرك بأنني لم أعد "خليل" الذي تعرفين، فإن شئت اعذري، أو لا تفعلي..

فجأة، قذفت السؤال في وجهه:

– امرأة أخرى؟

غيَّب وجهه في كفيه، ثم أخذ يمرر أصابع يده اليمنى فوق جبينه، وفجأة رفع رأسه نحوها ليجيبها بكل هدوء:

– نعم!

كان صباح يوم ثلاثاء من الأسبوع الأول لشهر "يناير"، حيث انتشر النهار بألوان شديدة الوضوح وسرت في الأجواء نسائم باردة منعشة، فزرقة السماء قد رُدَّت إليها العافية بعدما نفضت أمطار الأمس عنها ما شابها من عوالق متكدسة كانت تسلبها الصفاء وتمنع عنها أسباب الشفاء، كما بثت في ذرات الطبيعة كلها حيويَّة وجمالاً من نوع آخر، فبدت المرتفعات دانية على بُعدها، ولاحت رؤوس الجبال في عمق السمت وقد أخذت تتضح معالمها بمرور الوقت واقتراب السيارة من وجهتها. لقد تقصَّدا يوماً وسط الأسبوع خشية من حشود الناس أثناء أيام العطل الأسبوعية، فبينما تقضي هي إجازة لمدة أربعة أيام، كان هو قد باشر عمله الجديد في الأكاديمية منذ سنة تقريباً لكنه خطط لإجازة طويلة برفقتها في شهر "مارس" القادم. كانت إحدى المحطات الإذاعية تبث مجموعة من أغاني "فيروز" الصباحية وقد وضع "خليل" يداً على المقود أما يده الأخرى فاحتوت نعومة أناملها، بينما أخذت تتابع تغيّر الدرجات اللونيّة للتربة الصحراوية كلما اقتربت نهاية خط الرمال كي تتلاقى وأول الحجارة المتناثرة الأولى في إعلان التضاريس بداية السفوح الجبلية، لترتقي بهما العربة صعوداً متجاوزة مناطق "سوق الجمعة"، و"مسافي"، ثم لتصل أخيراً إلى شاطئ "خورفكان" على الساحل الشرقي.

ترجلا من السيارة بعد أن أوقفها عند كورنيش الشاطئ المزروع بحزام من المرج الأخضر والزهور وأشجار النخيل، عندما عادت السحب للتجمع كرَّة أخرى متسللة تزحف ما بين الأودية والأخاديد

الجبلية الكثيرة، لتعانق برذاذها الشفاف تلك التشكيلات الحجرية النارية من صخور "الأفيوليت" القديمة، ثم لتحجب أشعة الشمس خلفها، ويبدأ تساقط أمطار خفيفة متقطعة رفعت مستوى الحماسة في النفوس، فقال لها وقد جلسا إلى مقعد يقابل المنظر الآسر لذلك التلاقي الشتويّ المتقلِّب المفعم بالإثارة، وتلك المصافحة التي تقام طقوسها ما بين ماء السماء وماء المحيط:

– أخيراً، يا من تنحني في حضرتها "أفروديت"، ولا تستنكف "فينوس" عن خدمة عرشها، وتأمل "سالومي" لو كانت وصيفة في بلاطها، أخيراً؟

أجابته "شهد" بصوت كأنه لحن من صوت الطبيعة:

– على رسلك، أنت تعلم أني لا أدانيك في صنعتك، فلا تُحمِّلني ما لا طاقة لي به من مُجاراة الرد.

– لا يا أميرتي وأثيرتي، ليس هذا أوان للصنعة إن وصفتها كذلك، ولا هو مقامها، فإن أغرقت أحبار صنعتي الصحف، فقلبي أحق بأن تغرقه أحبار بوحك.

– قلت لك، أنت تخجلني بكلامك هذا، فأحار من عجزي في رد يستحقه وأتمناه، لكني لا أستطيعه.

– أتعلمين يا حلوتي، أؤمن بأن قوة التعبير تكمن أحياناً في بساطة القول، وقد يتجمع القول كله في كلمة، وقد تنقل الكلمة أسرار النفس وصدق العاطفة في لحظات مُقدَّرة، لذلك فأنا.. أحبك، نعم، هكذا ببساطة..أحبك، ولا أخفي عنك أني فتنت بك منذ اللحظة الأولى والنظرة الأولى والسهم الأول.

قالت ضاحكة:

– ما أجمل كلمة حلوتي التي تخاطبني بها.

– هذا لأنك ستبقين حلوتي التي ترفرف أجنحة السلام بقلبها كيمامة اتخذت لها عشاً أوحداً بين أغصان روحي.

– أهو عش أوحد حقاً؟

– "شهد"، حبيبتي، هل عدنا لذلك ثانية، ألم أشرح لك الأمر بكل معطياته والظروف التي أخبرتك عنها أكثر من مرة؟

– لقد كانت أطول أربع سنوات في العالم، من يصدق بأنكَ عندما ابتعدتَ عني اقتربتَ مني؟

– لم تبتعدي عن روحي لحظة، ولن يحدث ذلك، لكنها فرص الحياة لا بد من اغتنامها، كوني على ثقة بأن كل ارتقاء وتطوير لظروف العمل والمعيشة لك نصيب كبير فيه، بالمناسبة، لقد رتبت أموري على أن تكون أجازتنا الفعليَّة في شهر "مارس" القادم ولمدة أسبوعين.

– لا عليك، إنه توقيت ملائم تماماً، لكن ماذا عن الآن، ألم يحن أوان الذهاب للفندق، أعتقد بأننا قد نلنا قسطنا الطيب من نعيم البلل، هل موقعه بعيد عن هذا المكان؟

كان قد حجز لهما غرفة في فندق "المحيط اللازوردي" منذ الأمس ولمدة ليلة واحدة، فأشار بيده إلى بناء جميل متناسق ينتهي أعلاه بطابق مستدير ذي واجهات زجاجية لا يبعد عن مكان وقوفهما أكثر من مئة متر تقريباً ثم قال لها:

– انظري إلى ذلك المبنى على الشاطئ، هذا هو الفندق.

كانت تنظر إلى السماء وتمسح شفتيها بلسانها كأنها تتذوق ماء المطر، ثم انتبهت مرة أخرى وقالت:

– يبدو لي أنه يتميز بإطلالة لا تفوَّت في جو كهذا.

قال وقد تهلل وجهه بالبشر:

– مع ذلك، فيبدو لي أن السماء فازت بنظرة من عينيك أكثر من الفندق الذي تسألين عنه.

– كل مكان بلا سماء هو مكان مخيف خانقٌ مُجردٌ من الآمال.

ألقت عليهما موظفة الاستقبال التحية، وأثناء تسجيل بيانات الحجز سألت "خليل" الذي قدم لها جواز سفره وجواز سفر "شهد":

– السيدة "شهد" زوجتك؟

– نعم.

– مدة الحجز كما هو مسجل عندي لليلة واحدة.

– صحيح، ولكن ربما يتم تمديد الإقامة لثلاث ليالٍ أخرى، فهل ذلك متاح؟

– بالطبع، فقط أتمنى في حال قررتما ذلك إعلامنا في أي وقت ترغبون، أهلاً ومرحباً بكما، أتمنى لكما وقتاً طيباً وإقامة سعيدة.

كان "خليل" قد عقد قرانه على "شهد" منذ ما يقارب الشهر في مبنى محاكم إمارة "دُبَي" حيث حضر للشهادة على عقد الزواج كل من ابن خالته "نزار" وصديقه "أسامة"، كما حضر أيضاً والد "شهد" الدكتور "أدهم" الذي بارك لهما تلك الخطوة،

فلا شيء عنده يعدل سعادة ابنته الوحيدة، خاصة أنها نشأت على أسلوب تربوي يقول باحترام الرأي، وتقبّل النصح، والاستماع إلى النقاش، والمشاركة فيه إن لزم الأمر، أما فيما يتعلق باتخاذ القرار، فهي وحدها المسؤولة عن ذلك، وهي التي تتحمل التبعات، أياً كانت النتائج.

لقد حاول "أسامة" مراراً أن يثنيه عن عزمه منذ اليوم الأول الذي أخبره فيه عن حقيقة مشاعره تجاه الزميلة المشتركة، خاصة أنه يعتبر نفسه وزوجته "سجى" من الأصدقاء المقربين لعائلة "خليل"، كما أن زوجة شقيقه "جلنار" زميلة لـ"لبنى" في المدرسة أيضاً، لكنه في النهاية لم يشأ أن يخسر صديقه الذي وجد فيه إصراراً يتجاوز ما كان يظنه نزوة عابرة ستزول بمرور الوقت، أو حالة لفوضى عاطفية لا تتعدى الإعجاب، ولن تتطور إلى هذا الحد، ليس ذلك فحسب، فهو عندما سأله إن كان الزواج سيتم في السر، أجابه أنا لا أرتكب جُرماً، ولا أقترف إثماً، ولا أخالف شرعاً، لقد أخبرت "لبنى"، وهي تعلم كل شيء.

أمام ذلك التوضيح الصريح الأخير جاءت موافقة "نزار" الذي كان يرفض المشاركة في الأمر كذلك.

لم يكن "خليل" من ذلك الصنف من الرجال الذي يتلهَّى بالنساء، أو يخوض غمار علاقات عابثة أو غير شرعية، لذلك ولأسباب يرى أنها تعود لجرح قديم لم يندمل، ورياح سموم هوجاء ثارت دوَّاماتها لتعصف بقلبه، فكادت أن تهوي برجولته، وتحكم على ثقته بكل الأشغال الشاقة، وجد نفسه قد ولد من جديد

مع "شهد"، هو لا يستطيع أن ينكر رقة "لبنى" ولا أنوثتها أو طهر روحها ولا سماحة نفسها ورجاحة عقلها، لكنها لا تدرك أن تصرفها الأول قد استدعى كل جبال الجليد لتطفئ أغلب القناديل وتخمد آخر المشاعل دون قصد أو دراية منها، فجاء العلاج متأخراً، ولولا رجاء أمه له في السر، ومحاولاتها لتهدئة خاطره على الدوام، وضرورة أن يتحلى ببعض الحلم والرحمة، وتأكيدها بأن الحال سيتبدل إلى أفضل، لكان انتهى عندها كل شيء، لكن يقدِّر الله أن يحدث الحمل أثناء فترة تردده في اتخاذ قرار الابتعاد، فيستجمع أشلاء الودّ ليبقي على آخر الشموع، في محاولة مُجهدة لإقناع نفسه بأن العقدة قد انحلت، لكنه هو أدرى بنفسه، وهي كذلك لم تغفل لحظة عن مشاعره، مع ذلك، فقد اختارا أن يجنحا لشكل من أشكال العيش المشترك الذي يقوم على التعوُّد، فكان سفره وعمله، ثم سفرها وعملها، وفي المشهد الذي يليه، نشاهد حياة رتيبة يسودها الصمت والترقُّب والحياد، بيتٌ لأسرة تظنها متآلفة الأهواء لكن قلوبهم شتى، لا شك أنها حاولت أن تقدم كل جهدها وهي صادقة، لكن حتى وإن استطاع أن يمثل دور الزوج لفترة، فلن يكون بمقدوره أن يمثل دور الحبيب ولا ليوم واحد، إن الصراع الذي كان يعانيه أسلمه إلى تخبُّط خفيٍّ جعله يحار في مسه على من يلقي بالعتاب وإلى من يُرجع الأسباب، أعلى الزواج التقليدي، أم على موافقته لأمه التي أرادت أن تضمن مستقبله مع فتاة حسنة السمعة، ذات خلق وحياء وتهذيب رفيع، ترتاح لها فتختارها هي بدلاً

عنه، أم على أبيه الذي كان يُسمعه على الدوام كلماتٍ تستحثه على الإسراع بالزواج، كي يكحل عينيه برؤية حفيد له قبل أن يغادر الدنيا، مع ذلك فقد انتُزع منها بعد أن رأى حفيدة أحبها، فلم يكتب له الله رؤية حفيد ذَكَر، والمستقبل الذي أرادت أمه أن تضمنه لسعادته، اتضح أنه خالٍ من كل الضمانات، أما عن الفتاة التي اختارتها له من بعد بحث واستقصاء، فقد فاقت نسبة الحياء عندها كل تصوُّر. ثم لتأتي الخطوب الكبرى التي ضربت العائلة بعد الولادة وما نجم عنها، كمرض والده ثم وفاته، وبيع أغلب الممتلكات، واغترابه، ومرض أمه، ثم يأتي موقف "لبنى" النبيل من الأحداث، والتحويلات المالية التي كانت تقتطعها من كدها وتعبها في العمل، لم تتوقف ولا لشهر واحد عن ذلك حتى تم سداد آخر الديون منذ نصف سنة، ولا يستطيع أن ينسى أيضاً إجازتها الصيفية الأخيرة عندما سافرت معه إلى "سوريا" لأسبوع واحد حضرت فيه عرس أخته "وصال" التي حققت أملها بالزواج من "مناف" الذي أحبها وأحبته، كما قامت خلال تلك الإجازة بنقل الملكيات التي كانت مسجلة باسمها لتعود إلى أهل زوجها، وكيف كان ردها على المحامي الذي كان يتولى إنهاء الإجراءات القانونية الخاصة بالتنازل، والذي أشار عليها بشكل سرِّي أن يكتب لها صياغة قانونية تحصل من خلالها على نسبة من الممتلكات قبل أن توافق على توقيع الأوراق وإبراء ذمتها، على أن يكون له حصة من ذلك دون أن تكون مضطرة إلى إخبار أحد من أصحاب الشأن، فرفضت باشمئزاز وشدة ذلك الاقتراح

الغادر، وأخبرت "خليل" والعائلة بعرض المحامي، ثم تنازلت عن كل شيء وأعادت الحقوق لأصحابها ولم تقبل أي مال، حتى وهي في ذلك الخضم من الانفصال الزوجي، بل ومعرفتها بنوايا زوجها الخاصة بعلاقته مع "شهد" التي أحضرها للمنزل أكثر من مرة لغرض التعرف عليها، وتقديمها كزميلة له في العمل، لكنها لم تفكر للحظة واحدة أن تستغل الظرف، ولأنها كذلك، فهو لم يتردد في إخبارها بكل شيء، إنه يثق بها ثقة مطلقة، يحترمها ويودها ويتمنى ألا يسبب لها ضرراً، لكن لا بد مما ليس منه بد، فتم الاتفاق مع "شهد" على أن يتخذا لهما شقة في منطقة "التعاون" قريبة من مكان عملها ومن شارع "الاتحاد" كذلك، وهو واحد من أهم الشوارع الكبرى التي تربط مدينة "الشارقة" بمدينة "دبي"حيث مقر الأكاديمية التي يعمل فيها، لم تُجدِ كل محاولاته نفعاً في رفضه لطلبها بأن تعينه على تحمل الأعباء المادية التي سيترتب عليها زواجهما، فنزل مرغماً عند رغبتها بأن تشاركه تكاليف تأثيث الشقة والمساعدة في دفع أجرتها. كان قد أجرى تفاهماً معها على مسألة تنظيم الوقت بحيث يقضي جلَّه معها، بينما يخصص بعضه لزوجته الأولى وابنته، بالرغم من أنه و"لبنى" كانا قد هجرا بعضهما فعلياً وإن احتواهما بيت واحد، فهي وللحقيقة لم تعد تكترث لتصرفاته ولم تعد تعوَّل عليه في شيء يتعلق بعاطفتها كأنثى، فلم تبدِ أي اعتراض على شروعه في الزواج من أخرى عندما فاتحها في الموضوع، خاصة أنه لم يعرض عليها الأمر من أجل التعرف إلى رأيها،

بل من باب العلم بالشيء والإحاطة، ولغاية الإشهار المطلوب، كما لم يفته أن يضعها في الخيار إن شاءت أن تستمر على ضوء المتغيِّر الجديد، أو أن تطلب الانفصال، كما أعاد التذكير بنصيحة المتابعة والاستمرار وإمكانية التكيُّف مع الوضع الراهن لأجل الطفلة، فاقتصرت إجابتها عليه بأن زواجه هو شأن خاص به وتصرُّفٌ لا يعنيها بشيء، أما عن ابنتهما فلا تريد لهذا الأمر أن ينعكس سلباً عليها، لذلك ستختار الاستمرار على أن تبقى لها حرية الانفصال في أي وقت تريد كما اقترحت سابقاً، ويكون لها حق الاحتفاظ بالطفلة كما ينص القانون، فأجابها إلى ما أرادت.

كيف لها أن تتكلم بتلك الأريحية، بل ما الذي يجعلني أتقبل طريقتها الجريئة في محادثتي، يا لهالات الغموض التي تجللها، مع ذلك فما ليَ لا أتحرَّج من البوح لها بكثير من مكنونات صدري، ثم ما بال تلك اللذة التي يغتبط بها قلبي كلما أشعرتني بحجارة تتفتت لوقع كلماتها، فتصفو النفس وتسكر بنشوة كامنة غافية بعيدة؟ يا لك من فتاة يا "رها"!

كانت "لبنى" تتفكر في حال الصديقة التي دنت منها لتقول لها بصوت خفيض يمتزج بنبرة متوثبة:

– ستبدي لكِ الأيام صدق شكوكي، لا تظني بأن حرصها على وجودك في مدرستها سيمنع غيرتها منك، إنها ترغب به لنفسها، لكنه يرغب بك لنفسه.

نظرت إليها "لبنى" مُحذِّرة بإشارة من عينيها مع وجه لاح فيه العتاب، لكنه لم يَخلُ من ابتسامة أصيلة وهي ترد عليها:

– ألم أقل لك مراراً أن تحاولي السيطرة على تهورك وجموح خيالك؟

– إني أحيّي فيه ذلك الإصرار وتلك العزيمة، أما عن حُبه، فانظريه كيف ينفث شواظه من نافذة عينيه آملاً بألا تمعني في الصدّ.

– إنني أعامله كما الجميع هنا على حد سواء، لم أنقص من احترامي له ولا للآخرين، ولا يعني اجتماعنا في غرفة المدرسين هنا وتبادلنا بعض الأحاديث العابرة، أو حتى أثناء الرحلات المدرسية أحياناً أني أميزه على أحد أو أشجعه على أمر يعلم بأنه غير متاح ولا مُستطاع.

– يا لك من جاحدة، هل نسيت أم لعلك تناسيت لهفته ساعة هب معي لإسعافك للمشفى عندما غبت عن الوعي هنا في هذه الغرفة منذ أسبوع؟

– إن كان الأمر كذلك فعلى كل امرأة تحملها سيارة إسعاف أن تقع في حب المُسعف، وعلى كل من يبسط يد العون لإنسان أن يطوّق معروفه بقيود المَنّ والأذى؟

– لا تراوغي، فأنت أذكى من أن أنبهها إلى ما تعلم مِن تصرفات مَن حولها.

حدجتها "لبنى" بنظرة أمضى من سيف، ثم قالت وهي تستدرج استفزاز محدثتها التي تعلم طبيعة شخصيتها وكأنها ستفحمها بهذا التذكير:

– كأنك تتغافلين عن حقيقة أني ما زلت على عصمة رجل؟

كانت "رها" على دراية بجوانب كثيرة من المعاناة التي مرت وتمر بها صديقتها، والتي غدت مقربة لها بحيث إنها لم تعد تتحرَّج من أن تجعلها على بيِّنة من الحال فأجابتها:

- إن قبلت بأن تكوني زوجة على ورق، فأنصح بألا تجعلي من نفسك امرأة من ورق، ساعتها سيكون احتراق ما جفَّ أسهل وأسرع.

- ما الذي ترمين إليه؟

- الشرايين بحاجة إلى أمصال تروي ظمأ الروح، وتعيد للجسد حياته، وللنفس حيويتها، ما أقصده هو أن تُقبلي على الدنيا وتصافحي كفها الممدود، واخلعي عنك أسمال البؤس وسرابيل الأسى.

لاح الحزن فوق الوجه الجميل، وخيَّمت لحظات صمت لم تحر "لبنى" فيها جواباً لكنها ترددت بعض الشيء قبل أن تقول:

- أصدقك القول بما أصبحت أرى فيه خُسراناً يفرضه ميزانٌ خَرِبٌ، فيُرجح كفةً لستُ على يقينٍ من عدالتها، ثم أُبخَسُ بعدها حقوقي أمام عينيّ. كنتُ وما زلتُ أحاذر في امتحان النفس، فأضع في الحسبان ما ورد في الأثر قديماً، بأنني لو أرخيت الحبل على الغارب لنفسي فأذنتُ لها بتقبُّل نظرة شهوة من رجل، يكون ذلك ربما لأن زوجي نظر بشهوة في اللحظة ذاتها إلى امرأة أخرى، لذا أمتنعُ خشية أن يختل العدلُ في الغياب، فأَصُون لأُصَان، لكنني أتعجب من ظلم الحصاد، لأجده يبيح لنفسه كلمة غزل يُسمِعها امرأة غيري، وقد يتطور الأمر بعدها فتصبح الكلمة

لمسة، واللمسة قبلة، والقبلة خفقة قلب، ثم تختتم الجولة بعلاقة كاملة يستقوي خلالها بشرعيَّة تُحلل لقلبه ما تحرِّمه لقلبي، بينما أجتر محاسبة نفسي على شبهة لاستقبال نظرة أو كلمة أخشى أن تُفهم كنوع من التشجيع، فأي مكيال هذا؟ لقد تخطى كل الحواجز وتسلق كل الأسوار، بينما لم أتجاوز العتبة، فأعاقَب أنا بينما يُكافَأ هو!

– أرأيت؟

– رأيت ماذا، هبيني وافقتك في احتمال وهو غير وارد، ألا تعلمين بأن "حسين" متزوج، فكيف أقترف أنا ما أنكره على غيري، وأضع زوجته بمكان لا يختلف عن مكاني، ما أبغضها من قسمة وما أقساه من جور.

– كلامك هذا لن يخفف من تهافته عليكِ، أنت تدركين عجزه عن توجيه سلوكه توجيهاً لا يفضح خبيئته، فلا يفوتك صوته كيف يَعذُبُ، ولا ابتسامته التي تروق في حضرتك.

أجابتها "لبنى" بنبرة بدت فيها كالمدافعة عن نفسها:

– وما ذنبي أنا، هل يفترض بي أن أُملي على رجل راشد تصرفاته وأتحكم في مشاعره؟

أجابتها بمكر ومرح:

– لا أقول ذلك بالطبع، اعتبريها إن شئت ثرثرة لا ضرر منها، فلا بأس أن نقطع الاستراحة أحياناً بشيء من تذكير لما يستجد على ساحة القلوب من حولنا.

اقتربت من أذنها مبتسمة لترد بما يشبه الوشوشة:

– يا لك من ماكرة لا يشق لها غبار، لكن تعالي وأخبريني، هل صحيح يا ترى أنها تستميله، وما أدراك أنت؟

– أنا على يقين من معرفتك بذلك فلا تتصنعي جهلك بالأمر، ألا تلاحظين اهتمامها الزائد عن الحد بملابسها وزينتها في الفترة الأخيرة وتهدّج صوتها في حضرته، حتى أسلوبها اللطيف في التعامل معه بات مكشوفاً، لكنه مبتلىً بحظٍّ عاثر أوقعه بين سندان "لبنى" ومطرقة "أروى"، مع ذلك فهو مُجبر على التودد إلى من يعمل عندها، مُتحرياً عدم إثارة انتباهك من جهة، ولا دفعها إلى حماقة التخلص منك من جهة أخرى.

– أترينها قد تفعل وتختلق عذراً لتبعدني عن العمل؟

– لا، لا أظنها تبادر إلى ذلك، في هذه الفترة على أقل تقدير، إنها تخشى من ردة فعله إن اضطرت لتنحيتك، فقد تخسره كحبيب مُفترض، كما ستخسرك كأفضل معلمة عندها.

– ما الذي يجعلك على ثقة من رغبتها فيه؟

– إني خبيرة يا عزيزتي بلغة الجسد، وما تصرح به عيون النساء، خاصة الأرامل منهن اللواتي في مثل سنها، ألا يقال في الأمثال "أعزب دهر ولا أرمل شهر"؟

انفلتت ضحكة من "لبنى" رغماً عنها بعد عبارة "رها" الأخيرة ثم قالت لها:

– سأقولها لك وأرجو أن تعذريني، إنك أحلى وأطيب فاسقة.

ضحكت "رها" من قلبها وأجابتها:

– كل تقريظ من غيركِ مُعتلّ.

في حدود ثلث ساعة تقريباً، قطع بهما القطار السريع المسافة من مطار "هيثرو" حتى محطة "بادينغتون" وسط العاصمة البريطانية، ليستقلا بعدها سيارة أجرة حملتهما حيث مكان إقامتهما في أحد فنادق شارع "بارك لين" الفخمة.

إنها المرة الأولى له التي يزور فيها "لندن"، كانت ليلة من ليالي شهر "مارس"، تصادف أن كانت السماءُ فيها مُلبدةً بغيوم ركامية ثقيلة تنذر بجو مضطرب صاخب، والهواءُ رطباً شديد البرودة، انقض ليلسع وجهه وأنفه وكأنه يُشهر في حضرته بطاقة تعريف مُناخي لهذا الجزء من العالم.

لم تستلزم السيارة التي أقلتهما أكثر من خمس دقائق ليصلا وجهتهما، حيث بدت الشوارع شبه خالية، والمَحالّ التجارية مغلقة، وقد خيَّمت حالة من سكون كئيب تمثلت له كنوع من سبات شتوي مفاجئ، أو ربما خِدرٌ ضرب جسداً ظنه لا يتوقف عن الحركة، وخمول حلَّ بقلب لا ينام، مع أن الساعة لم تتجاوز التاسعة إلا بدقائق قليلة، فداخله إحساس خفي بالانقباض وعدم الراحة، أثار هذا الانطباع الأولي لديه حالة غريبة أسرَّها في نفسه، فهو لا يعلم إن كان بمقدوره أن يصف شعوره هذا بالخيبة أم بالتحطم، لكنه تمنى في لحظة أن يغادر المكان ويعود بالطائرة من حيث أتى بأسرع ما يمكن.

استيقظت "شهد" عند السادسة صباحاً على أصوات هزيم الرعود وعصف الرياح في الخارج وقد ألقت ببعض أحمال السماء لتعانق بها زجاج النافذة بماء منهمر، فأزاحت الستارة عن

مشهد للطبيعة أرجعها إلى عهد الطفولة، فها هو البرق يتخلل سناه أشجار الدلب المُعمّرة وأغصان البلوط والكستناء، غير بعيد عن "ماربل آرش"، ورُكن الخُطباء في حديقة "هايد بارك"، والتي تُشكل في الزاوية القريبة من بداية شارعي "إجوار رود" و"أكسفورد ستريت" جانباً من إطلالة غرفتهما في الفندق، أما "خليل" فما زال مُتكوِّراً بين الأغطية يتلذذ بضمِّ ملاءة أو عناق وسادة، بعد وعثاء السفر.

عند السابعة والنصف هدأ كل شيء، فتوقف المطر، وانقشعت الغيوم على عجل، بينما بسط النهار دفئه للوجود مُلقياً التحية بوهج مُبشِّر، وكأن السماء مدت يدها لتضع كل السحب في جيب، وتُخرج الشمس من جيب آخر، ثمَّ تُعيد طلاء الفضاء بزرقة واضحة.

لم يتعرف "خليل" للحظة الأولى من استيقاظه أين هو، لكنه استعاد كل شيء بسرعة، ها هي "شهد" تبتسم في وجهه بعذوبة بينما تلقي عليه تحية الصباح، اتجه على الفور صوب النافذة، وما إن ألقى النظرة الأولى إلى المشهد الممتد أمام عينيه حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب، فسرعان ما زالت مسحة الكآبة المسائية، وتلاشت حالة الانقباض التي اعترته، واختفى شعور الخيبة والأسى الذي كاد أن يفتك بهمَّته، إنها نشوة عارمة تلك التي غمرت نفسه فأحيتها من جديد وأعادت إليها عنفوانها وتفاؤلها، لقد ساوره شك في أنها المدينة ذاتها التي استقبلته ليلاً، فكيف يجوز لهذه المشرقة أن تقارن بتلك الحالكة، وكيف

يمكن لهذه الشوارع التي ازدانت بحافلات النقل الحمراء الشهيرة، والأرصفة التي غصَّت بأفواج الناس على اختلاف أعمارهم وأعمالهم وتنوُّع شؤونهم وأشغالهم، أن تكون هي ذاتها المقفرة الموحشة البائسة عند العشيّ، وهذا الأفق النباتيّ المُتنوع الذي يبصره أمامه يزيد الجمال جمالاً، وقد توزَّع في أنحاء كثيرة منه العديد من المُتريِّضين ما بين مشي وجري وهرولة، لذا سألها أن تسرع في تحضير نفسها للخروج من أجل تناول إفطارهما خارج الفندق، فأجابته إلى ذلك بسرور.

دفعه إحساسه المنبثق الجديد من الحيوية لاستكشاف بعض المناطق مشياً على الأقدام، حتى وإن كانت بعيدة إلى حدٍّ ما، هذا ما رغب به وأثنت عليه، فهي الآن خير مرافق وأجمل دليل، لذا لم تختر واحداً من المطاعم العربية التي يشتهر بها "إجوار رود" بل تابعا مسيرهما بخط مستقيم حتى نهاية الشارع قرب تقاطع محطة "بادينغتون" على يسارهما، وبمرور الوقت بدأت تغيب الرموز العربية عندما انعطفا يميناً باتجاه "ماريلبون رود" وحتى وصولهما حديقة "ريجنتس بارك" حيث اقترحت عليه تناول وجبة الصباح في مطعم صغير وسط الحديقة بين الأشجار مبني على شكل كوخ وكأنه في غابة لا تعترف بأبنية المدينة التي تغيّبها مساحة الحديقة الكبيرة وأشجارها العالية، فاختارا واحدة من الطاولات الخارجية التابعة للمطعم في الهواء الطلق وجلسا إليها، حيث بادرته بالسؤال:

– ما رأيك بهذا المكان كخيار لبداية يوم؟

– إنك كما الماء لكل شيء حي، وكل مكان يحتويك جنة.

ثم سألته بعد أن أحضرت النادلة وجبة الإفطار، فباشرا تناول الطعام، بينما شرعت بإلقاء فتات الخبز لبعض الطيور التي اقتربت منهما في الوقت نفسه:

– هل تبدلت نظرتك حول المدينة في هذا الصباح؟

فأجابها وقد طفح وجهه بالبشر:

– تعلمين بأني أحببت "لندن" لا لشيء سوى أن ربابها يمر بطيفك، وأمطارها تزور جنَّتك، وخُضرتها تزهو بقربك، وصباحاتها هذه تنتعش بأنفاسك، وكأني أصغي إلى طيورها تشكرك بطريقتها.

ردت عليه منتشية بكلامه:

– ما أسعدني بك.

– بل ما أعظم سروري وأنا أمشي معك صباحاً بينما كنت أطالع بقلبي واجهات المحال التجارية فأرى صورتك وقد انعكست على زجاجها، لكن ما أثار عنفوان روحي أني كنت في تلك الصور بقربك، شريك الحُسن، كفّي يضمّ كفك، ذراعي لصق ذراعك، فأراقبك بلحظ المتيّم المفتون لأذوب في تكامل الجمال، انظري حولك، كيف أنَّ السناجب تقفز محتفية بقدومك، وتلك البجعة كأني أراك في ريشها الأبيض عروساً تتهادى بثوبها الناصع فوق صفحة البحيرة، أما عن أسراب الغربان هذه بسوادها الفحمي فلا غرابة أن تقترب منك دونما خشية، يا لجرأتها وثباتها، تُصرُّ على الدنوّ، تنتظر من الفاتنة أن تغذوها خبزاً باركته أناملك.

ثم سألته وقد بدت نبرة صوتها كالمُذنبة:

– أتُراني آثمة يا "خليل"؟

– حُبّاً بالله، لا تقولي عن نفسك ذلك.

– لكني فعلت، فكيف تصفو الحياة بغصّة تُبكّت، وكدر الذنب؟

– لا يا حلوتي، ما كنتُ ظالماً في يوم ولن أكون، ولستِ أنت كذلك، إنَّ ما أجنيه هو حصاد بذارها، ولا أتحدث هنا عن حبي ولا اقتراني بك، بل عن التمثال الذي نحتته ببرودها،عن الكيان الذي كادت أن تستلب رجولته، إني أحترمها وأودّها بحق، لكني لم أخلق بلا قلب!

غلبتها طبيعة الأنثى فيها، فتجاوزت التحفُّظ لتسأله:

– فهل تراني بُعثت إليك بديلاً عن فاقد يملأ الفراغ، لعلّي أكون حبيبة المصادفة؟

– هل تريدين نحري بكلماتك هذه، لا أراني ولدتُ إلا لألتقيك، حسبي أنك مررت بوجودي، فلا تستقبليني بما يُنهك ويُهلك؟

– اعذر خشيتي من ظلم لا أريده أن يحلّ بنفس لم تقربني بسوء، فأجازيها بما لا تستحق في غفلة منها وتجاوز مني.

– صدقيني بأن الأمر سابق على وجودك في حياتي، فالنتيجة كانت حتميَّة، إننا منفصلان بالفعل كما أعلمتك من قبل، لا يربط بيننا سوى اتفاق بالتراضي لم أغبنها فيه حقاً، والأمر متروك لها، لم أُملِ عليها تصرّفاً، إنما هي في الخيار،

إن شاءت المتابعة مع الوضع الراهن أو الرحيل في اللحظة التي ترغب بها، لكنها آثرت البقاء من أجل ابنتنا للفترة التي تراها مناسبة، فأرجو منك ألا تفكري في الأمر بتلك الطريقة، ولنعش حياتنا كما نستحق.

إنها تعلم يقيناً بحبه الخالص لها، وهي أحبته كذلك، لكنها لم تستطع أن تتخلص تماماً من ذلك التأنيب الذي يهمز مُحذراً نفسها من أن تقرّ لفعلتها، فتارة ترى أنها مُغتصِبة، مُشتِّتة، مُخرِّبة لعماد أسرة، مُعتديةً، مُختطِفة، مُستحوِذة أنانيّة، وتارة أخرى ترى أنها تصدُّ عن نفسها من خلال هذا الحق في حبّ استأذنت واستعلمت مُسبقاً عن ظروفه قبل أن تتذوق رحيقه، فأحيطت بواقع الحال وتعرفت إلى "لبنى"، كما زارتها برفقة "خليل" لمرات عديدة، تقصدت في بعضها أن تلمح إلى مدى العلاقة التي تطورت بينها وبين زوجها بشكل شبه صريح، فأدهشها عدم اكتراثها للأمر وكأنها تعيش حياة منفصلة تماماً عن رجلها، للحدِّ الذي أصبحت تعامله كمستأجر يقاسمها شراكة المكان، ما ساعد في التخفيف من ذلك الإثم الهامس المُستعمر الذي ما انفك يعنِّف ضمير "شهد" بين الحين والآخر، فتراه يسعى إلى التهافت لاستمالة أيّ بند أخلاقيّ جائز، قد يمحو عنها شُبهة اللصوصيَّة والغدر!

ثلاثُ سنوات أخرى تنقضي، تترقى فيها "لبنى" لتصبح المُعاونة الأولى لمديرة المدرسة، تُحدثُ فيها بعض التغييرات البناءة الملحوظة، حيث أدخلت بعض الأساليب التعليمية التي

كانت تُخلف وقعاً لطيفاً مُحبباً لدى نفوس الطلبة والطالبات، كدمجها لبعض الألعاب المختلفة لتأتي ضمن سياق عروض تمثيلية مسرحية، تقوم فيها بدور الكتابة والإعداد والتدريب، من خلال انتقائها لنصوص مُبسطة تستند إلى مضمون تربوي توجيهي فعال، ولغة سليمة، وأداء حركي وإيمائي نشط، غذاه عشقها لذلك النوع من الفن التعبيريّ الرَّاقي، فقدَّمت الفائدة المعرفيَّة في إطار من المُتعة والتسلية، وتقدَّمت بثبات لتستحق الجوائز التي نالتها بجدارة في مسابقات عديدة خلال سنوات عملها الدؤوب، منها جائزة على مستوى دولة الإمارات ككل، تتعلق بنُظم إدارة وتطوير المسرح المدرسيّ.

ازدحمت تلك الفترة بوقائع كثيرة أحدثت ما يشبه اختراقات لأجواء الرتابة التي كانت تجيد التملص منها، وهي المطبوعة على حب المعرفة، وإشباع ملكة الاستكشاف، والسعي إلى الارتقاء بالذات، فهي لم تكن في يوم من صنف النساء اللواتي يَقرْنَ إلى إملاءات تبدو في ظاهرها ناعمة، غير مباشرة، تُلزمها بنمطيَّة لا ترضاها، فلم تُرخِ القياد لإيلام الجرح الأخير كي يسلمها إلى يأس ترفض الانصياع لأحكامه، بل صيّرته كعامل يذكي روح التحدي والتنافس، وتوكيد شهادة تقرّ باستثنائية تميزها عن كثيرين، في أسلوب إدارتها لحياتها الأسرية الغائمة، والأخرى المُوازية المهنية العملية، التي أزهرت براعمها بصنوف من عطور الثناء المفعم بالتشجيع والاستحسان.

امتلكت سيارتها الخاصة، وحساباً مصرفياً شخصياً كذلك،

إضافة إلى جمهور كانت تتريث في اصطفاء نقبائه، من زملاء وزميلات العمل، وصداقات تحكمها اعتبارات محددة، فداعبها شعور بالراحة والطمأنية، يشوبه بعض القلق المجهول، ربما لانشغال فكرها البعيد بمستقبل ابنتها الوحيدة، واستعدادها المبيَّت المتنامي لاختيار التوقيت المناسب الذي ستنفصل فيه قانونياً عن زوجها "خليل".

تلك الخشية من مستقبل مشوَّش المعالم، وذاك القلق المُبهَم، دفعاها للإقدام على خطوة جريئة لم تتردد في خوض غمارها، حيث بادرت إلى زيارة بعض الأسواق المتخصصة ببيع الجملة في مدينة "دبي"، تشتهر ببضائعها المستوردة من دول كالصين، والهند، وباكستان، وأسعار ضمن مقدرتها الشرائية، منها سوقي "نايف" و"السطوة" لتبتاع أنواعا مختلفة من المشغولات المطرزة، وأغطية سرائر النوم والمفارش والوسائد، اقتصرت على كميات اختبارية لغرض الإتجار بها، كلما أتيحت لها الفرص بزيارات إلى "سوريا" أو "الأردن"، وجنت من وراء ذلك بالفعل بعض الأرباح التي أثارت غبطتها وقوَّت من ثقتها بنفسها، غير أنها اكتفت بما حققته من تلك التجربة العابرة، كي تتيح لنفسها التفرغ لمسؤوليات مستجدة طارئة أخرى، حيث تشاء المقادير أثناء زيارة لها لواحد من تلك المتاجر الكبرى، أن تصغي عرَضاً إلى حوار كان يدور بين صاحب المتجر وضيف له، يبدو في الخامسة والأربعين من عمره، رجلٌ تكلله هالات من الهيبة والوقار، كان يجلس إلى كرسي بجانبه، يمسك بيده عكازاً، بينما لُفَّت ساقه

اليسرى بجبيرة، ميزت من لهجته أنه إماراتي الجنسية، كان يتكلم في مواضيع مختلفة، كحادث انزلاقه في حمام المنزل، وتعرضه لكسر شعريّ خفيف في عظمة الساق، والجزء المهم الذي أثار انتباهها من حديثه الذي أشار فيه إلى اضطراره لأخذ إجازة من عمله في إدارة المسارح ريثما يتماثل للشفاء، فلم تتردد بعد إلقاء التحية عليه أن عرَّفته بنفسها وعملها، كما أخبرته عن ولعها وشغفها بكل ما يتعلق بفنِّ المسرح، وأمنيتها في أن تتاح لها الفرصة من أجل تقديم الكثير من الأفكار التي تحملها في جعبتها، تلك المتعلقة بذلك العالم الذي يستهويها، ومحاولاتها لتطوير وترويج مسرح الطفل على وجه الخصوص، كما أنها لم تنسَ أن تسأل الله له الخير والسلامة، وأمنياتها الطيبة الصادقة بالشفاء العاجل، فرحب بها مبتسماً ومشجعاً، وعرّفها بنفسه، بأنه الدكتور "ناصر برجيلي" مستشار ثقافي، ومندوب في هيئة المسرح العربي، كما دوَّن رقم هاتفها لديه، ووعدها بالتواصل معها لأجل ذلك في أقرب فرصة، وذلك ما حدث بالفعل، فبعد أسبوع تقريبا وأثناء فترة انشغالها في العمل، تتلقى اتصالاً من سيدة قدمت نفسها على أنها سكرتيرة الدكتور "ناصر" والتي أبلغتها بموعد للقائه في مكتبه، عند الساعة العاشرة من صباح يوم الأحد القادم.

أثناء مقابلته لها يطلب منها الدكتور "ناصر" أن تجري اختبارات في اليوم التالي على خشبة مسرح "الشارقة" للفنون، لغايات سبر الصوت والنطق واللغة والثقافة، ومستوى "كاريزما"

الحضور، وأسلوب تقديمها للأداء المسرحي، سيشرف عليها أساتذة متخصصون، وستكون واحدة ضمن مجموعة من الهواة.

في اليوم الموعود، شدت إليها أنظار واستحسان المدربين، للمستوى الاحترافي المثير للدهشة، والانطباع الإيجابي الذي خلفته في نفوسهم، بعد أن استعرضت بعض المواد التي جهزتها مُسبقاً، وللمقاطع التمثيلية التي طلب منها تأديتها، والتي كانت عبارة عن مشاهد قصيرة مقتطعة من نصوص مسرحية متنوعة، مكتوبة بلغة عربية فصحى تستلزم فهماً كبيراً، ونطقاً سليماً، وأداءً يتلاءم واختلاف الشخصيات وتغيرها في كل مرة، فأذهلت الحضور من مدربين ومتابعين، على قلة عددهم، بروعة وسحر ما قدمت من مشاهد اختلطت فيها تعابير متباينة أجادت تقديمها ببراعة، تنوعت بين غضب، وضحك، وحزن، وقنوط، وقسوة وغيرها، فشكل ذلك اليوم حدثاً مفصلياً إضافياً ساهم في ارتقائها درجة أخرى في سلم النجاح والتفوق.

نالت أجرها الأول عن عملها الإضافي في مجال المسرح بعد أربعة أشهر من تلك الاختبارات، عندما أسندت إليها مهمة انتقاء وتدريب مجموعة من الأطفال لتقديم عرض مسرحي، وهذا ما كان، حيث لاقى العرض صدى إيجابياً للدرجة التي قام فيها مخرج العمل عند انتهائه بتقديمها وتكريمها أمام الجمهور الذي عبَّر عن رضاه من خلال وقوفه وتصفيقه مُطولاً كنوع من الرضا والثناء والتكريم للجهد المبذول.

إن أقبح جباية للورد حين يُجازى بجناية الدهس ووأد العبق،

عن سابق تصوُّر وتصميم، غِلّاً وغيرةً وحسداً من عند أنفس ملوَّثة، ومن اعتاد طبائع البشر يعلم يقيناً بأنّ لكل نجاح ضريبة لا بُدَّ وأن تُقتطع من حصاد السعادة وتُسلب من بيادر المجد، لذلك فلا غرابة أن ينمو عفن الكراهية في سواد تلك الأنفس المُتحيِّنة لكل انقضاض يكشر عن كراهية عميقة، فمنذ اللقاء الأول الذي جمعها مع "لبنى" صُدفة، في غرفة وحضرة أمها السيدة "أروى" مديرة المدرسة، وأثناء زيارة عابرة لها، تبينت الاعتلال الواضح في شخصية "جالا"، خريجة كلية الفنون الجميلة، بعد الحوار الذي تقصَّدت اختلاقه مع "لبنى"، عندما سألتها بخبثٍ كيف تستطيع المواءمة بين عملها الأساس في المدرسة، وبين عملها الإضافي المُتقطع في المسرح، وهل تستطيع أن تحقق انسجاماً بينهما، بحيث لا ينعكس الآخر الذي تراه هامشياً على عملها الرسميّ سلباً وتقصيراً؟

ليس من العصيّ على "لبنى" أن تتحرى المعنى الكامن ما بين السطور، فرسالة التهديد المبطنة تلك لم تكن لتعجزها عن الرد، غير أنها انحازت إلى ما هو معلوم عن خصالها من حلم وأناة، لتختار كلماتها بحكمة تتوخى من خلالها عدم إثارة ضغينة السائلة، خاصة في ذلك التوقيت، فلم تشأ أن تُستجَرَّ إلى مواجهة ليس هذا أوانها، فأجابتها من خلال ابتسامة جهدت ألا تخرج مُتكلفة: "بل على العكس، فكل تجربة وخبرة في ذلك الجانب تصبُّ في المصلحة العامة للمدرسة، إنَّ عملية الارتقاء بمستويات التدريب، ودعم النشاطات المختلفة، تتيح الفرصة

لترشيحات مستمرة تكون للمدرسة فيها الحصة الأكبر لاحتمال الفوز في منافسات متنوعة، مما يعزز سمعتها، فتعلو مكانتها ويشيع اسمها، وترتفع أسهمها جراء ذلك".

ردت "جالا" بسرعة: "لكنها تصبُّ في مصلحتك أيضاً".

نظرت إليها "لبنى" تطالعها باستغراب ودهشة، فلم تجد بُدّاً من أن تردَّ عليها قائلة: "هل من العيب أن يعمل المرء لمصلحته، ومَن منَّا لا يفعل؟ إنَّ تبادل المصالح ضرورة اجتماعية معيشيَّة، خاصة تلك التي تنمّي الخير وتنشر الفضائل وتقدّم المعرفة، كونها ترتدُّ بالنفع على الفرد والمجتمع، ولا أظنه من المنطق بشيء أن يعمل المرء ضدَّ مصلحته، ضمن المفهوم الذي ذكرته".

تدخلت السيدة "أروى" على الفور، في سعي منها لقطع الطريق على ابنتها التي تعلم، وفي محاولة لثنيها عن متابعة استفزازها الذي لا تأمن عواقبه، فتصنعت نبرة مرحة وهي تعقب على كلام "لبنى" قائلة: "كل فوز ومكسب وخير لـ "لُبنى" يُسعدنا ونفخر به، ولنا منه نصيب كبير".

اكتفت "جالا" بتلك البداية بعد ردة فعل أمها، لكنها أضمرت في نفسها استعداداً لاستعداء قد يطول، فواقع الأمر المستجد الذي علمت به "لبنى" بعد مغادرة الابنة، أنَّ والدتها قررت إشراكها في أمور الإدارة كمستشارة للعلاقات العامة والموارد البشرية في المدرسة بدوام غير ثابت، تتابع وتتعرف بمرور الوقت إلى شؤون وكيفية إدارة مُلكيَّة العائلة في حال حدوث أي طارئ، كما أفردت لها مكتباً من أجل ذلك تستخدمه من حين لآخر في أوقات

زياراتها، كونها تستأثر الفسحة الأكبر من الوقت لأعمال الرسم وانشغالها بالاستعداد للمشاركة في معارض فنية قادمة تستلزم منها تحضير لوحات تعمل على إنجازها في قسم خاص ملحق بالفيلا التي تسكن فيها مع أمها، أعدته كاستوديو منفصل لها.

لقد وُلدتْ فتاةً مُدلّلة، تمتلك المَسكن المريح والسيارة الحديثة، تبتاع أفخر الثياب والحُليّ، لا ينافسها أخ أو أخت على مكانتها عند أمها، تعيش حياتها باستقلالية مميزة، لكن حدَّة مزاجها وسوء سلوكها وسلاطة لسانها، خلفت عكراً يشوِّش على جمال وجهها وتناسق قوامها، فلا غرابة أن تتخلَّق بنفس نزَّاعة للاستحواذ وعشق للتملك يتولد عن أنانية مُفرطة.

كانت تزور المدرسة في فترات متباعدة، تعرفت فيها بشكل عابر إلى أعضاء الكادر، فلاحظت بمرور الأيام إشادة الغالبية منهم بالمستوى الثقافي العالي والأداء المُلفت والحسّ الإبداعيّ الذي يميّز "لبنى" عن البقية، كما استرعى انتباهها الحماس الزائد في أسلوب المديح الذي أتى على لسان الآنسة "رها"، حيث كانت تستفيض بالثناء على صديقتها بنفحات من الحب، ما أثار حفيظة "جالا" التي كتمت انفعالاتها، في الوقت نفسه الذي انجذبت فيه فجأة إلى طريقة حديث الآنسة "سدرة" مدرسة اللغة الإنكليزية، ورأيها الذي حاولت أن تصيغه على أنه حيادي، لكن كلماتها كانت تقول بغير ذلك، فهي ترى أنَّ أكثر المديح يأتي من باب المجاملة، ومسألة تدريب طفل على أداء حركي أو تمثيلي لا يُصنَّفُ ضمن الخوارق، بل يُعدُّ من الأمور

البسيطة لأنه في ذلك السن المبكر يكون مطواعاً كعجينة لينة تشكلها كيفما شئت، بينما تلعب المصادفة دورها في أن تضع إنساناً ما في موقع المسؤولية عن ذلك الواجب الاعتيادي، ولا فضل لمُعلّمٍ أو مُعلّمةٍ في تنفيذ التزامٍ واجبٍ يقتضيه ويتضمّنه عقد العمل!

"هذه هي"، رددت "جالا" بينها وبين نفسها، لم يفتها مكر المُتحدثة ولا إشارتها، ولا حتى توريتها للخدمات التي تعرضها بطريقة غير مباشرة، فاتخذت قرارها بأن تجعل منها عيناً لها، وتمَّ لها ذلك بالفعل!

آثر أن يبكي في حضرتها هي، ولم تؤثر صدَّه عند لحظة خطبٍ وجدانيّ مُشترك، فلم تكن على غلظة قلبٍ أو فظاظة خُلق، مع ذلك، رَنتْ إلى نفسها برهة تُقلّب الأمر، لا أخاله أتى ساعياً لصفح أو راجياً لإصلاح ذات بين، فلا هو يرغب في ذلك ولا أنا أريد، وما تلف لا يمكن ترميمه، أتُراهُ سعيٌ لاختبار سخونة وبرودة، لعله جعل لكلِّ عينٍ مَصبّاً لعزيز الدمع، فـ"هذا عذبٌ فراتٌ، وهذا مِلحٌ أُجاجٌ"، هنا يذرف الحزن في صومعة النُسك، وهناك إن تساقط القَطر وفاض الشهد ففي مَخدعٍ للسعادة. لكنها عزمت على ألا تغيّر واقعة اليوم من المسلك الذي ستتخذه كطريق لها لمتابعة مسيرة حياتها وابنتها.

سألتها طفلتها "سيرين" التي شارفت على العاشرة:

– ماما، لماذا تبكين أنت وبابا؟

أمسكت بكفّي طفلتها الغضتين، احتوتهما وأخذت تقبلهما

بحب، ثم أجابتها وهي تنظر في عينيها برحمة وابتسامة من ذلك النوع المغلف بالحزن:

- حبيبتي، أنت تعرفين "تيتة عنايت" صح؟

- "تيتة أم خليل" أم بابا صح؟

- نعم حبيبتي، "تيتة أم خليل"، ماتت اليوم الصبح - الله يرحمها-.

لفَّ الصمت الطفلة للحظات وكأنها لم تستوعب الكلمات، إنها في مرحلة عمرية قد تتفهم بعض المعاني، لكنها مع ذلك، أحست برهبة عندما تلقت كلمة الموت مستحضرة عنه شيئاً من التصورات المُسبقة المخيفة، فسألت أمها وقد اغرورقت عيناها بالدموع فجأة، دون أن تعي حجم الحزن المحيط، والذي يتجاوز وفاة الجدة:

- وهل سنسافر إلى "سوريا"؟

أجابتها وهي تتحاشى النظر ناحية "خليل":

- لا حبيبتي، بابا سيسافر لوحده.

- ونحن، لماذا لا نسافر معه؟

أقبل الأب على ابنته في حالٍ من التداعي، ثم ضمها إلى صدره برفق، بينما أخذ يقبلها بحنان وقد بللت دموعه وجنتيها الطريتين، رد عليها بصوت متهدج النبرات عطوف:

- لا يجب أن تنقطعي عن مدرستك حبيبتي، وماما أيضاً، لا تستطيع أن تترك عملها الآن، لكن أعدك بأننا قد نسافر عند بدء عطلتك الصيفية، وتذهب ماما معنا.

اختارت عدم التعقيب على جملته الأخيرة، فهو يعلم يقيناً بأنها لن تسافر معه إلى أي مكان بعد الآن، ليس ذلك فحسب، فحزنها الصادق على الراحلة، ومحبتها الخالصة لها، واحترامها لما يرافق أجواء الموت من مشاعر إنسانية نبيلة تثيرها اللحظة، كل ذلك تقدره وتحترمه، لكنه لن يقف حائلاً أمام قرارها الذي اتخذته بالانفصال عنه بعد أن تنقضي فترة الحداد، وتجد الفرصة المناسبة لذلك.

بعد انقضاء أسبوع على رحيل والدته وتقبُّل واجبات العزاء، اجتمع الإخوة في منزل العائلة في جو خيَّمت عليه علائم الحزن، لكن ذلك لم يمنع "زاهد" من أن يقترح عليهما من باب النصيحة، ومن بعد التسليم بقضاء الله وقدَره، ولأجل استمرار الحياة وعدم تعطيل أعمالهم كما برَّر لهما، أن يُشرَع في توزيع التركة واغتنام فرصة وجود "خليل" بينهم، فعرض عليه أن يشتري حصته من البيت والمطعم، وكذلك حصة أخته "وصال" التي استقرت في بيت زوجها منذ فترة، فوافقا على اقتراحه، على أن يتمّ استلام نصف المبلغ فوراً، بينما يتم تسديد ما تبقى من الحصة خلال السنتين التاليتين، فحياة "خليل" الجديدة ساعدت بمرور الوقت وأثر العادة في قبوله لهذا العرض، كما روَّضت تصاريفها ابتعاده بشكل متدرِّج عن بيئة خلت من أمّه وأبيه، وللحقيقة، فلم يعد يربطه شيء بالمدينة الأولى والمهد الأول سوى بعض الذكريات التي أطاحت بنضارة ألوانها رياح الأقدار، فعمله الذي يعتاش منه بعيد عن هذا المكان، ودثارٌ من أسرة كانت، وحيِّزٌ حيٌّ من شريط جيناته لا يستطيع له لفظاً، وما تبقى له من جذوة تترقَّب

يتأجج بها خافقه المُجندل بأغلال النباتيَّة، فـ "زاهد" لم يصبح إلى شيء لم يألفه، كما سكنت نفس شقيقته الرقيقة إلى شريك الرحمة والمودَّة، كل ذلك لم يكن لينقص من محبته لهما، أليست هي الأيَّام وفروضها؟

وهل يجوز لـ "وصال" أن تعارض ما صُوِّر لها على أنه ناموس عدل وحُسن تدبير اقتضته الضرورة، وحكمة في اتباع سُبُل الرشاد، فإن كان التردُّد سيجد له منفذاً إلى نفسها، ألجمت سرعة قبول الأخ الأكبر أي احتمال لرأي آخر تراه، فأذعنت بصمت كالبكاء، لكنها أحست بشعور مُنفر غريب حاولت أن تدفعه بعيداً، فخاب مسعاها، كيف اقتحمت فجأة صورة زوجها العزيز "مُناف" حلَّت متجسِّدة أمامها، قد بدت ملامحه أكثر إشراقاً ورأفة، بينما أخذت تتضاءل في الوقت ذاته صورة الأخوين، نعم، لن تمانع، ولن تُسعر ناراً!

لم يرغب في توجيه أسئلة لأخيه كيف اجتمعت له تلك المبالغ التي يستطيع من خلالها شراء حصتيهما، نعم، لقد عُرف عنه الحرص، لكنه رغم ذلك استبعد الشك في نزاهته، إنه وأخته يعلمان مدى تعلقه بالمال، وبذله الجهد في سبيل تحصيله وعدّه وجمعه رُزماً وتكديسه لُبداً، وهو المطبوع منذ صغره على منهج الاقتصاد ومسلك التوفير وسياسة التدبير وترشيد النفقات للحد الأدنى، ولم يكن مألوفا عنه بسط يده كل البسط، بل كان معروفاً بجعلها مغلولة إلى عنقه، فيظن بذلك أنه سيأمن غوائل القعود وينجو من كل لوم أو حسرة!

أنت تقصد "بشير صوفر"؟

هزه الخبر من أعماقه حُزناً، عندما أعلمه "زاهد" بالحادث الذي تعرض له صديقه الأثير، صديقه الذي أبعدته ملذات حلوة أدمنها بتعوّد فتاك، أغشت منه البصر حتى عن متابعة أخباره والسؤال عنه، فمنذ ثمانية أشهر وأثناء زيارة عمل كان يقوم بها "بشير" إلى "لبنان" لغايات تتعلق بعمله، ولأجل تغطية بعض الأحداث التي كانت تعصف بالبلد هناك، يُدوِّي صوت انفجار كبير يطيح بواجهة المبنى الذي كان ينتظر في المقهى القريب منه، حيث كان ينوي إجراء لقاء صحفي مع زعيم سياسي يترأس أحد الأحزاب الكثيرة المتناحرة على بقايا الكعكة المحترقة، لم ينل التفجير من الشخصية المستهدفة، لقد تغيَّب النافذ عن الاجتماع المُزمع عقده عند ساعة محددة من صباح ذلك اليوم المشؤوم، حيث ترددت همسات تشيع السبب الحقيقي لتخلفه تقول بزيارة أخرى بدت أكثر أهمية قام بها الرجل متجاوزاً خطة العمل، تتمثل في دعوته لسكرتيرته الجديدة كي تشاركه إفطاراً استثنائياً خاصاً في استراحته الفخمة القابعة فوق واحدة من تلال العاصمة، ينجو الزعيم ولكن لم تكتب الأقدار النجاة لعيني "بشير" الذي فقد بصره بشكل كليّ، كما أطنَّ الانفجار ثلاثة أصابع من يده اليُسرى، وبُترت ساقه اليمنى من فوق الركبة، فانتشلته فرق الدفاع المدني من بين الدخان والدمار والأتربة أنقاضاً من بين أنقاض، وركاماً من تحت ركام، ليعود بعد اختباره لجولات مريرة تجرع فيها صنوفاً من الآلام بين مشافي "بيروت" إلى بلده ومدينته وبيته في

"اللاذقية"، مخلفاً وراءه بضعة من لحمه وفُتات عظامه وضريح مستقبله، بينما تأبَّط في رحلة الإياب فجيعة صراع عبثيّ حاول توثيق جنونه، فأمسى إلى قهر عتمة طويلة، ودامس ظلمة ثقيلة.

عند المساء وبعد أن قرع جرس الباب، استقبلته السيدة "ألفت" بعبارات من الترحيب والمودة الصادقة، بينما ارتسمت ابتسامة تشبه كل شيء إلا السعادة، حاولت من خلالها أن تواري حزناً جاثماً، بدت للوهلة الأولى كستارة مسرح انزاحت برتابة لتفسح له الدخول البائس، من أجل متابعة العرض المُضني، والمشهد التراجيدي خلفها لزوجها "بشير" بتكوين جسدي آخر، واقعيّ جليّ غير مسرحيّ، أصر على النهوض بمساعدة عكاز وساق واحدة لاستقبال صديقه، قد ارتدى نظارة غامقة على عينيه أخفت ما يخشى استدرار عطف أو استثارة شفقة من أحد لو عاين طمسهما وتبدُّل ملامح وجهه، كل ذلك لم يفقده نبرة حاول فيها أن تزفر لوناً من التضاحك المرح وهو يقول: أهلاً ومرحباً بالكاتب الغائب، مرحبا بك "خليل".

سارع "خليل" إلى عناق صديقه بحب صرف، تعتمل في نفسه مشاعر مختلطة كثيرة، ميَّز منها الإحساس الطاغي بذنب الجحود والهجر والنسيان، حتى وإن تبرَّأت أفعاله من نيَّة القصد السيّئ، لكنها استعمرت وجدانه غازية مُقرّعة مُؤنّبة، فأجابه قائلاً: سمّني ما شئت وانعتني بما أستحق، ألحقني بزمرة الآثمين، لن أدفع بتبرير سقيم، أو أتّقي بأكذوبة تُشين، أنا بين يديك، ولك أن تقتصَّ.

– لا يا صديقي، هوِّن عليك، فما كنت لأفعل، كيف لا أجد لك الأعذار وما يمر بنا أعظم من أن يُطاق؟

استأذنت السيدة "ألفت" بلباقة منهما بينما اتجهت نحو المطبخ، كي تتيح لهما مساحة من الراحة في الكلام، ولتعد وجبة عشاء.

لم يُرزقا ذرية بعد فترة زواج امتدت ثلاث عشرة سنة، لخلل في إفراز الهرمونات لدى الزوجة، لكن ذلك لم يكن ليؤثر سلباً على علاقة الحب بينهما، فاعتادا بمضي الوقت على تلك الحياة، مع أنها أحلَّته من كل التزام بالمتابعة وسألته إن شاء الانفصال عنها والاقتران بامرأة أخرى قد تنجب له طفلاً من عطاء خير الوارثين ليرفل متلذذاً بمشاعر الأبوة ولا يُذر فرداً، لكنه كان يرفض بشدة مجرد التلميح إلى طرح ذلك الاقتراح الذي يُشوِّه وشائج القناعة ويعكر نسائم الرضى، إنها خير الزاد في هذا التيه الضارب المظلم، أما الآن، تتبدل الأدوار ليُحلها هو كما أحلته هي من قبل من أي رابط قد يُفرض بسلطان الخجل، فيأتيه الرفض مترافقاً بسيل من الدمع غزير.

– كل استحقاق لمجد يُكلل مسيرتك يليق بك يا صاحبي، إني أتابع ارتقاءك بشغف وفخر، نجاحك يفرحني، وتألقك يزيد من ثقتي بما تملك.

– ما أطهر قلبك يا "بشير"، لقد غفلت عنك وعن كثيرين، لن أبرئ نفسي، لن أبرر تلوثها، وحق لك ألا تقيل لي عثرة ولا تعفو عن خطيئة.

– لا تكترث لإملاءات الأحوال، إنما هي أتاوات تؤدى، وشيء من النسيان لن يدنس نقاء السرائر، أنا أعلم من أنت، ولا يؤتى من هو مثلك بطعن في نبل مقاصده حتى وإن تلهى بانتشاء جاذب.

رفع "خليل" رأسه بهدوء، نظر في وجه الرجل ثم سأله:

– أنت أقوى وأذكى من أن أسألك بمواربة، وأنا على يقين من تقبلك الطرح على بساطته، لن أعرّض للأمر بسذاجة مملولة تعلمها، بل سآخذ بالمباشرة اللائقة بك وبي، كيف تجد حالك بعد الذي وقع عليك، ما شكل الوجود بعد فقدانك نعمة الإبصار، لا تتردد في انتقاء الوصف الذي ترغب، علمني بالله عليك يا "بشير"، كيف تفهم العيش في عالمك الآن؟

بعد لحظة صمت، تلمس وسادة إلى يمينه فتناولها وألقاها في حجره، ثم أجابه بعد أن عدل من جلسته قليلاً:

– فلتعلم بأني اختبرت الكثير من التصوّرات والاحتمالات خلال الأشهر القليلة الماضية، وأصدقك القول بأنه لن يتعرف أحد أبداً نعمة البصر إلا من يفقده، سألتُ نفسي مرَّة لو أن قوة أمنية طاردت سيارة رئيس عصابة عالمية لتجارة المخدرات، هارب من حكم قضائي عقابيّ بالسجن لعشرين عاماً، يحدث أن تنقلب سيارته وتشتعل فيها النيران، يصاب بحروق متفاوتة تشوه أجزاء من جسده، كما تبتر قدميه ويفقد بصره، فما هو الأفضل بالنسبة للعدالة بعد أن يتلقى علاجات تبقيه على قيد الحياة ويخرج بعدها من المشفى على تلك الحال، هل يفترض أن

تعيده العدالة إلى السجن لينفذ بقية محكوميته، أم يتوجب تركه لمن يستطيع تحمل شؤونه من أهله، وبذلك توفِّر المصروفات المحتملة لرعايته كي تدخل خزينة الدولة، خاصة أنه لن يستطيع التحرك ولا التصرف كما كان عليه في السابق؟

صمت "خليل" برهة، ثم أجابه:

- أعتقد في هذه الحالة، يجب علينا ألا نغفل بأنَّ قُدرة الصانع تُعجز وَهمَ قُدرة المصنوع في موازنة الثواب والعقاب، فتُدهشُ مُقرَّ القانون الوضعيّ، كي تتنبهه إلى محدوديَّة التصوُّر العقابيّ لما وثق بما وضع ورَكَنَ راحة إلى ما أقر من دساتير.

- هل ينطبق ذلك على الأخيار والأشرار على حد سواء؟

- بالطبع، هب أن سلطات مدينة تبدو مثالية فاضلة، قررت أن ترفع تطبيق القوانين لمدة شهر واحد فقط، ليُترك الناس على حرّيتهم في التصرّف تبعاً لمشيئتهم الكاملة، دون تدخّل ولا رقابة، ولا عقاب ولا حساب أبداً من أي قوة رادعة، كالشرطة والقضاء، بل وحتى كاميرات المراقبة في أرجاء المدينة، وكلّ ما قد يشكل حرجاً لأيّ تصرُّف قد يُلجم الإرادة ويوجّه النوايا أيّاً كانت، فما النتيجة التي ستحدث خلال ذلك الشهر في المدينة التي كانت تبدو للجميع أنها فاضلة؟ شريطة أن يتم استفتاء على قبول الأمر من الجمهور بالموافقة على تطبيق ذلك أو على رفضه.

- عندها، أظن بأن نسبة المكفوفين والمشوهين ستزيد، ويبرز القتل والإجرام، وتطغى الرذائل.

- هذا هو الأمر تماماً، الحركة تُخرج وتنتج وتحقق فاعليَّة

الطاقات المُتحيّنة، وقد يستر السكون جُبناً أو غدراً وخيانة، بينما اعتقاد الفضائل المُطلق حمقٌ، أخبرني، كيف تبدو لك التفاصيل الحياتيَّة المُستجدَّة، كيف تتعامل الآن مع محيطك وكل الأشياء الأخرى؟

– سأجيبك.

عندما تعمقتُ في النتائج التي انتهيتُ إليها، تفكرت في موازنة اختبرت نصفها وما زلت أستفهم، هل يُعاني ويشقى من يولد فاقداً بصره منذ اللحظة الأولى أكثر، أم ذلك الذي يُبتلى بالعمى فجأة بعد أن تعرَّف إلى الدنيا وموجوداتها الحسيَّة؟

– وما الذي خلصت إليه؟

– أظن بأن من يُولد كفيفاً لن يميّز القيم المادية للأشياء والأماكن والمُجسَّمات والمخلوقات الحية ويدركها كما البصير أو من يُبتلى بالعمى من بعد نور.

– صدقت، فأنت تجد ألمه أعظم؟

– ربما نعم، وربما لا، مع ذلك، فكم من عُتمة خفَّفت على المُبتلى مجاميع أذىً تُعربد فوق الأديم.

– كيف ذلك؟

من يولد أعمى، لن يلتفت مثلاً إن امتلك سيارة فارهة أم سيارة رخيصة، لا يُضيره إن كانت المكتبة من خشب الجوز أم خشب البلوط، ولن يجني متعة إن كان بيته قرب بحيرة "ليمان" أو قرب واحة وسط الصحراء، أو إن احتوى كفه على كرة ذهبية أو حديدية ملساء، سيريح باله من أشياء كثيرة، ألوان ثيابه،

غرفة في قصر منيف، أو ضمن شقة في تجمع شيوعيّ، حتى العنصرية لعلها تكون في أدنى درجاتها، فلا فرق عنده بين إفريقيّ أو أوروبّيّ، ولا صينيّ أو عربيّ، ألوان الفصول، زُرقة سماء الصباح، نجوم الليل، كلها كلمات وخيالات مختلفة، إنه عالم أصوات وروائح، مَسٌّ ومذاق، والهياكل العملاقة ستُحدث لغطاً وتشويشاً لديه، قد يتعرَّف الأجزاء ويفقد معنى تراصّها، فقد يدرك الحجر ويتعب في تكوين شكل الجبل، يجمع حبات الرمل في كفه، ولا يعي خط الأفق ولا تماوج الكثبان في البيداء أو اتساع السماء، تذكرتُ كيف كنت أضحك لرؤية أداء تمثيلي حركيّ، أما الآن فالضحك يقتصر على سماعي ومتابعتي للصوت والكلمة.

– وهل مفهوم الحرية واحد لديهم برأيك، خاصة إذا كانت الأشياء كلها بالنسبة إليهم عبارة عن ظلام حالك؟

– أما عني، فأنا قد أفهم معنى السجن، لكن ما زلت أتساءل، هل يشكل الأمر فارقاً لمن وُلد أعمى إن كان داخل أسوار سجن أو كان داخل بيته، عندما تكون مساحة غرفة السجن والبيت واحدة، هل يتمتع بمعنى السفر إلى بلاد أخرى، خاصة أنه لن يرى جبالها ولا غاباتها ولا بحيراتها أو سهولها ووديانها، ولا الطبيعة ككل، حتى لو وهب قصراً منيفاً، أعمدته مزينة بزخارف مذهبة، وفُرش بأثاث فاخر ثمين، وزُيِّن بكل ما تهفو العين إليه وتطرب النفس به، هل سيحدث اختلافاً لو كان المكان نفسه كوخاً حقيراً قد بني على المساحة ذاتها؟

– مع ذلك، فمواهب من العبقرية تتفجر عند كثيرين منهم.

– بالطبع، إنها تقنية تطوير للملكات الأخرى، من حواس للشم والذوق والسمع واللمس، إضافة إلى إغراق في التأمل عظيم، فترى الحكمة تنطق على أفواه الكثيرين منهم، لتجد فيهم الأدباء والشعراء والفلاسفة.

– وماذا عن عالم الجمال، هل يهمّ إن تزوج مَن وُلد أعمى من جميلة أم دميمة، أو تزوجت مَن وُلدت كذلك من وسيم أو قبيح؟

– بالنسبة إلي فأنا كما تعلم أستطيع في حالتي إدراك المسألة، لكني بصدق غير قادر على إجابتك عن الشعور الحقيقي للفئة الأخرى.

سأله "خليل" بتردد وكلمات خرجت متقطعة:

– ما الأمر الذي يُحزنك بدرجة كبيرة في وضعك الراهن يا "بشير"؟

مرَّت لحظات تغيرت فيها ملامح وجه صديقه، فجأة، وكأنما انهار كل شيء، بكى الرجل بصوت متهدج وهو يردد:

– بتُّ لا أقرأ، لا أقرأ يا "خليل"، صديقك "بشير" لا يقرأ، هذا هو الحرمان الأكبر، آه كيف تستمر الحياة وأنا عند هذا الخط من العجز والقهر، ما أقساه من ألم يا صاحبي، ما أقساه من ألم.

أخذ "خليل" يد صديقه وشد عليها وهو يقول:

– لن أطلب منك أن تهوِّن على نفسك، أنت أدرى بها مني، ولن أردد العبارات المتداولة الممجوجة، فما وقع عليك عظيم، لكن، رحمة بمحبيك، بزوجتك، لن يقلل الأمر من إبداعك،

استجمع كل عبرة وحكمة، استمسك بهذا الزاد المؤلم، احفظه، تذكره، تقوَّى به، ثم دوّنه وسيخرج للإنسانية نتاج تجربة تستحق النشر.

بعد تناول العشاء وقبيل مغادرته، أخرج "خليل" من حقيبته الصغيرة مظروفاً احتوى على مبلغ مالي كان قد أعدَّه مُسبقاً، فقدّمه لصديقه وهو يقسم عليه أن يتقبله ولا يردّه، بعد أن استعلم الضائقة التي حلت به بعد هذا الابتلاء، لقد فقد وظيفته كسكرتير تحرير، واستنزفت نفقات العلاج وما رافقها منه الشيء الكثير، ولولا عمل زوجته وبعض المال الذي كانا قد ادخراه لزادت الطامة استفحالاً، أصر "بشير" على الرفض، وأصرّ هو على ألا يخيب له رجاءً.

تذكر فيما مضى من سنوات شيئاً أخبره به "بشير" حينها وهو يضحك، يُعلمه عن رفيق له من عائلة واسعة الثراء، كان يعتبره حينها من الأصدقاء المقربين، وكان "بشير" ما يزال في بداياته الأولى، يُقلب الخيارات لأجل بناء مستقبله، ومن بينها إمكانية السفر، فكان ذلك الصديق يقول له، نحن أصدقاء بالفعل، فهل نريد من بعض شيئاً؟ لينظر "بشير" إليه وهو يخاطب نفسه باستهجان، "أنت تجد أني في أسوأ حال، وتعلم ضيق ذات يدي، وحتى حاجتي لثمن تذكرة سفر، وذلك عليك يسير، فالله أغدق عليك من خيراته، ثم تسألني بهذه البلادة المُخزية؟ هل تتقصد إذلالي، أم لعلك تتخذني تسلية لك، أم ربما تتعالى عليَّ بما وهبك الله من نعمائه، فمن يتوخى مساعدة الآخرين ويعلم

أنهم في مسيس الحاجة لا يسألهم، بل يفعل ذلك في الخفاء، وإن استطاع، فدونما إشعارهم بذلك، فكيف بمن يفترض أنهم أصدقاء له!"، إنه يبدو من خلال طريقة صياغته للسؤال تلك يحاول أن يدفعك أن تقول، لا، بالتأكيد لا نريد من بعض سوى الرفقة الطيبة، ولا مصالح بيننا، لكني كنت أغيظه بقولي، بالطبع نريد من بعض شيئاً، وإلا فما معنى الصداقة ونفعها إن لم يبادر الصديق إلى مد يد العون لصديقه عن الحاجة؟ تباً لها من رفقة لا يعين فيها الخليل خليله!

(الفصل السادس)

خلال السنوات الخمس التالية تتبدل أحوال وتطرأ أحداث ومتغيّرات، يقع الطلاق بين الزوجين بعد أربعة أشهر من وفاة والدة "خليل" وعودته من السفر، يتم الاتفاق على أن يترك الشقة لطليقته وابنتهما "سيرين" التي فرض لها حكم قضائي مبلغ نفقة شهري، بينما تتكفل "لبنى" بدفع أجرة الشقة بعد إتمام إجراءات الانفصال.

بدءاً من ذلك التاريخ سيُقال عن "خليل": "كانت له تجربة زواج من قبل"، فهو رجل، ومن الندرة أن يستخدم وصف "مُطلَّق"، أما عنها كامرأة، فالتسمية الجاهزة هي "مُطلَّقة"، فلا تغييرات تطرأ على جسد الرجل إن تزوج أو طلق أو عاشر بشكل كامل، ولكن ذلك يقع على الأنثى!

تترك عملها في المدرسة بعد تفاقم العديد من الخلافات المتزايدة، خاصة تلك التي باتت تختلقها "جالا"، وأخرى أشد تعقيداً وجدّية قد تؤدي إلى مشاكل حقيقية كبرى، فآثرت الابتعاد عن تلك الأجواء المسمومة كي تتفرغ للعملين الآخرين اللذين باتا بالفعل يشغلان الجانب الأكبر من وقتها، التدريب المسرحي، والعمل الآخر الذي أضحت فيه اسماً مهماً في عالم التدريب السلوكي والتنمية البشرية، فباتت تصنَّف كواحدة من أفضل الخبيرات المؤثرات في هذا التخصص المهم.

إنها تعيش حياتها المُستقلة الجديدة، تشاطرها فيها ابنة

جميلة هي في طور المراهقة، لم يكن استثناءً أن تغترف "سيرين" من جمال أمها ملامح كثيرة، إضافة إلى شخصية جذّابة تكوَّنت لتبدو مستنسخة عن شفافية روحها وعذوبة نفسها أيضاً، إنها تحاكيها رحمة وحناناً، ذكية لمَّاحة حاذقة، تربطهما قواسم مشتركة كثيرة، فالأب لا يعدو كونه كائناً بيولوجياً، هو أب قانونيٌّ شرعيٌّ كما تحتِّم المعطيات الواقعية ليس إلا، كحبر يلتصق بصفحات دفاتر السجل المدني، لن تهضم له مرتبة مهنية رفيعة يستحقها كرجل صحافة وإعلام له أهميته ومركزه على الساحة العربية، بعد أن أصبح شريكاً في ملكية وإدارة الأكاديمية الإعلامية المعروفة التي كان يحاضر فيها، لكنه من حيث الماهيَّة الاجتماعية الأسرية العاطفية الأبوية الحقة، فهو يبقى أبعد من طموحاتها وآمالها، لن تتكر لطفه ولا دماثة خلقه في اللقاءات النادرة التي كانت تجمعها به، وكذلك عدم تأخره عن القيام ببعض الواجبات المتعلقة بتحمل نفقات دراستها ومصروفها الشخصي، لكنه يبقى مُحاكياً لجدها والد أمها في الجانب الأهم، فهذا هجر وتخلَّى وذاك فعل، لقد نالت من إرث الفتور والتجاهل حصتها!

حتى ترك "لبنى" لعملها في المدرسة كشكل من حل ارتأته لم يكن لينتهي خالصاً دون شوائب تخلف خدوشاً في الذكرى، أو عوالق وآثار قد تترك ندوباً في النفس، فهي لم تتخلَ عن كل مَن في الصرح الذي أحبته وبذلت له الكثير، لكن قد تفتك سموم الغيرة وتفاعل الحسد بأعظم الصخور صلابة، لقد بلغ الجنون مبلغاً، فتغوَّل الدُمَّل واستفحل القيح، أهي "أروى" نفسها بالفعل؟ كيف

لها أن تتحول إلى ذلك التكوين المؤذي، تكتشف "لبنى" بالأرقام والدلائل صدفة أن محاسب المدرسة ما هو إلا لصّ وضيع مختلس لمبالغ مالية ضخمة، فتسارع إلى إبلاغ المديرة بالواقعة، كما نصحتها بالتحقق ومراجعة دفاتر الحسابات والفواتير المالية وكل الأوراق التي كانت تقع تحت تصرفه ومسؤوليته، لكن تجري الأمور خلافاً لكل التوقعات، فالمديرة تخبر الشرطة بالأمر فعلاً، ويُشرع في مُساءلة تثبت إدانة المحاسب، ينتج عنها كف يده وإنهاء عمله في المدرسة بعد أن تم توقيفه على ذمة التحقيق، لكن في الوقت نفسه، تقرر فيه السيدة "أروى" إعفاء "لبنى" من منصبها كنائب لها وإعادتها لوظيفتها السابقة معلمة لمادة اللغة العربية، وإسناد مهامها جميعاً لابنتها "جالا"، فتعساً له من جزاء!

شكل الأمر صدمة لها، فهي لم تستطع أن تستخلص الأسباب المباشرة التي دفعتها لذلك التصرف غير المفهوم، لكنها اتخذت عند تلك اللحظة الفارقة قرارها بعدم الاستمرار، خاصة ضمن ذلك المُناخ العدائي المتنامي غير المبرر، وأجواء من الصراعات التي تكاد تخرج للعلن والتي حاولت أن تنكر أسبابها ما وسعها، لكن عليها الآن أن تصدق وتوافق رأي "رها" عندما أخبرتها عن الأسباب التي تعلمها في أعماقها، وإن أظهرت رفضها، فالمديرة غارقة في عشق الأستاذ الذي علمت أنه انفصل عن زوجته منذ فترة قريبة، لكن "حسين" لم يفعل ذلك لأجل ولية نعمته التي طالما عملت على استرضائه بكل استطاعتها من دعمه بامتيازات تبدت في إغراءات مادية ومعنوية على نطاق

العمل، ولكن لمآرب أخرى يبطنها، منها أن مشرفاً على تزويد المدرسة بالكتب اسمه "رافد" كان قد انضم إلى الكادر عند بداية الفصل الدراسي الأخير، وهو شاب عراقيّ أعزب مليح الهيئة، تغلب على شخصيته روح المرح والدعابة، يهيم بكل ما يتعلق بصنوف الشعر والأدب، بل يستحق مرتبة شاعر لما يخطه قلمه أحياناً من مقطوعات شعرية أو نثرية أو خواطر تتميز بعمق معانيها وشفافية بيانها، قوية في تماسك لغتها وبنيانها، لاحظ "حسين" أنه بدأ يحظى بانتباه "لبنى" واهتمامها بل وحتى بثنائها على بعض الخواطر التي كان يتلوها في بعض الأحيان أثناء فترة الاستراحة، فاتخذ قراره بطلاق زوجته غير آبه برفض "لبنى" حبه لها، ولا لاعتذارها خلال تلك السنوات التي مضت عن الموافقة على علاقة تربطهما معاً، فكيف بغريم يأتي ليحطم آماله هكذا ببساطة، لذا، كان لا بد من حدوث المواجهة، حيث طلب من الشابّ صراحة أن يبتعد عنها، مبدياً له نيته بالزواج ممن يحوم حولها، لكن الغريب في الأمر أن "رافد" أعلمه بأنه غير معني بالأمر كليّة، فما هو إلا زميل عمل، والأمر لا يتعدى ما يظنه، كما أن "لبنى" نفسها صرخت في وجه "حسين" مؤنبة ومستنكرة تصرفه عندما قال لها بأنه سيحميها من أي أحد يحاول مضايقتها، فأجابته بحدة إنها لا تقبل وصاية من أحد، وختمت كلامها معه بطلبها منه الابتعاد عنها وعن حياتها الشخصية والكف عن متابعتها وأذيتها.

ذلك كله أوقع خيبة أمل في نفس "حسين" الذي أخذ الحزن

منه مأخذاً عظيماً، فلم يتأخر وقد آلمه القنوط في تقديم استقالته بعد رحيل "لبنى" عن المدرسة بفترة وجيزة ليلتحق بعمل آخر في مدرسة ذات نظام تعليم أمريكي.

ترافقت تلك الحوادث مع معاناة أخرى أذاقتها المرار، إنها أزمة صحية مبهمة مقلقة بدأت كعارض متقطع اعتادت التكيف معه، غير أن الأزمة تفاقمت لتتحول بمرور السنوات الماضية إلى نوبات صداع شديد تترافق أحياناً مع حالات إغماء متكررة تاهت في أسبابها، خاصة أنها لا ترتبط بفترات محددة بعينها، بل كانت تضرب في أي لحظة دونما سابق إنذار، لقد أنهكتها للحد الذي اضطرت فيه لمراجعة العديد من العيادات والمراكز الطبية، خاصة مع اشتداد الآلام في المدة الأخيرة، حيث نصحها طبيب تابع حالتها بمراجعة أحد المشافي المتخصصة بالأورام، وبعد جولات مضنية امتدت لأكثر من سنة، مرت فيها بتحاليل واختبارات طبية عديدة، منها إجراء تصوير دقيق للرأس بجهاز الرنين المغناطيسي، لأجل متابعة وتحليل طريقة سريان الدم وتدفقه ضمن الأوعية الدموية، يطمئنها الطبيب بعدها بأن حالتها لا تستدعي القلق، لكنه سألها مع ذلك مستفسراً إن كانت قد تعرضت في صغرها لحادث ما، أو لإصابة قوية على الرأس؟ عندها فقط، تستعيد جريمة الرعب التي اقترفتها في حق طفولتها عمتها "تماضر"، لقد استرجعت على كراهة منها كل لحظة من ذلك اليوم الرهيب، فالآن تذكر تماماً كيف برزت إليها وكأنها عفريت مجلّل يصرخ في وجهها، نعم بالفعل، كيف لنسيان أن

يمحو ارتعادها فرقاً حينها لهول ذلك المشهد المفزع، فسقطت مغشياً عليها، وبعد أن استعادت وعيها، يبدو أن رأسها قد اصطدم بأرض الغرفة، بينما كانت عمتها تتفحص رأسها ربما لخشيتها من عواقب فعلتها لو علم والدها الذي يحب حفيدته بالأمر، ما تزال تذكر تهديدها لها وهي تطالبها بألا تخبر أحداً بشيء مما جرى وإلا سيكون عقابها شديداً، وهذا ما كان، لقد دفنت كأشياء كثيرة في صدرها هذا الفصل من مشاهد الألم، أخبرت الطبيب بكل تفاصيل تلك الليلة المهولة، ليجيبها موافقاً على قصتها بأنه يعتقد بنسبة كبيرة أن ذلك بالفعل ما تسبب بتلك الأذية، فالحالة تتعلق ببعض الخثرات الدموية الصغيرة، يصمت الطبيب قليلاً، ثم يتابع محاولاً جهده تبسيط الأمر من خلال انتقاء كلماته بعناية وحكمة وحذر، كيلا يثير مخاوفها مردفاً القول، في الحقيقة هو ورم صغير متموضع يتطلب إجراء عملية جراحية عاجلة، لا تشكل خطورة على حياتها، وأخبرها بأن نسبة نجاح العملية شبه مؤكدة، ناصحاً إياها الإسراع في إجرائها وألا تتردد أو تتأخر في ذلك.

لم تنجح كلمات الطبيب المغلفة بنبرات الطمأنينية في تبديد شعورها بحالة من الكآبة واليأس التي رافقتها حتى المنزل، استلقت على سريرها في غرفتها واجمة حزينة، أخذت تسترجع كل كلمة وحرف، تتلاشى كل الكلمات فجأة، وتستعمر رأسها كلمة بعينها، كلمة مُرجفة مزلزلة تخطف كل أمن وسكينة، بما يتبعها من كلمات تحاول أن تلطف وجه الموت، أخذت تردد في نفسها، "ورم"، "هو ورم"، "هو ورم صغير" وماذا قال أيضاً؟ نعم، نعم،

"عملية جراحية عاجلة"، لماذا تتبخر كلمات كـ"صغير" و"لا تشكل خطورة" و"نسبة نجاحها شبه مؤكدة" بينما تبقى تلك المفردات الأخرى، تفكرت قليلاً لترتعد من جديد، متسائلة، ما الذي دفعه لاستخدام عبارة "شبه مؤكدة" عوضاً عن كلمة "مؤكدة" لو أن الأمر لا يبطن خطراً مميتاً؟

أتعبتها صور متوالية متسارعة بدت تقفز كالجنّ أمام عينيها، كيف هو شكل الموت، ما الذي تعرفه عنه، أهو مؤلمٌ، سريعٌ، خاطفٌ، مُستديم، كيف يُهال التراب فوق جسد كي يُطمر ويُبعد ويُجتث من بين الناس، يُترَك ملفوظاً في وحدة مُوحشة، في كل ليل ونهار، ما دامت الفصول بحرِّها وقرِّها، برعودها وغيوثها، بوطيس شمسها اللافح ودونما أنفاس، يُلقى هناك ليُدفن مُغيّباً تحت الثرى، بين الديدان والصراصير والخنافس وكل الحشرات التي تخيفها، بينما يرحلون عنه وكأنه فرار على استحياء، يبتعدون عن تلك الأرض المبتلعة المُترقبة، ما أتعس فجيعة الدفن حياً، كم عدد الحالات التي قُبر فيها البعض على أنهم أموات ثم عادت لهم الحياة دون أن يفطن إليهم أي مودِّع من الجمهرة الأخيرة، بينما يرتّلون على مسافة خطوات منهم منصتين إلى رثائهم من تحت الوحل الطازج المَرويّ، فكان الموت مضاعفاً عظيماً، يا له من وجل لقضاءٍ وأجل؟

ها هو جسد جدّها مُسجىً فوق سريره في المشفى قد فارقته الروح، وهذا حموها في تداعيه المفاجئ الأخير وانهياره، قدم لها وجهاً من وجوه الموت كذلك، وكيف لها أن تنسى الموت

قتلاً، بينما دماء جثة "بانياس" التي صدمتها وصديقتها "سارة" لا تفارق، أين أصغت أيضاً إلى حديث موت أحزنها؟ نعم، تذكرت، إنه زميلها "رافد" سألته في مرة عن عائلته في "العراق"، فذكر لها قصة عن ميتة أبيه الدمويَّة، تذكُر ما رواه لها قائلاً: "كانت المعارك مُحتدمة والخراب يعمُّ البلدة المُحاصَرة، أصوات الانفجارات يختلط بهدير الطائرات، وسُحب الدخان بسوادها الثقيل وصُفرتها السامة مع ما تحمل من حجارة وشظايا وأتربة تخنق الأجواء بركام مسحوق مُهدّد متوعد، ينتثر متطايراً قتالاً سريعاً يفتك فوق الصدور، كل حركة بميزان، وكل نفس بحسبان، لكن، مع كل أشكال الحرص، فلن تأمن صاروخاً يصفر، أو قنبلة تزأر، أو رصاصة تئزّ، أو حتى شظية تتقلك على عجل من عالم إلى آخر، فتُقبَر في حديقة عامَّة مهملة خربة، ربما أسفل مقعد كان لعاشقين، أو تحت مواسير دورة مياهها الحقيرة المنتنة، فلا رفاهية للمقبرة تحت تلك السماء المشتعلة، دفنتُ أبي قتيل الغارات هناك، اعتدت على أنه في أيام السلم يدفن الأبناء الآباء، أما أيام الحرب فيكثر الآباء الذين يدفنون فلذات أكبادهم، فما لي أخالف العادة وأنجو أنا كي أدفن أبي؟ تهدأ النيران، ويتوقف صوت المدافع، ثم تضع المعارك أوزارها إلى حين، يُطلب أن تنقل تلك الأجداث بما تضم من جثامين مُتحلّلة، أو تلك التي تنتظر دورها نحو التفسح إلى برّ أبعد، من أجل إعادة تأهيل البنية التحتية للبلدة، ومنها استصلاح حديقة الموت تلك، التي تقرر أن تصبح مجمّعاً تجارياً لواحد من أثرياء الحرب، جهزتُ

عدة أغطية صوفية وبعض الأكياس لأجمع ما تبقى من أبي، إن أشد ما أثار دهشتي واستغرابي ساعة أزيح التراب عنه، هو ما رأيته من جوع الأرض ونهم ديدانها، كيف باشرت عملها الدؤوب بنشاط يناسب المرحلة، فسرعان ما ذهب أكثر اللحم وبقي العظم إلى حين، مع أن رائحة البارود لم تغادر الفضاء بعد، ما تزال تزكم الأنوف وتُرهب قذائفها ما تبقى من خيالات تمشي كالأشباح فوق الأديم المُكفهر، لم تختر انتظاراً، ولم تشأ بقاءً وإن جهدت، لكن كتب لها ذلك كي تكتمل دورة الرحيل والترحيل"!

تُكلل العملية بالنجاح، ويتم تجاوز تلك المحنة العصيبة، ومع مرور الأيام ومضي سنتين تقريباً، تنحسر بشكل مُبشّر نوبات الصداع وحالات الإغماء، لكنها ولأسباب مجهولة تدخل في دوامة أعتى من سابقتها تسحبها بقوة إلى عالم من الكآبة والترقب وتوقع المآسي، لتتكفئ لائذة بغرفتها، منذوية على نفسها، فانقطعت عن عملها وعن الناس جميعا، حتى ابنتها "سيرين" جربت أكثر من طريقة محاولة إعادتها إلى طبيعتها، لكنها لم تفلح في ذلك إلا القليل، أين توارت تلك الضحكات التي كانت تميز "لبنى" وتكسوها بهالات من الإشراق والتفاؤل، أين إقبالها على الحياة وما يميزها من طاقة وحبور، أين عبارات شحذ الهمم التي اشتهرت بترويجها ضمن محاضراتها التعليميَّة، لقد لف الصمت كيان أمها، وتزمَّلت بدثار من شرود مريب تسبب في نوبات بكاء لوحيدتها التي حارت في حالتها.

زارتها خلال تلك الفترة صديقاتها "رها" وزميلتها السابقة

"ميار" وكذلك "جُلنار" المشرفة الاجتماعية في المدرسة التي تركتها، وزوجة شقيق "أسامة" صديق زوجها السابق، وصديقات أخريات، كما تلقت اتصالات كثيرة تطمئن على صحتها من أناس كثر يكنون لها المودة والاحترام، قامت بتدريب البعض منهم، بينما عملت مع بعضهم الآخر. تكفلت "سيرين" بمهمة الرد على كثير من تلك الاتصالات، كانت "لبنى" تبتسم لهم، بينما تقتصد في كلامها وتختصر ردودها على غير العادة، شكرت الجميع على زيارتهم وسؤالهم عنها، لكنها أقسمت عليهم ألا يطلبوا منها العودة إلى عملها في الوقت الراهن وألا يحملوها ما لا تطيق، مع وعدها لهم بأنها ستفعل، لكنها تحتاج إلى فترة استراحة ونقاهة من أجل استعادة توازنها وصحتها الجسدية والنفسية.

كان اليوم التالي هو الجمعة، حيث دعت "رها" صديقتها "ميار" إلى تناول الإفطار معاً في منزلها عند التاسعة صباحاً، جَلَسَتَا في الشرفة المطلة على منظر جميل لمياه بحيرة "الممزر" بلونها الفضي، والتي تتماهى مع اجتماع السحب الرمادية التي اكتملت متماسكة في الآفاق، فلم تترك ثغرة فوقها ولو صغيرة لتسلل بقعة سماوية، إنه وقت مثالي بالفعل لبرودة منعشة تحملها نسمات الأيام الأولى من شهر يناير.

بعد تناولهما الطعام، أعدت "رها" لها ولصديقتها فنجانين من القهوة فقدمتها إليها وهي تسألها:

– ما رأيك، أليس من الصواب أننا لم نعلمها بالأمر؟

– بالتأكيد، فحالتها كما ترين، إنني أخشى عليها يا "رها".

– لا أستطيع أن أصدق ما الذي يحدث لها، كم أحزنني أن أراها على تلك الحال.

– لكن هل تظنين بأن أحداً أخبرها؟

تناولت "رها" علبة التبغ أمامها، أخرجت منها لفافة وأشعلتها، ومن بين زفير دخانها أجابت:

– لا أعتقد ذلك، فأنا أعلم بها وبطباعها ومزاجها، إن وصلها الخبر، كانت ستتطرق إلى إثارة الحديث، إنني أفضل ألا تعلم، خاصة مع وضعها النفسي المُتردّي الذي ترين.

– لقد مرت ثلاثة أيام على الحادث، هل يعقل أنها ما تزال تجهل الأمر، مع كل الاتصالات التي تتلقاها؟

– ما بالك، ألم ترينها؟ إنها تعيش عالماً آخر هو أبعد مما تتخيلين، ولا يغرَّنك ما ترينه من ابتسامات ترسمها انتزاعاً من روحها المضطربة رغماً عنها وحباً بنا، إنها مرهقة يا "ميار"، وأنا أخشى عليها صراحة، ألم تلاحظي بأن ابنتها هي التي تجيب على أغلب الاتصالات، لن يخبرها أحد، خاصة وهي في هذا الوضع السيئ.

وضعت "ميار" فنجان القهوة ونظرت متسائلة:

– ربما لا أستطيع أن أفهم الأمر بوضوح مثلك، لقد مضى على إجراء العملية فترة طويلة نسبياً، ويقال بأنها تجاوزت مرحلة الخطر، مع ذلك فألاحظ بالفعل أنها لم تعد تتحدث كثيراً، وليكن، لكن هل تعتقدين بأنها تمر بمرحلة صعبة حقاً، هل ترين ما لا أرى؟

– مع أني أكره قول ذلك، ولكن، إنه لأمر غريب أن تجدي إنساناً لا يُعبِّر بأي طريقة من خلال وجهه أو لغة جسدية شائعة، فلا يحزن ساعة الحزن، ولا يفرح ساعة الفرح، ولا يغضب ولا يبتسم ولا يضحك ولا يبكي ولا يتعجب ولا يمتعض ولا يستنكر.

– هل تعنين بأنه نوع من البرود؟

– حتى أقصى درجات البرود لها لغة، فعدم الاكتراث لغة لها وجه نتعرفه، أما أن يكون المرء دون وجه، ولا نبرة صوت محددة، ولا حركة بدن، فهذا لعمري أمر مخيف، إن ابتسامتها تحمل غموضاً مؤلماً لا تحمد عواقبه، إنها ليست ابتسامتها، بل إنها ليست "لبنى".

نظرت "ميار" إليها مستفهمة:

– فكيف بها لو علمت بالحادث، كيف ستكون ردة فعلها لو أخبرت بمصرع "رافد" وأن "جالا" ترقد في العناية المشددة؟

ملأت "رها" لصديقتها فنجاناً آخر من القهوة وهي تجيبها:

– إن شرور الراقدة بين الحياة والموت لا يقل عن شرور جاسوستها الوضيعة "سدرة"، أليست هي من زيَّنت لها قرب "رافد" – رحمه الله – لا لشيء سوى لإغاظة "لبنى"، أنا لا أعيب على "رافد" كشاب يبحث عن فرص لتحسين ظروفه وقوعه في شباك من أغرته بوسائلها كي تستغله أبشع استغلال، لكن، قدر الله أن تكون منيته برفقتها وفي سيارتها، مع ذلك، صدقيني سيفتك بها الخبر لو تناهى إلى سمعها، إن سماحة نفسها لن تقبل الضرر لأحد، حتى وإن كانت من تحمل لها حقداً وحسداً.

على هامش منتدى الإعلام العربي الذي أقيمت فعالياته في واحد من الفنادق الفخمة الكبرى في "دبي" التقى "خليل" في ردهة الاستقبال بصديقيه، فهب واقفاً مُهللاً مرحباً فاتحاً ذارعيه:

– "منقذ عابدين" و"أسامة حاتم" في المكان نفسه، يا للسعد الطيب!

اقترب الرجلان منه وبادلاه التحية، فضم كل واحد منهما إلى صدره بسعادة، ثم اختار ركناً يشتمل على أريكة ومقعدين جلديين، يتبعان أحد المشارب العديدة في الردهة الواسعة، وبعد أن جلسوا جميعاً علق "منقذ عابدين" مُداعباً:

– كيف لإعلاميّ بارز مثلك يدير أكاديمية كبرى أن يتواضع ويلتقي أمثالنا من عوام الصحفيين البسطاء، فما أبعد عطور "البورجوازيَّة" النبيلة عن زيوت وشحوم "البروليتاريا" الكادحة؟

ضحك الجميع بمن فيهم "خليل" الذي رد على صديقه بسرعة:

– والله إني اشتقت إليكم، كيف حالك "أسامة"، وأنت يا "منقذ" سمعت عن ترقيتك إلى منصب مدير القسم الثقافي في الصحيفة بعد أن أحيل الأستاذ "عبد الجليل" إلى التقاعد، مبارك عليك يا صديقي، فأنت أهل لها.

– أشكرك يا "خليل" وأنت كذلك، تستحق المرتبة التي وصلت إليها والشهرة الواسعة التي بنيتها بتميزك، فأخبارك تسبقك، لكن طمني يا صاحبي، كيف تسير حياتك الأسرية، وكيف حال "شهد"، هل ما زالت على موقفها من الإنجاب؟

– هكذا أفضل لي ولها، وفيه الكفاية، إنها قانعة بذلك، لستما غريبين عن "شهد" وعن شخصيتها.

سأله "أسامة" بما عرف عنه من طبيعته الطيبة العفوية:

– وكيف ابنتك يا "خليل"، هل هي قريبة منك، تلتقيك وتلتقيها؟

إنه يعلم لطف صديقه ورقة قلبه وصفاء مقصده، فأجابه:

– لم أعد أشعر بأنني تقدمت في السن إلا بسببها، لقد غدت "سيرين" عروساً، وربما ورثت عني جانباً من الميول المهنية.

ابتسم "أسامة" وهو يقول:

– في الحقيقة، لكل مرحلة عمريَّة نفحاتها التي تنضح بالشباب حتى مع تقادم السنين، ليس من الضرورة بمكان أن يقتصر مفهوم الشباب على مظهر مادي، فقد تتجلى الرجولة في تصرفات أنثى، أو نراها في أخلاق غلام يافع، وكذلك هو الشباب، فقد يغمر روح رجل في الثمانين بينما يفتقده فتىً في العشرين. أما عن ابنتك، فلا غرابة لو حذت حذوك، فكل فتاة معجبة بأبيها، لكن، هل تقصد أنها تميل للكتابة؟

– ربما، فهي الآن تدرس في كلية الإعلام، وبالمناسبة، لقد تقدم شاب لخطبتها، يبدو أنهما على تفاهم، فأعطيته موافقتي.

سأله "منقذ":

– وأمها يا "خليل"، هل قطعت حبال التواصل والود كلها معها؟

أجابه وقد بدت تعابير أقرب للتبرم وبعض الحزن على وجهه:

– أمها؟ أوه، نعم، اتصلتُ بها الأسبوع الفائت لأستعلم عن رأيها بموضوع الشاب والخطبة، فأجابتني بعبارات مُبهمة، لم أعتد منها تلك الطريقة في الكلام، كأنها ليست هي، لكني فهمت منها أنها تميل لتحقيق رغبة ابنتها، فالفتاة مقتنعة به، هكذا أجابتني ولم تزد على ذلك.

قاطعه "أسامة" مضيفاً:

– لقد زارتها زوجتي منذ بضعة أيام، وأخبرتني أنها تعمل بشكل متقطع.

– هذا صحيح، قالت "سيرين" إن أمها تغيرت كثيراً، ويداخل الفتاة إحساس بأن والدتها ليست على ما يرام، حتى إنها فقدت الكثير من وزنها، كما أنها أصبحت أكثر صمتاً وانطوائية.

وهنا تقصد "منقذ" أن يغير وجهة الحوار، فتوجه إلى "خليل" وسأله:

– لقد تابعت تغطيتك الأخيرة عن متحف "الأرميتاج"، فهل أمضيت كل الوقت في "سانت بيترسبورغ"؟

– لا، قضيت فترة أسبوع في المدينة، وسافرت لثلاثة أيام كان لا بد منها من أجل تغطية بعض المعروضات في "غاليري تريتياكوف" في العاصمة "موسكو"، لقد قمت بإعداد وتصوير حلقتين، والشهر القادم سيتم عرض الحلقة التالية.

عاد "أسامة" وقد أخذت به الذكرى ليقول:

– يا لها من أيام، كم أحنّ إلى تلك الأيام في سكني قرب حواري "لافروشينسكي" الجميلة، لشدَّ ما تغيرت بعض المفاهيم

والمعطيات، من كان ليصدق هذا التحوُّل، إنها الهزات الارتدادية لـ"البيروسترويكا" ونعيم الانفتاح الفوضوي، هل تصدق بأني وبعد غياب لأكثر من عشرين سنة كنت فيها آخر مرة في "الاتحاد السوفييتي" السابق، لم أصدق ما رأته عيني عندما عدت وزرتها في السنة الماضية؟

- إن التغيّر هو الحتميَّة التي لا تتغيَّر، لا ألومك، لن تصدق عدد الأثرياء الجدد في بلد "الكلوخوز" و"السوفخوز"، لقد تحولت البلاد إلى تعاونية خاصة بطبقات تدير طبقات.

ثم طرح "منقذ" تلك الفرضية متسائلاً:

- على سيرة الثراء، تصور أنك صحوت من نومك فوجدت أنَّ أهل الكوكب جميعهم تحولوا إلى أثرياء، أسأل نفسي، كم عدد الأيام التي سيتمتعون فيها بثرائهم، من سيزرع لهم القمح والخضار، من سيجني الحصاد ويطبخ الطعام ويصنع الأحذية والملابس، من سيحلق لهم رؤوسهم ويعلمهم ويطببهم ويبني بيوتهم ويشق طرقاتهم ويستخرج وقودهم، من لكل تلك المهن البسيطة إن تحولوا جميعاً إلى أثرياء بشكل فاحش؟

أجابه "خليل":

- أعتقد بأنك ستتلمس حينها معنى حب العمل كطبيعة جوَّانيَّة، فالحذَّاء سيتشاق إلى صنعته، وكذلك الحلاق والخياط والطبيب والنطاسي والمعلم والنجار، سوف يحتاج بعضهم إلى بعض بلا ريب، فلا تغدو قيمة هنا للمال إن كانت أسعار الخدمات عالية جداً كما يحدّدها أهل المهن الذين تحوّلوا أساساً

إلى أثرياء! فيبهت ويبوخ معنى المال، بينما تعلو وتسمو قيمة العمل، ليفخر الحرفيّ بكنزه الذي يميزه لا بماله الذي يتشابه ويتشارك معه به جميع من حوله، عندها فقط يتحول الكنز ليُصبح الحرفة نفسها.

سأله "أسامة":

- أتظن حقاً بأن الحرف تتساوى في القيمة والأهمية حينها، فكيف يستوي الزعيم النافذ المُتحكّم على درجة واحدة مع النَّجار أو الحداد أو الحلاق؟

ابتسم "خليل" وقد بدا في عينيه وميض يشع بدهاء ليجيبه:

- بل قد يكون بعض هؤلاء في لحظات بعينها ذوو مكانة أدق حساسية، وأعظم خطراً، وأكبر أهمية، فالنصيحة للنافذ مثلاً هي ألا يغضب حلاقاً يُسلمه رأسه فيضعه بين يديه، إنه ليس بمنجاة من شفرته يمررها فوق نحره، وهو مجبر أن يطأطأ له الرأس، وإن دانت له رقاب كثيرة، عليه أن يلين له في القول، وأن يُجزل له في العطاء، وربَّما يداعبه ويلاعبه، ولا بأس من أن يمازحه ويلاطفه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فهو لا يضمن بوائق الدهر وتقلبات الأيام.

عاد "منقذ" تراوده أفكار تتعلق بتلك التحوُّلات بين حقبة المُجسمات المتشابهة وبين ما يقال عن مستوى الثراء الحالي للقوة التي اعتمدت على كثير من السرِّية والتخفّي، فلم يجد بداً من طرح اعتقاده بصياغة كالتساؤل:

- كما طافت بكم الذكرى لأيام تحمل ذلك العبق، فهي

كذلك طارت بي لتحلق فوق "مداخن بريبيات" كنت أقول لنفسي، لم لا يكون الجوع وحده الذي تسبب بكارثة "تشيرنوبل"، لعل العامل المسؤول الذي كان مشرفاً على التجربة حينها خرج من بيته من غير طعام يقيم أوده، فلم تتراءى له الأشياء على حقيقتها، يتراخى الانتباه، يشرد الذهن، ترتجف المؤشرات في رقصة موت مفزع، فتحل الكارثة، أما السبب فقد يكون قلة الزاد وشح الأعلاف التي أنهكت قلتها أبدان ثيران السواقي، لتهوي هي والمعبد! وقد تكون زجاجة "فودكا" رخيصة أذهبت الرشاد وقتلت العباد، كما هو في بعض الحالات الخفية، كغرق الغواصة "كورسك" وبعض حوادث الطيران المدني الغامضة!

أثنى "أسامة" على كلام صديقه، ثم أضاف:

– مع كل ما تراه وتقوله، فليس لنا أن نجمع معسكر الشرق مع معسكر الغرب في خندق واحد، أنت تعلم بأنهم من أجل تحقيق الحلم الغربي لا بد من خلقهم الكابوس العربي.

– هل تثق حقاً بتلك الألاعيب؟ فلتعلم بأن شرقهم وغربهم في ذلك غرب، وأي خلاف بينهم ينتظر التأجيل ليتآزر حديدهم شدة علينا!

– ستبقى أيام الزمن الجميل، تلك التي كانت تنعت بالحقبة الباردة.

اعترض "مُنقذ" فجأة على عبارة "أسامة" وهو يستوضحه مستغرباً:

– الزمن الجميل! أي جمال هو، ومتى كان الخنق والمنع، الهبش والبلع من سِمات الجمال؟

عاد "أسامة" ليسأله:

– إن لم تجده كذلك، فكثير من الناس تراه جميلاً بانفتاحه الثقافي، ممتعاً بتعدده الفكري، بهيجاً حتى بموسيقاه وفنَّه ومُناخاته النقديَّة، بل وحتى أصواته الراديكاليَّة.

كرر "منقذ" السؤال في صياغة أخرى:

– تقول بهيجاً! أين هي البهجة في أن تمضي ساعاتك وقوفاً كي يُقذف في وجهك قليل من الخيار الهلاميّ، وبعض حبَّاتٍ من طماطم معطوبة؟ واذكر خلاصة سائل شاحب "كيروسينيّ" اللون، لزج القوام، غير مُستساغ يُسمّى باطلاً بزيت القلي، مع ذلك فكنتَ تقبض على حِملك منتصراً، في رحلات ذهاب وإياب شهرية، تحت حرارة الشمس اللاهبة، أو في مواسم الطين وحومات المطر، أين الجمال في سعيك لتقبيل كل أنواع اللحى، وتبويس كل أصناف الشوارب، لأجل عبوة غاز منزلي مغشوشة التعبئة، و لبضعة ليترات من وقود "الديزل" علّها تخفف عن أطراف أطفالك زمهرير العقاب؟ كيف لنا أن نغفل عن سنوات منعت فيها نشوة الفوز بأكل الموز! تلك الفاكهة التي حرِّمت على القانع والمُعترّ، إن الوصف اللائق بتلك الحقبة أنها كانت أيام زمن رديء، قبيح، سيئ، أما بعض من كتب عليه أن يعيش هذا الزمن، فاعذره إن وصفه بالزمن الأكثر سوءاً وقرفاً، لا تلمه إن وجدها معيشة ضنكى بكل حيلها وحبائلها.

أراد "خليل" أن يختصر الحوار بسرعة، فقد انتهى وقت الاستراحة وحان موعد العودة إلى متابعة فعاليات المنتدى فخاطبهم ضاحكاً:

– انتهى وقت الراحة والصراحة، قوموا إلى أرزاقكم.

اختلفت هذه الزيارة عن سابقاتها، أرادت "رها" أن تقابل صديقتها "لبنى" وحدها في بيتها، بمعزل عن أية رفقة، فاتصلت من أجل ذلك بابنتها "سيرين" أولاً لتُعلم أمها بذلك وتختار التوقيت الذي يناسبها، وهذا ما كان فتقرر أن يكون الموعد في الساعة السابعة مساءً اليوم.

استقبلتها الابنة بترحاب وحفاوة كعادتها، ثم أدخلتها إلى غرفة أمها التي تعلم مقدار محبتها لها، بدت علائم التعب والشحوب على "لبنى" التي كانت مستلقية على سريرها مكفهرة الوجه قد ترك الهزال في جسدها آثاره الشقيّة، لكنها مع ذلك، تحاملت على نفسها واستوت قائمة لتأخذ صديقتها بالقبلات والأحضان، بينما ذهبت "سيرين" للمطبخ من أجل القيام بواجبات الضيافة وتجهيز القهوة وبعض الحلوى، وكي تتيح للضيفة أيضاً فسحة للكلام مع أمها، لقد اعتادت على ذلك مع الوقت بما هو معروف عنها من لباقة وحسن تصرف، أصرت "لبنى" على "سيرين" وزوجها أن يقيما عندها في الشقة التي انتقلت إليها منذ ثلاث سنوات تقريباً، والتي تتألف من غرفتي نوم وصالة، فهي تتسع لهم جميعاً، أقلها في هذه الفترة ريثما تستعيد عافيتها، وتركت لهما الخيار في أن يستقلا بسكن آخر قريب ساعة

يقرران ذلك، خاصة أن زوج ابنتها "عمرو" يعمل مديراً للتصوير التلفزيوني، حيث يغادر إلى عمله صباحاً ولا يعود إلا عند العصر أو حتى بعد المغرب، فوافقا على رأيها بشكل مؤقت.

تكلمت "لبنى" بهدوء وابتسام:

– كم أنا محظوظة بك يا "رها"، وكأنك تعلمين حاجتي في الحديث إلى من أحب، وهل أبقت لي الأقدار صديقة بمثل قلبك وقربك؟

– إنني الأوفر حظاً والأكثر سعادة بك، ولذلك سامحيني لو عاتبتك لفرط محبتي، لماذا يا صديقتي، لماذا تفعلين ذلك بنفسك، والله لا يليق بمثلك هذا الخمول ولا ذلك الانكفاء، أين التي كانت تبث التفاؤل لتجبر قلوب المنكسرين، أين من كانت تحرك المُهجَ بكلمة وهمسة وبسمة؟

– هل تصدقين لو قلت لك أنا نفسي لا أعلم ما الذي يحدث لي، لا أعلم بالفعل، لكني على يقين من شعور لا أشك فيه، لم أعد أطيق أي شيء، إني أحس باختناق، كل ما أراه أمامي، كل حدث وعبث، لم أعد أرغب المشاركة في هذا السيرك، ليس هذا هو العالم الذي أسعى إليه، كيف لي أن أمنع النفس من أن ترى في نعوت الحزن زاداً للحياة، وأن تتربَّع القداسة على عرش المآسي، تلك الأحاسيس وإن خلقت بعض النفور، لكنها تهذب خامة النفس كي تنقلها إلى عوالم من النقاء، تحلّق بها لتطرق أبواب السماء، فتطالع من عليائها تلك الآلام، قد تهطل دمعاً كالبلسم فوق الأنفس المكلومة الثكلى، كذلك هو حضورك ولطف

كلماتك، هي تُدني النفس من الجمال، تشذِّب الوجدان بإنسانية تحرص على صون مواطن الحبّ وأفئدة الرحمة، أحمد الله أني زوجت ابنتي، كنت أخشى أن...

قاطعتها "رها" قبل أن تتم جملتها وقد هزمتها العبرات، فارتجفت في حلقها كلمات كأنها آهات لتسألها أن ترحمها وترحم نفسها من هذا العذاب قائلة:

- لا تقولي ذلك، بالله عليك يا غاليتي، لا تمعني في إيلامي، ولا توغلي في الجلد؟ لن أدعك تجرمين بحق نفسك وأسرتك.

ثم تابعت "رها" بلهجة تتلون بنبرات من الحنان والرأفة:

- كان يحبك يا "لبنى"، ولم أشأ أن أكون ناقلة الخبر المشؤوم، انتظرتُ خلال الأشهر الثلاثة الماضية أن تعلمي بالحادث من غيري، قالت لي "ميار" أنّ "جلنار" أعلمتك بوفاة "رافد" دون قصد منها، فهي لا تحيط بشيء من الأمر.

استأذنت "سيرين" بالنقر على باب الغرفة ثم دخلت لتقدم لهما القهوة مع قطع من "البيتيفور"، وضعت الصينية فوق منضدة صغيرة أمامهما ثم استأذنتهما لتعود إلى صالة المنزل.

فتحت "رها" حقيبة يدها ثم أخرجت مظروفاً بريدياً وقدمته إلى صديقتها، ثم تابعت كلامها بالنبرة ذاتها:

- لم يكن سيئاً يا "لبنى"، صدقيني، لم يكن غادراً أو خائناً، لكنه خشي عليك وعلى نفسه من ردود أفعال غير منضبطة قد تسبب لك أي أذى، خاصة بعد أن قام "حسين" بتهديده بشكل

غير مباشر، إضافة إلى ترددك أنت كذلك، لقد كان محاطاً برقابة "أروى" وتغلغل نفوذ ابنتها التي تحيَّنت كل الفرص لإيقاعه في شباكها، إن التي مهَّدت لها السبل بعد اعتذارك منه مراراً الواشية الخبيثة "سدرة".

أحنت "لبنى" رأسها إلى صدرها، وسألتها دون أن تنظر في عينيها:

– أنت تعلمين بأني لم أعده لا هو ولا غيره بشيء، مع ذلك، فأسفي على شبابه الذي أضاعه مع مَن لا تستحق، لقد كان طيباً طاهر القلب، والآن، تكلمي يا "رها"، ما الذي تستره هذه المقدمة، ماذا وراءك، وما قصة هذا المغلف؟

– قبل الحادث، طلب مني "رافد" أن أوصل لك هذا المغلف، وأوصاني بألا يعلم أحد عنه، لذا لم تسنح الظروف كي أسلمك الأمانة إلا الساعة، لقد أقسم لي أنه ابتعد احتراماً لرغبتك، لكنه سألني أن تقرئي ما يتضمنه المغلف أيا كان موقفك منه، ووعدني بأنه لن يفرض عليك قلبه، لكنه رجاني أن ألقي في حضرتك هذا الكتاب، لا أدري ما السر في أنه أقدم على تلك الخطوة في ذلك الوقت بالتحديد، هل يُعقل أنّ حدسه أشعره بدنو أجله؟ لا أعلم، لكن، أترك الأمانة بين يديك، وسأبقى على اتصال.

بعد مغادرة "رها" وضعت "لبنى" المغلف في درج الكومودينا قرب سريرها، كانت تتردد في فتحه وقراءة ما في داخله، باتت تسكن مطمئنة إلى أفكار ترى أنها أسمى من هذا الوجود المادي ما انفكت تراودها في الأيام الأخيرة، كأنه صراع خفي بين كل

الصور التي اعتادت كما الكثير من العوام على رؤيتها بتواتر يوميّ يبعث على الغثيان، وصور أخرى ترمي وراءها كل هيئات المُدرك المُدَنَس اليومي المُتشابه، لتتجاوز هذا الصخب الرخيص بإيقاعاته المُشوِّشة اللاهية، وهذا العالم المتخم بالفِخاخ، مُتخذة قرارها بالبحث عن الخلاص، وبعد أن شاركت "سيرين" و"عمرو" ساعة المساء بعض الأحاديث التي حرصت فيها على أن تأخذ منهما ميثاقاً على أن يحرصا على رعاية ثمرة الحب والتفاهم والرحمة بينهما، طلبت منهما أمراً غريباً أصرت عليه بشدة، لقد أذهلهما ما سألت، لكنها هددت بأنها ستفعل إن لم يصدعا لتنفيذ رغبتها، لقد اتخذت قرارها السفر والانتقال بشكل نهائي إلى "سوريا"، والعودة إلى بلدتها القديمة، أخبرت "سيرين" وزوجها أنها كانت قد اشترت بيتاً حجرياً صغيراً في قرية "بارمايا" أثناء زيارتها الأخيرة هناك قبل أن تجري العملية ببضعة أشهر، هو عبارة عن غرفة واحدة ومطبخ متواضع ودورة مياه لا غير، وسط طبيعة جبلية خضراء ساحرة وهواء نقي، تستطيع أن ترى عن بُعد ساحل البحر وجانباً من مدينة "بانياس" القريبة، إضافة إلى نبع "غدران" بمياهه العذبة الصافية، ابتاعت له أثاثاً بسيطاً وأعطت نسخة عن المفتاح لصديقة دراستها الثانوية "سارة" كي تتولاه في غيابها وترعاه كلما سنحت لها الظروف بزيارته، كانت "سيرين" قد التقت برفيقة أمها أكثر من مرة أثناء قضاء العطلات الصيفية، وتعلم مقدار محبتهما لبعض والثقة الكبيرة بينهما، كانت أمها في الحقيقة تعتبرها بمثابة أخت لها.

فاز السُهْدُ بجولة تلك الليلة مُطيحاً بكل محاولاتها لتجاهل وصية الشباب المُضرَّج بالأفول، كيف تخلد للنوم وصدى الدماء المجاور لرأسها يتردد في ذلك الدرج الخشبي ويطرد الأوسان، أخرجت المُغلف المنتظر، تأمّلته برهة قبل أن تفتحه وتخرج المحتوى، فاحت رائحة القرنفل من طيات الورقة الزرقاء، تناولت، وقرأت:

هل تعلمين معنى الغصَّة..
هل تُدركين فحوى كلّ لوعة وجنون..
هل تناهى إلى قلبكِ صوت الفجر الباكي..
كيف أراكِ حبيبتي بعد اليوم..
كيف لا أخجلُ من كلِّ سريرٍ ومخدَّة..
كيف لا أخجلُ من كلِّ شمسٍ وقمرٍ ونجمة..
تسخر منّي، تهمس، أنتَ، أنتَ، أخذتك الغفلة..
وتموءُ القطة ثغراً بسَّاماً..
يُداعب شفتيكِ كطفلة..
كيف لحبيبتي أن تترجمَ اختناقي..
كيف لها أن تعلمَ كفاحي..
بُركاني، ثوَراني، وصياحي..
غلوائي وقنوطي ويأسي..
تلك الرؤوسُ تُطالعني..
رؤوسٌ حمراءَ تُطالعني..
تتبسَّم، تضحك..

ووجهكِ البدريّ يُنيرُ بالرَّجاء..

لا تتركني..

آه، لا تتركني، فأنا أُخطَفُ..

أنسلُّ من بين يديكَ حبيبي..

آه طفلتي، تنسلخ الرُّوح بكلِّ غضب الدُّنيا..

تصرخ أنْ.. قُم.. قُمْ لها.. حَرِّرها..

وأراها كثيرة تلك الأيادي، قبيحة هي..

ما أقبحها تلك القبضات الشوكيَّة..

حمراء.. برؤوس حمراء تُطالعني..

كلونِ الدمِ لأبأسِ الأحلامِ..

تتخلَّق كابوساً ليليّاً..

وجوهٌ كثيرةٌ حمراء تلاحقني..

وأنتِ صغيرتي.. تديرين رأسك..

تلتفتين برجاء، تصرُخين..

لا تتركني.. لا تتركني..

فأنا أُخطف.. خلصني..

آه حبيبي لا تتركني..

حرّرني..

وأنا أبكمٌ، أصمٌّ، عاجزٌ، مشلول..

أراكِ، نعم، بوجهكِ الباكي..

والصَّرخة الخانقة تنهارُ بدمعة..

أراها تلك الحواري في ظلمة الجريمة..

كثيرةٌ هي الحواري التي تبعتكِ فيها ببصري..
وأنا خواءٌ، هشٌّ، عاجز..
ما زال طرف قميص النوم كأنه رداء ملاكيّ..
يظهر لي آخرهُ كلما ساقوك من زُقاقٍ لزُقاق..
وأنا أبكي...
فهو قميص نوم الطفلة..
والمُختطِفون جماعات، زُرافات..
وطفلتي تنظر، تلتفت بصرخة..
وأنا أبكي...
كأني أتنسَّم رايات الحريَّة..
فلا حبال، ولا قيود..
تبعتكِ.. قفيتكِ.. تلمَّستُ خُطاكِ..
شيءٌ يسطع.. يلتمعُ بجوفِ العتمة..
إنها دمعتك انحدرت ماسة..
ماسة تَهديني، وتُهاديني..
تبعتُ الدَّمعَ.. تبعتُ الجوهرَ والياقوت..
وخصلاتُ شعر حبيبتي.. عطرها.. مَاسها..
هدىً لطريقي...
آه من وجهك الوضَّاء برطيب مومض..
ذاب في المجهول..
وأنا أبكي.. فأنا عاجز..
قيدي يتبعك..

روحي حوَّمَتْ في فضاء الجريمة..

ها هي أنفاسك الجزعة تلومُ الغفلة..

لعنتُ المخدَّة، والسَّريرَ، وكلّ غرفِ النومِ..

لعنتُ جنون الغفلة..

خطفوكِ حبيبتي..

آه، خطفوك طفلة الرُّوح أنتِ..

ما أقسى أن يُصرَعَ الحبيبُ بسيفِ الغفلة..

أن يرى طفلته وقد سُجِّيتْ بقميص النَّوم..

سُجِّيتْ نائمة.. حالمة.. غافية..

آه لها من هانية..

هادئة، سكنتْ، بردَتْ..

فهي طفلة..

هدأت.. كم بكتْ.. كم صرختْ..

لكنها... هدأتْ..

وطيرٌ أبيضٌ..

طيرٌ يعزفُ موسيقا تقتلني..

ويحومُ فوق جسدٍ أزرق..

وأنا عاجزٌ.. مشلولٌ..

أسيرٌ.. حبيسٌ.. نائم..

صعبٌ هو نومي.. فالبسمة قد خُطفتْ..

ولتهنأ كل الأجداثِ، فطفلتي..

آه لنشيجها، قد خُطفتْ..

لكنها أمامي، أراها..

مُمدَّدة، سُجِّيتْ، مع طيرٍ أبيض..

وأنا عاجز...

ثم خاتمة يقول فيها، أذكر الساعة التي حدثتك فيها عن مقتل أبي أثناء جلوسنا في استراحة المدرسة، تعجبت حينها كيف للحياة أن تشق تربة الموت لتخرج معانقة سماءً قد تشبعت بعطر الورد، حقاً، لن نعلم أصالة الحزن إلا باختبار ثماره المورقة رأفة، لم أتلقَ تعزية تليق برحيله طيَّبت من خاطري كما فعل البريق الرحيم المرتجف بين جفونك، لكم تمنيت لحظتها أن أكرم بمكانته التي حظيت بجميل رثاء صمتك الجارف، ما أجملك وما أسعد من يطرب لإصغائك.

أغلقت الورقة بقلب منفطر، ثم تمتمت بضراعة، فليغفر الله لك ويتولاك برحمته.

اكتفت بإنارة رتيبة يرسلها مصباح زجاجي قديم يعمل بزيت "الكيروسين"، كما استغنت عن أشياء كثيرة لم تعد تعني لها شيئاً، فلا كهرباء، ولا هاتف، ولا حتى ثلاجة، الحجرة تخلو من مجمل الأدوات الكهربائية، أرادته مُنعزَلاً بسيطاً كما هو، تصبو إلى الصومعة المُثلى والمحراب الأخير، عرفها أهل القرية خلال الأشهر القليلة التي قضتها بينهم، كانت تخرج من بيتها عند الصباح، تحمل حقيبة من قش، تلقي فُتات الخبز وتنثر بعض الحبوب للطيور، توزّع قطعاً من الحلوى على أطفال الجوار، تبتسم بنظرات تقطر ودّاً ورحمة لكل الخلائق، تعودُ المرضى فتكون كلماتها بلسماً لأسقامهم،

يُقسم بعضهم أن الشفاء يرافق خطواتها المباركة، كم أحبها الأطفال وأهل القرية على اختلاف أعمارهم، لقد حظيت في مدة قصيرة على اهتمام هذا المجتمع الصغير بتعداد سكانه، الكبير المُتّسع برحابة صدورهم، لقد اعتادوا على رؤيتها تجلس وحيدة عند ساعات الغروب قرب ماء الغدير ، أو عند صخرة معروفة أعلى القرية تقضي الوقت حتى ساعات الليل، من أين تأتي بكل تلك الطمأنينة وذلك الإحساس بالأمان، كانت لا تخشى تلك الوحدة، ولا ترهب الخلاء، بل تستمد منه القوة والزاد، اشتُهرت بذلك الزي الذي تفردت به، ثوب فضفاض طويل وغطاء رأس أبيض يكللها هيبة ووقاراً، ويزيد من سماحة وجهها جلالاً وأنواراً.

حتى النجوم كانت لها حصة من محبتها، تهمس لها، وتضحك للقمر ، ثم تُسبِّح الله في خشوع كلما امتلأ قلبها بالنظر إلى عظمة هذا الكون في جوف الليل وعتمته المشعة لأهل البصائر ، إلهي كم أنت قريبٌ مُجيبٌ لمن يطرق أبواب رحمتك، رنت وأطالت النظر بقلبها فأبصرت، كأنها أقمشة تفوق الحرير نعومة، هكذا تلمست رؤية السماء مع القرب، كأمواج شفافة تسبح فيها الأجرام وتطوف في سعي متصل، تسجد في حضرة الإله الأكبر الذي أحاط ووسع كل شيء، فلا غرابة أن يسري بين الناس لقب لها يشيع، القديسة الزاهدة.

أخذ الشوق والندم بمجامع القلب.

لا، لا، كيف فعلت، يا لحماقتي، يا ربَّاه ما الذي اقترفتُه بحق نفسي وأمّي؟

هل جُننت، كيف وافقتها، يا له من مفهومٍ مُضِلّ عاقّ للطاعة؟

كيف أنتظر حتى قدوم الصيف؟ حتى الخالة "سارة" لا تريد أن تبردِ نيراني، لكنّي على ثقة مما كانت تلمِّح إليه، إنها لم تتصل بي إلا لخطب جلل، "سيرين، يا بنتي، إن استطعت القدوم فهذا أفضل"، هي قالت ذلك، إنها لا تطرح خياراً وإن قدمته كذلك، نبرتها أفصح من كلماتها، ويحي ماذا فعلت.

في صباح اليوم التالي، وبعد رحلة مرهقة في الطائرة وهبوطها في مطار "دمشق" استقلت "سيرين" وزوجها "عمرو" حافلة إلى مدينة "اللاذقية" ومنها انطلقا بسيارة أجرة أوصلتهما إلى البيت الحجري الصغير في قرية "بارمايا" حسب العنوان التفصيلي المُدون في ورقة تحملها، حيث تفاجئا ببابه المُشرّع وتحركات تثير القلق حول المكان، ارتجف قلبها خوفاً لرؤية صديقة أمها عند الباب وقد تجمع رهط من أهل القرية حولها كأنهم يستعلمون شيئاً، كان أول سؤال ألقته الفتاة على صديقة أمها "سارة": "أين أمّي يا خالة؟".

ماذا تقول للفتاة، وما عساها تجيبها؟

من بين الدموع، أجابتها وهي تضمها إلى صدرها:

– لا أعلم، لا أحد يعلم يا بنتي.

أخذت الصدمة من "سيرين" التي تساءلت وقد تلبستها حالة من الذهول سألتها بصوت مختنق أقرب للبكاء:

– كيفك ذلك؟ ما الذي تعنين بلا أحد يعلم؟

– منذ أربعة أيام وعند فترة الضحى تقريباً جئت كالعادة للاطمئنان على أمك كما أفعل كل أيام الجمعة، وعندما طرقت الباب لأكثر من مرة ولم ألق استجابة، اضطررت لاستخدام المفتاح الاحتياطي الذي تركته والدتك في غيابها معي ولأجل استخدامه عند الحاجة، دخلت فلم أجد أحداً، فخرجت وسألت عنها جارتها العجوز "أم سليم" الأقرب إليها والتي تجلس عند باب بيتها في أغلب الأحيان، فذكرت لي أنها قلقة عليها كذلك، فلقد رأتها لآخر مرة منذ يومين ساعة العصر، حيث ألقت عليها التحية ثم تابعت بعد ذلك سيرها صعوداً متجهة صوب الجبل عند الصخرة التي اعتادت الجلوس عليها، وتذكر أنها كانت تحمل حقيبة القش التي تضع فيها أشياءها كالعادة، وأشارت كذلك إلى أنها لاحظتها وكأنها كانت تبدو متعجلة في مشيتها، ولم ترها منذ ذلك الحين، وعندما ذاع خبر تغيّبها، سارع الناس إلى البحث عنها في كل الأمكنة التي كانت ترتادها، بحثوا عند الصخرة وحولها وقرب الغدير وفي أغلب مناطق القرية، وهذا هو اليوم السادس على اختفائها، وقد أعلمتهم بموعد حضورك لذا ترينهم هنا لتقديم أي مساعدة يستطيعونها، حتى إني قمت بإبلاغ الشرطة بمرور اليوم الثالث على غيابها بعد أن سألت عنها في بيت جدها القديم في المدينة حيث تقيم عمتها "تماضر" لكنهم أخبروني أنهم لا يعلمون عنها شيئاً، ثم عدت واستفسرت من الشرطة يوم أمس فأبلغوني أنهم يقومون بعمليات البحث والاستقصاء والتحري، وأكدوا لي أنهم سألوا كل الأقارب الذين

أعلمتُهم بأسمائهم وعناوينهم، لكن، لا نتيجة حتى الآن، فجميعهم لا يعلم عنها شيئاً!

عاد الناس إلى صخب الحياة وضجيجها، ليتلهَّى كل منهم بمشاغله ومشاكله، هي أيام تمضي سراعاً، وسيتبع الخلف السلف، ويلحق المنتظر بمن رحل، وتستقر الآلام في غياهب الصدور، لها حجراتها الخاصة بها، لن ينجيهم التناسي، فالكل مُساق رغم أنفه، فليتعلق من يشاء بمال أو جاه أو سلطان ما وسعه التعلُّق، فلا الحزن يُقدِّم ولا السرور يؤخّر، و"السعيد مَن اتَّعظ بغيره"، أما الحكيم مَن عاف واستعفَّ وأحسن التزوُّد بطيّب القوت.

تمضي الأيام والشهور والسنوات، وعندما يسترجع بعض أهالي القرية ذكراها، يحلف بعضهم أنه رأى مُمرضة تشبهها في أحد مشافي "بيروت"، بينما يؤكد البعض أنه رآها في العراق تسقي بعض الجرحى، وبعضهم الآخر يقول إنه رآها في "دمشق"، بينما عدد كبير من الأطفال يقسمون أنها ما تزال تلقاهم على الدوام، وتقدم لهم قطع الحلوى أثناء لعبهم قرب الصخرة وتوصيهم على الدوام بمحبة أهاليهم، لكن المؤكد أنها استطاعت أن تسكن قلوب الكثيرين ووجدانهم ما بقيت الذكرى.

الفهرس

الفصل الأول 5

الفصل الثاني..17

الفصل الثالث 35

الفصل الرابع 73

الفصل الخامس..101

الفصل السادس...173